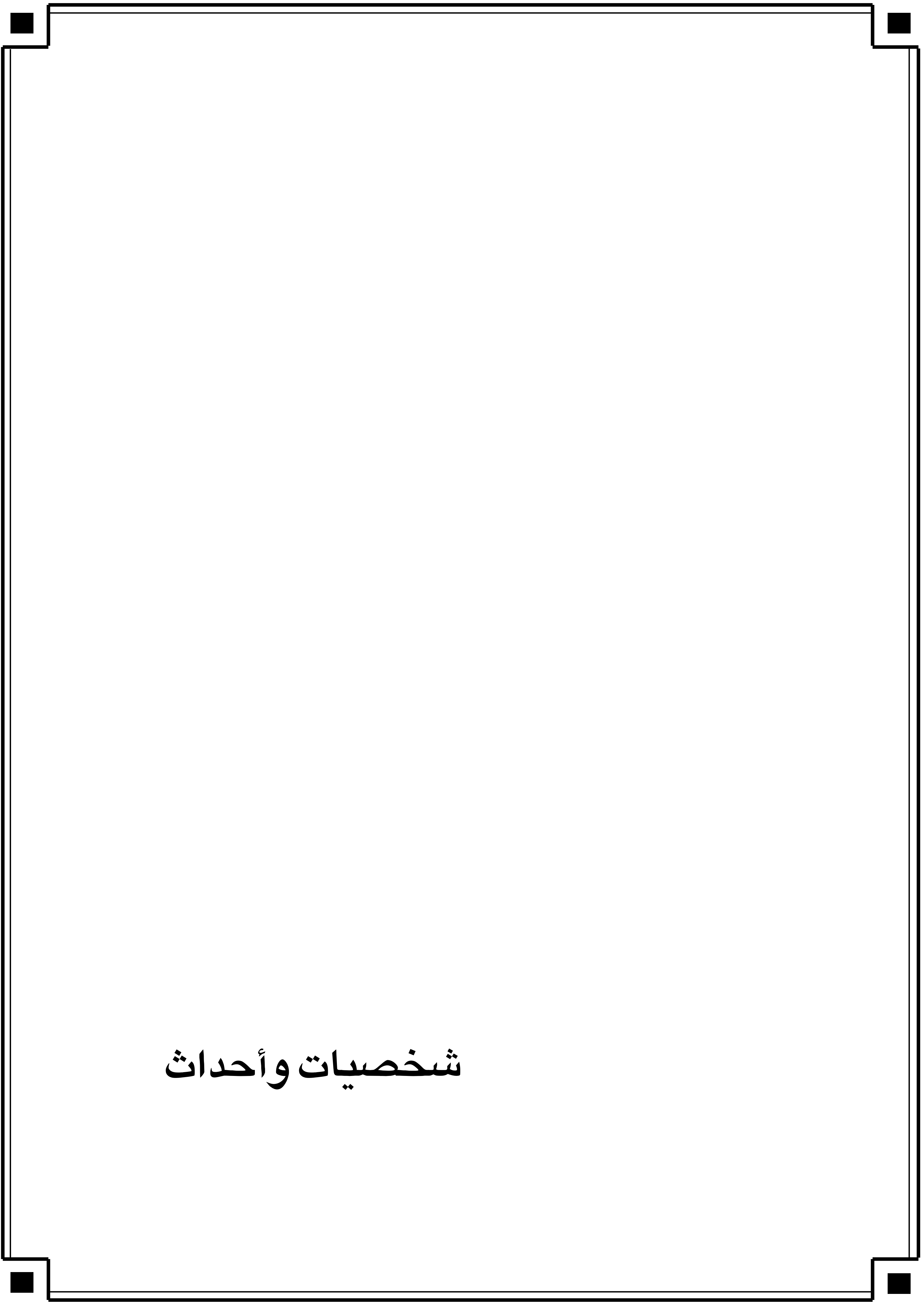
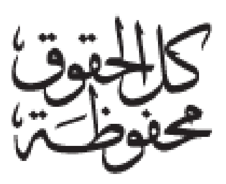


شخصيات وأحداث

شخصيات وأحداث

عيسى إبراهيم اللوباني





الطبعة الأولى

٢٠١١م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٦/٢٣٨٣)

٩٥٦

اللوباني، عيسى إبراهيم
شخصيات وأحداث/ عيسى إبراهيم اللوباني.- عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٠

(٢٢٤)ص.
ر.إ.: ٢٠١٠/٦/٢٣٨٣
الواصفات: التاريخ العربي//العرب//البلدان العربية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

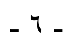
تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



دار المأمون للنشر والتوزيع

العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمـان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

قائمة المحتويات



المقدمة

هذه صور ومواقف من تاريخنا؛ تاريخ العرب والمسلمين مواقف بطولية وغيرها متخاذلة لقادة وزعماء ونساء ورجالاً مروا بتاريخ هذه الأمة وسجل التاريخ ما عملوا وقدموا لأمتهم ووطنهم، لينالوا ثناء وتمجيد الأجيال التي لحقتهم أو لعنتها بسبب ما قدمت أيديهم. فالتاريخ سجل الأمم وذاكرتها، وعلى هذا تُعقد المحاكم لكل من أساء وفرط بحق وطنه وأمته أو أحسن فيحكم لهم أو عليهم مهما تقادمت السنين ومرت الأيام، فالشعوب لا ترحم من خانها وتسبب في ضياع أوطانها وتخلفها عن ركب الحضارة الذي لا يتوقف ولا تكف عن الفخر والاعتزاز بأبطالها ومن ضحى في سبيل عزتها وكرامتها.

هذه صور ومواقف من تاريخنا لابد للأجيال العربية الصاعدة من معرفتها والوقوف على حقائقها، خاصة في هذه الأيام والظروف التي تعيشها أجيالنا الصاعدة والغائبة والمغيبة عن كل ما جرى ويجري من حولها، فمن خلال الاحتكاك بشبابنا الصاعد في المدارس والمنتديات وعلى شاشات التلفزة نرى كم مقدار الجهل بأحداث تاريخ الأمة وماضيها تماماً كما هو الجهل في الأحداث المعاصرة التي مرت بها الأمة وكان لها أعظم الأثر في حياتنا الحاضرة والمستقبلية؛ لاسيما وأن التاريخ أصبح يدرس كمادة اختيارية في مدارسنا، وإذا دُرس فيتم تناوله بسطحية وسرد ممل ليس هناك أي فائدة كبيرة منه.

والغريب أننا كنا نظن أن هذه الأجيال الشابة الصاعدة سوف يكون لها شأن آخر ودراية واسعة بكل ما يحيط بها أكثر مما كان للأجيال السابقة والتي عاشت عقود الخمسينات وما بعدها وحتى العقد الثامن من القرن الماضي، وذلك بسبب انتشار وسائل المعرفة المختلفة بين أيديها من شبكة عنكبوتية إلى فضائيات مختلفة وخلويات وغيرها من وسائل المعرفة والتي لم تكن متاحة سابقاً.

ولكن ما نراه هو العكس تماماً فهذه الأجيال ورغم توفر كل الإمكانيات بين يديها إلا أن جهلها مطبق في مختلف شؤون الحياة الجادة ومعرفة تاريخها وما يدور حولها من أحداث معاصرة، فهي تركز كل اهتماماتها بأنواع السيارات والخلويات وأماكن اللهو المختلفة أو

تكدح وراء لقمة عيشٍ هاربة بالكاد تحصل عليها ولا تترك لها مجالاً للتفكير والاهتمام بما هو فوق الحصول على أدنى متطلبات حياتها.

ولا شك أن هناك أيدٍ خفية تعمل على إفراغ عقول شبابنا من التفكير في قضاياهم الأساسية الكبرى أو قضايا أمتهم وبتواطؤ مع أفراد وجماعات ومنظمات وهيئات يهمها أن يبقى شباب أمة العرب والإسلام على ما هم عليه من جهل ولا مبالاة وركض خلف كل سراب وكل إفرازات مجتمعات منحلة يفتك بها الضياع وغياب العقائد السامية واللهاث وراء المادة والتي أصبحت القيمة الأساسية والمرتكز الرئيس في الحياة. ودون الأخذ بما هو نافع ومفيد من تلك الأمم.

هذه صور يغلب عليها الحديث من تاريخنا نرجو أن نكون قد وفقنا في اختيارها وعرضها، ونرجو أن تسهم في تعريف أجيالنا الصاعدة بتضحيات الآباء والأجداد من أجل تحرير الأوطان والمحافظة على عزتها واستقلالها وأن تبين لهم في الوقت ذاته كيف يؤدي الانحراف واللامبالاة وتغلب المصالح الشخصية والأطماع الفردية وجنوح أبناء الأمة للتخاذل والهروب من التضحيات وسيادة روح الانهزام والجري وراء المكاسب الشخصية وتغلب روح الأنانية كيف يؤدي كل هذا إلى الهزائم المتلاحقة والتخلف المريع وسيطرة القوى الخارجية على مقدرات الأوطان وعلو شأن الخونة والمفسدين وتجار الشعارات وتراجع مكانة العاملين المخلصين لأوطانهم وأمتهم وسيادة روح الهزيمة والصغار بين أبناء الأمة. ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما عرضناه وأن تكون به الفائدة المرجوة لكل من يقرؤه.

والله ولي التوفيق

عيسى اللوباني

عمان ٥ ربيع الثاني – ١٤٣١ هـ ٢١ آذار ٢٠١٠م

الوصف التفصيلي لحادث مصرع
الملك غازي ملك العراق

الأجيال التي عاصرت عهد الملك غازي بن فيصل بن الحسين مافتئت تتكلم عن عهد الملك وكيف أنه كان مرحلة انطلقت فيها الروح القومية والوطنية على أشـدها وقـد استبشر العراقيون والعرب عموماً بمقدمه وتحول الملك إلى رمز من الرموز القومية وتعلق به الوطنيون الأحرار والشخصيات القومية على امتداد الوطن العربي. ولكن في الوقـت ذاته بدأت رموز العمالة في العراق والشام تشعر بخطورة الأمر وبتهديد مكانتها ومصالحها فبدأت هذه الرموز تحيك المؤامرات وتنسج الخيوط للإطاحة بالملك الشاب خاصة بعد أن انطلق صوت الملك من إذاعة قصر الزهور الذي كان صوتاً قوياً لتنوير الرأي العام ورفع الهمم والعزائم لدى الشعب العربي والعراقي، ويبشر العرب بمستقبلهم في ظل الاستقلال الناجز واعتبر بريطانيا الأكثر عداءاً للعرب، مما أثار حفيظة الانكليز وأعطـاهم إنطباعـاً صريحاً بوضوح نوايا الملك غازي تجاههم.

وكان سلاحه في ذلك التجاوب الجماهيري والشعبي الواسع الذي اكتسبه من خلال هذه الإذاعة والتي كان الملك أحياناً يلقي بعض بياناتها وموادها بنفسه.

لذلك بدأت تُحاك حوله الاشاعات واتـهامه بمختلف التهم لا سيما حول سـلوكه وتصرفاته، فأخذوا يروجون الأقاويل عنه وعن علاقاته المريبة مع النساء كما أشاعوا بأن الملك مدمن على الخمر ويواصل الشرب ليل نـهار، كما أنه لا يدري ما يدور حوله في البلاط الملكي لشدة افراطه في الشرب، لا بل أشاعوا أنه في شغل شاغل عن زوجته الملكة عالية وأنه قد هجرها ولم يعطها الاهتمام الكافي وهي أم ولده الأمير فيصل ولي العهـد. وكان كل ذلك من أجل الحد من شعبية الملك وتشويه سمعته بين أوساط شعبه. كـذلك حاولوا إبعاده عن أصدقائه والمقربين إليه من المخلصين له من ساسة وعسكريين وذلـك باتباع أساليب عديدة كاتهامهم بالتآمر أو القتل وزجهـم في السـجون أو إحـالتهم إلى التقاعد للتخلص منهم. وما أن فرغوا من هذه المرحلة حتى خلا لهم الجو ليستفردوا بـه

وينفذوا مؤامرهم البشعة، وأعلنوها صراحة على لسان السفير البريطاني دوموريس بيترسون، الذي قال في آذار ١٩٣٩ " إن الملك غازي يجب أن يسيطر عليه أو أن يخلع".
وهكذا تم تدبير حادثة مقتل الملك غازي بسيارته في الطريق بين قصر الزهور وقصر الحارثية ليلة ٣-٤ من نيسان ١٩٣٩. وكان وقع الحادثة كبيراً على نفسية الملكة عالية والتي كانت تشعر بحسها وذكائها الوقاد أن يداً خبيثة تعمل في الخفاء وتستهدف زوجها الملك، لذلك كانت تحذره دوماً وتحث مرافقيه المخلصين على الانتباه واليقظة والحذر في حمايته وحراسة أماكن تواجده، وكانت تتابع كل حركاته ومقابلاته في القصر لمعرفة المزيد من الأمور وما يخبئه هؤلاء له. وكان كل ذلك يجري خفية وبسرية تامة ودون علم الملك.

كيف وقع حادث السيارة:

يقول أحد الذين كانوا يرافقون الملك في سيارته وبقي حياً حيث أصيب بكسر في يده يقول:عند عودة جلالة الملك من قصر الحارثية إلى قصر الزهور أدار محرك السيارة وانطلق بسرعة كبيرة كما هي عادته دائماً فكان أن اصطدمت السيارة بعمود كهربائي فاستدارت حول نفسها ووقفت من شدة الصدمة وكان الباب قد انفتح وأغلق ثانية على يد أحد المرافقين الذي لم يفق من شدة الألم إلا على منظر الملك غازي الذي كان جالساً في مقعد القيادة وعمود الكهرباء ملقىً على رأسه والدم ينزف منه، وكان هنالك شخص آخر من الحرس لم يصب بسوء، وهرع المرافق وأبلغ عن الحادث وعن كل شيء شاهده بعينه.

أما الطبيب ستورسن – طبيب العائلة المالكة – فيقول في مذكراته: كنت أستمتع بعد العشاء بالحديث في حديقة جاري (وليم هوستن) حين أقبل خادمنا الهندي (يوسف) راكضاً نحوي وهو في حالة فزع قائلاً: رفيق، رفيق إن القصر يريدك على جناح السرعة وإنهم ما يزالون على الهاتف، فأسرعت ولم أستطع التقاط إلا بعض الكلمات "الملك، السيارة "، وكانت هذه الكلمات كافية للإشارة إلى أن الملك كان ضحية حادث سيارة،

فهيأت نفسي للالتحاق بمكان الحادث بعد أن أخبرت زوجتي " الزي" بأن تطلب الدكتور "نويل براهام" هاتفياً وتخبره بالموضوع على أن يتبعني إلى قصر الزهور بالسرعة الممكنة، وفي الحال وصلت سيارة القصر الذي طلب مني سائقها أن أصعد فيها، وهكذا انطلقنا نحو القصر وحالما وصلت استغربت من وجود الظلام الذي ساد المنطقة وحين سألت عن السبب جاءني الجواب: إن الحادث الذي وقع للملك قد قطع التيار الكهربائي أيضاً لم يكن لدي وقت للأسئلة فذهبت مسرعاً إلى غرفة كبيرة في الطابق الأرضي وشاهدت الملك مسجىً فاقد الوعي وقد لف رأسه الملقى على الوسادة وكذلك الجزء الأعلى من وجهه بضماد غارق بالدم.

كان يحيط به كل من الملكة عالية زوجته وآخرين من أفراد الأسرة المالكة وأحد المرافقين، ومن ورائهم حشد من التابعين وجمع من الخدم الباكين وقد تم صرفهم في الحال. كان الملك نبضه ضعيفا، وكانت نظرة واحدة إلى جمجمة رأسه تكفي للتأكد من استحالة بقائه على قيد الحياة سوى ساعات قليلة فقد تحطمت الجمجمة وغاصت قطع منها في دماغه. وقد لاحظت أن الملكة عالية محافظة على رباطة جأشها وهدوءها وقالت لي متوسلة " أريد أن أعرف الحقيقة لأنه إذا مات غازي لا بد من تعيين وصي " وحينما صارحتها بالأمر طلبت إلي أن أعطيه إبرة لكي يصحو ويقول إنه يرغب بتخويل عبد الإله على وصاية العرش ما دام فيصل الثاني لم يبلغ سن الرشد، وقد نفذت ما طلبت مني رغم قناعتي بعدم جدواه. كانت الملكة جريئة جداً وما كان يزيد محنتها سوى بكاء أفراد الأسرة والحاشية فطلبت أن تغلق الأبواب وأن توضع حراسة على كل باب منها، كما طلبت من المرافق لأقدم أن يتصل برئيس الوزراء نوري السعيد ليطلعه على الحالة ويستدعي أيضاً الدكتور صائب شوكت مساعد الدكتور براهام أستاذ الجراحة إلى القصر حالاً وقد تعمدت في استدعاء طبيب عراقي خشية أن يتهموني أنا والدكتور براهام بمسؤوليتنا عن وفاة الملك غازي.

وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأربعين بعد منتصف الليل توفي الملك غازي وقد وقعنا نحن الثلاثة على شهادة الوفاة.

أما الدكتور صائب شوكت فقد تحدث عن حادثة مقتل الملك التي أدت إلى وفاته قائلاً: كنت أول من حضر قصر الزهور ووجدت الملك ميتاً وأن عمق الجرح الذي كان في جمجمته يكفي لإدخال كف يد إليه وفيما كنت أضمد الجرح تقدم مني تحسين قدري وطلب مني أن أقول: إن الملك غازي أوصى في اللحظات الأخيرة بأن يكون ابن عمه عبد الإله وصياً على ولده الأمير فيصل الثاني ولكني امتنعت عن ذلك مما أغضب الأمير عبد الإله وقال إن أختي – أي الملكة–ستشهد بذلك. وهو ما أقرت به الملكة فعلاً بعد ذلك.

أما رواية الملكة عالية حول الحادث وكيف واجهت الساعات الرهيبة التي عاشتها في تلك الليلة المشؤومة مع حادثة مصرع زوجها الملك غازي وكيف تلقت نبأ الوفاة فهي كما يلي:

((كنت جالسة في القصر فانطفأت الأنوار فجأة فيه واستفسرت عن السبب فسمعت بأن أحد الصبية الذي تربى في القصر الملكي يطلب النجدة ويقول الحقونا سيدي مصاب. . . حاصل حادث للسيارة، وقالت ركضت بكل قواي صوب الحادث فوجدت سيدي الملك – كما كانت تلقبه– وهو يلقبها – بستي الملكة – لقد وجدته ملقى والدم يترف من رأسه ووضعت يدي على قلبه فوجدته ما يزال يخفق وفي الحال طلبت استحضار الأطباء بالسرعة الممكنة، وكنت أهيب بالحاضرين أن يسعفوني بقطن وشاش عسى أن أتمكن من إيقاف التريف، أما الذين كانوا من حولي فكل واحد مرتبك وحائر لا يدري ماذا يفعل، وصرت أمسك بالجرح وأضغط عليه بكل شيء تقع عليه يدي، وكان الملك فاقد النطق وكل شيء يدل على أنه فاقد للحياة سوى دقات قلبه ونظراته، وخلت الدقائق التي كنت أعيشها في تلك اللحظة من العصبية كأنها الأعوام الثقال قبيل مجيء الأطباء، جاء الدكتور سندوسن والدكتور صائب شوكت وبعض رجال القصر فأهبت بهم جميعاً أن يعملوا

المستحيل لإنقاذ حياة الملك، وبدأ الكشف عليه وفحصه وبقوا واجمين، وبعد برهة أسلم الروح)).

وبعد التأكد من الوفاة أذيع بلاغ رسمي برقم (٢) من قبل هيئة الأطباء هذا نصه:

((ننعي بمزيد من الأسف وفاة صاحب الجلالة الملك غازي الأول الساعة الثانية عشرة والدقيقة الأربعين من ليلة ٣-٤ نيسان ١٩٣٩ متأثراً من كسر شديد للغاية في عظم الجمجمة وتمزق واسع في المخ، حصلت هذه الجروح نتيجة اصطدام سيارة صاحب الجلالة عندما كان يسوقها بنفسه بعمود الكهرباء بالقرب من قصر الزهور الساعة الحادية عشرة والنصف من تلك الليلة ولقد فقد صاحب الجلالة شعوره مباشرة بعد الاصطدام ولم يسترجع شعوره حتى اللحظة الأخيرة)).

د: جلال حموي

د: صبيح الوهبي

د: صائب شوكت

د: ابراهام

د:سندوسن

هذا ولم تتوقف الإشاعات حول مقتل الملك غازي لسنوات طوال، ومعظم هذه الإشاعات كانت تتمحور حول ضلوع الإنجليز وبعض المتعاونين معهم من العراقيين في مقتل الملك بسبب مواقفه الوطنية والقومية وعدائه الواضح والصارخ للانجليز وتحكمهم في أمور العراق وبعض البلدان العربية الأخرى.

ويروى أن الملكة عالية زوجة الملك كانت من أنصار هذه المقولة، حيث يقول الأستاذ هشام الدباغ المحامي والذي حكم عليه بالإعدام لقيادته المظاهرات الجماهيرية في الموصل إبان مقتل الملك غازي والتي توجهت إلى القنصلية البريطانية في الموصل وقتلت القنصل البريطاني فيها، وكان للملكة عالية دور كبير في رعايته وساهمت في إبدال الحكم بالإعدام الصادر بحقه إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

وقدمت له المساعدة طيلة وجوده في السجن وبعد خروجه كانت تستضيفه بين الوقت والآخر. وقد أسرت له في أحد لقاءاته معها في قصر الرحاب وقبيل وفاتها بأنها على يقين بأن الانجليز هم وراء اغتيال زوجها، وأن اليد التي نفذت العملية كانت يد أحد الآشورين وأن العملية كانت محكمة الإخراج.

أما صدى وفاة الملك غازي في العراق وأثره على زوجته الملكة عالية وطبيعة الساعات الرهيبة التي مرت من هول هذه الصدمة الكبيرة، عن ذلك تقول السيدة مديحة السلمان زوجة الشهيد محمود سليمان والذي شارك بعد ذلك في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام **١٩٤١** تقول في مذكراتها التي سطرتها تحت عنوان الأسيرة رقم**٩٣** قائلة:

((يممت وجهي شطر القصر الملكي لأداء واجب العزاء وكان الوصول إلى القصر في تلك الظروف الهائجة من الصعوبة بمكان، فقد توجهت الألوف إلى القصر لإظهار عواطفها الجياشة وكان فناء القصر يغص بمختلف الطبقات الاجتماعية والحدائق تموج بأفواج السيدات وقد برزت بعض من ألقين القصائد والأهازيج الشعبية وكل ما تجود به القرائح والعواطف، وهكذا فإن الدخول إلى القصر الملكي ما عاد ممكنا من الباب الأمامية فأرشدنا بعض الحرس لأن ندخل من الباب الخلفية، وعند المدخل رأيت المرافق الأول (عبد الوهاب عبد اللطيف) هناك يراقب الجماهير الحاشدة وكل من يريد الدخول والحرس يقوم بواجبه في حفظ الأمن والنظام. وعندما وقع نظر المرافق على سيارتنا تقدم منا وأفسح الطريق أمامنا وسهل لنا أمر الدخول وقد شاهدنا هناك العديد من العوائل العراقية في مشهد تاريخي لا يوصف، ومن ثم اقتادتني إحدى الوصيفات إلى حيث جلالة الملكة عالية فلم أتمالك نفسي من البكاء المر وهطول الدمع الغزير لقد كانت الملكة في حالة تأثر شديد لا يوصف فلقد أذهلتها الصدمة وكان حزنها العميق وصمتها البليغ من أشد المناظر والصور تأثيراً على النفوس وتجريحاً للقلوب.

رحم الله غازي وكل شهداء العروبة الذين ضحوا من أجل استقلال وسيادة ورفعة هذا الوطن العربي الكبير

رجال من بني هاشم
الشريف زيد بن فواز وشاكر بن زيد
حكاية كفاح مزين بمكارم الأخلاق

إنه زيد بن فواز بن ناصر بن فواز بن عون، والأمير عون هو الذي تنتمي إليه الأسرة الهاشمية الملكية، وهو عون بن محسن بن عبد الله.

أتقن الشريف زيد رحمه الله القرآن الكريم تلاوة وحفظاً على يدي شيوخ الحرم الشريف وعلى العلماء الذين كانوا يدرسون في مسجد سيدي العباس في الطائف، هذا إلى جانب دراسته في قصر والده في الطائف حيث خصص والده له ولبقية أبنائه ثلة من العلماء الأجلاء والحفاظ الكرام، فحفظ القرآن الكريم يافعاً وعرف مكيه ومدنيه وأسباب النزول ولطائف الإعراب، وكان من محفوظاته صحيح البخاري وفهم شرحه المسمى ((فتح الباري على صحيح البخاري)). ولم يترك عالماً من علماء أمصار الإسلام إلا واستضافه الشريف ليستفيد من علمه وأدبه أبناؤه الشرفاء.

كذلك أتقن علم النحو والصَّرف وحفظ أجمل أشعار العرب كالمعلقات والمفضليات، وكانت له مكتبة عامرة تضم مجموعة من المخطوطات الفريدة والنادرة.

وكان رحمه الله سمحاً كريماً لا يخلو مجلسه من الضيفان الذين تقدم له الأطعمة المعروفة عند أهل الجزيرة بالأطعمة الهاشمية والتي كان كثيراً ما يطلبها الترك المقيمون في دياره. وكان هذا الطعام يتكون من الخبز والسمن البلدي والعسل ثم اللحوم والجبن الأبيض، ثم فاكهة الموسم.

وكان أكثر ما اشتهر به من عادات السماحة والكرم هو استضافته لأبناء السبيل المنقطعين، حيث كانوا يمكثون في ضيافته، أما مريضهم فيعالج حتى يبرأ بإذن الله أو يكتب الله له ما يشاء.

ومن خصاله التي طبع عليها الشجاعة وهي الصفة التي تولد مع الإنسان، فهي ليست كسباً ولا تقليداً ويزيدها بسطة حسن التدريب والفهم وسلامة التخطيط بكمال العقل في جرأة التحقيق، وكان يزيد على هذا كله صفة الحلم التي كان يتمتع بها الشريف زيد.

وكان الشريف في وداع المغفور له الحسين بن علي يـــوم غـــادر مكـــة المكرمـــة إلى استانبول للإقامة برعاية السلطان العثماني وبجانبه وفي ضيافته فترة من الزمـــان، ولكنهـــا كانت في الحقيقة إقامة جبر وإكراه، بعد أنْ خَشي السلطان ثورة الشريف إثر الشكاوى الكثيرة التي أخذت ترد إلى السلطان وإلى الشريف عن الفساد وانقطاع حبل الأمن، فقد نزل الشريف زيد مكة وطاف معتمراً وسعى، ثم دخل منزل الحسين بن علي الذي كـــان جهز نفسه وأهله للسفر فيعانقه طويلاً مودعاً ثم التحق به أبناؤه الأمراء علـــي وفيصـــل وعبد الله.

وتمر الأيام وما أسرعها ويصدر السلطان فرماناً بتعيين الشريف عبد الإله بن محمد بن عون أميراً لمكة المكرمة، ولكن الأجل عاجله وهو في استانبول، وبذلك يخلـــو منصـــب الإمارة بعد عزل الشريف علي بن عبد الله بن محمد، وهنا أخذ الشريف الحسين بن علي يطالب بحقه في الإمارة برسالة سطرها الملك عبد الله إلى السلطان بوساطة الصدر الأعظم كامل باشا يقول فيها: ((بناء على وفاة عمي الشريف عبد الإله بن محمد أمير مكة، بعـــد عزل عمي الشريف علي بن عبد الله بن محمد وخلو مقام الإمارة، ولكوني أسن العائلـــة الهاشمية وأحقها بمقام الآباء، أسترحم جلالة السلطان أن يتكرم بإيصالي إلى حقي الذي لا يخفى على جلالته مع صداقتي وإخلاصي)).

وبعد هذه الرسالة توجه الحسين بن علي إلى القصر السلطاني بناء على اتصـــال مـــن رئيس كتاب القصر، ويستقبله السلطان حسب الوقت ويعينه أميراً على مكة، مما أغضب حزب الاتحاد والترقي.

العودة إلى الحجاز

قام السلطان عبد الحميد بوداع الشريف الحسين بن علي لدى مغادرته استانبول وقال له: أسأل الله أن يجازي من حال بيني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية، وإنني لست بالأمين على الدولة والملك من هذه الفئة المتغلبة، وهنا دعا الشريف الحسين السلطان عبد الحميد للإقامة في المدينة المنورة قائلاً له: ولو فعلتم جلالتكم ذلك وجلبتم آل بيتكم معكم لجبيت لكم الأموال ولأخضعت رقاب العصاة، لأنكم تكونون حين ذاك في متناول أيديهم، فأجابه السلطان على هذه الدعوة بقوله: أشكرك بارك الله فيك، ولكن الوقت لم يحن، ثم وضع السلطان بيده وسام الافتخار المرصع على صدر جلالته وودعه.

هذا وقد عاد الشريف الحسين إلى مكة بحراً وبمعيته الفريق عمر شاكر باشا المرافق السلطاني يحمل الفرمان بالتعيين وكذلك عبد الله بن الحسين والشريف دخيل الله العواجي، والشريف محمد الشنبري، ومدير الحرم المكي حافظ أمين والسيد صفوت باشا العوا، والشيخ محمد شاكر أفندي إمام الإمارة ورجال الحاشية وعند وصول الباخرة إلى بيروت أبرق رحمه الله إلى المدينة المنورة إلى الشيخ يوسف الخشيرم، وأخرى إلى الشريف شحادة يقول فيها: ووصلنا إلى بيروت متوجهين إلى جدة، وجهنا البيك، فتوجه بإشراف ومشايخ حرب وجهينة إلى مكة المكرمة.

ووصلت الباخرة إلى جدة ورست في مينائها وقد لبست جدة حلة الجمال والكمال والبهاء في استقبال السيد الهاشمي يقول الملك عبد الله رحمه الله: ((وكان الوصول إلى جدة في أول أسبوع من ذي القعدة ١٣٢٨هـ، فأقبلت السنابك الشراعية نحو السفينة، وفيها المئات من شرفاء وعظماء ومشايخ العربان وأخذوا يدخلون على المرحوم وكلهم دامع العين شوقاً وسروراً ".

ثم كان الرحيل من جدة إلى مكة ويصف هذه المرحلة المغفور له الملك عبد الله بن الحسين قائلاً:"كانت الإقامة في جدة ثلاثة أيام، وكنا في الإحرام، حيث أهللنا من محاذاة الجحفة البحر، فتحرك الركب الأميري بعد صلاة العصر قاصداً (بحرة) وكان الركب يمثل

جلال القومية في روعة وهيبة فلا تقع عينك إلا على عربي فالركاب والخيل والأزياء والأدب عربي هاشمي.

هذا وكان الشريف زيد بن فواز على رأس مستقبلي الشريف الحسين لدى وصوله جدة حيث كان يركب إلى جانبه ويسير محاذيه ومباريه في الذهاب إلى مكة.

في بيت الله الحرام:

ومن باب السلام يدخل الحسين بن علي محرماً ومعه الحاشية الهاشمية وأشياخ القبائل العربية، فطافوا بمعيته حول البيت داعين الله الواحد الأحد حامدينه بقلوب مؤمنة وشاكرين على عودة الأمير إلى ملك آبائه وأجداده. ثم أمَّ دار الإمارة وجلس مجلساً عاماً قبل أن يضع إحرامه وسلم عليه الخاصة والعامة حتى انتهوا بعد صلاة الظهر وأعلن قاعدته في أصول الحكم عنده بقوله: ((دستور بلاد الله شريعة الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم)).

زيد محل مشورة

كان من الأمور التي على الحسين بن علي رحمه الله أن يعالجها هو موضوع الشريف علي بن عبد الله بن محمد بن عون رحمه الله، وكان الملك عبد الله رحمه الله قد وعد خاله الشريف علي بالإقامة في مصر مخافة نقله إلى استانبول حيث سلطة الاتحاد والترقي. ولكن الحسين بن علي رأى أن يستشير في الأمر حيث الموضوع هام وخطير للإمارة ومجريات العمل باعتباره الأمير السابق المعزول، وهنا يستدعي الحسين رحمه الله الشريف فواز رجل المواقف والتجربة والعلم والفكر والشجاعة والهجى لأخذ رأيه.

وفي المجلس الذي ضم الشريف ناصر بن علي، يتوجه الحسين بالسؤال للحاضرين فقال: ما رأيكم في علي باشا؟ هل يقيم هنا أم يسافر إلى استانبول: فقال الشريف زيد بن فواز: نحن في خدمة من يتولى الحكم منكم مقام أجداده، ولم تجرِ العادة بأن نبدي رأياً في ما يخص سادتنا فأرجو إعفائي، وما يقر عليه رأيكم فلا خلاف منا فيه.

تهمة الوالي العثماني للشريف زيد بالثورة

كان الملك عبد الله رحمه الله قاد حملة على بني الحارث لقطعهم الطريق وعدوانهم على جيرانهم، ثم أكمل بغزوة ((هذّان)) جبل بالحرة لأنهم كانوا يخيفون الحجاج ولا يـــدفعون الزكاة. وقد أصيب بـــهاتين الغزوتين وقتل عدد من الأشراف والمشايخ والفرسان.

وإثر الانتهاء من الحملة المشار إليها وبعد وصول الوالي الجديد بأسبوع ترد مذكرة منه إلى الشريف الحسين مفادها أنه تلقى برقية من مدير الجندرمة ووكيل الوالي مضـــمونها أن فئة في مكة برأسها الشريف زيد بن فواز قائم مقام الإمارة بالطائف قد عزمت على حركة ثوروية يوم الجمعة بهجوم يقومون به ضد سلطات الحكومة، ولذلك فإنه يطلـــب إلقـــاء القبض على الشريف زيد ومن معه، وسوقهم إلى التحقيق والمحاكمة.

وأجاب الحسين رحمه الله، بأنه متوجه إلى مكة المكرمة للتحقيق في هذا الأمر الذي هو بالتأكيد تهمة باطلة وفرية شائنة، ودليلها الكاذب منسوب إلى الشريف زيد بن فواز وهو المخلص الأمين والصادق الصدوق والوفي على عهده ووعده، وأن الامير قد أقامه وكيلاً للإمارة علاوة على وظيفته قائماً لمقام الإمارة في الطائف.

وعلى الفور تحرك الركب الأميري إلى مكة واستدعى جلالته وكيل الـــوالي/ مـــدير الجندرمة وقال له: ((حضرت لتحقيق ما قلت إنه ثابت لديك عن حركة مدبرة في مكـــة المكرمة يوم الجمعة، وإني آمر الآن بان تتألف لجنة تحقيق ترأسها أنت وقومندان العســـكر وقاضي مكة المكرمة ويكون مندوب الإمارة ابني عبد الله، فامتثل وكيل الـــوالي، وجمـــع اللجنة المذكورة.

وعند اجتماع اللجنة وتحت ضغط الملك عبد الله وقوة حججه وحسن منطقه وبيانـــه للتناقض في أقوال وكيل الوالي ومدير الجندرمة أعلن الوالي: أن زوجته سمعت هذا الخـــبر من امرأة كانت تصلي معها في المسجد الحرام في جناح النساء. وكان هذا دليل إبطـــال التهمة حيث أن المرأة لا وجود لها ولا يمكن التعرف عليها.

وأرسل الحسين بن علي برقية بواقع الحال إلى الصدر الأعظم في اسـتانبول وكـان حينذاك سعيد باشا ووزير الداخلية رؤوف باشا، وما كاد الشريف زيد يصـل الطـائف حتى كان الأمر بعزل الوالي ووكيله قد وصل فغادروا الحجاز إلى تركيا.

الشريف زيد يقاتل مع العثمانيين

كتب وقيل الكثير وبغير علم ولا بصيرة في أكثر الأحيان حول ثورة الشريف الحسين بن علي على الحكم العثماني، ولمثل من يقول ويكتب حول ذلك نروي هنا بعض الوقائع التي جرت بين جيوش الدولة العثمانية وبعض الخارجين عليها، وكان الأشـراف يقفـون مدافعين عن الدولة ويقودون جيوشها للقتال ضد أعدائها رغم حكم بعـض السـلاطين الضعاف واهتزاز صورة الدولة وتحكم الحريم السلطاني في شؤون هذه الدولة مع جيـوش الإنكشارية، إضافة لاقتراض السلاطين من الدول الأجنبية مما أدى لضعف الدولة وتدخل الدول الدائنة في شؤونها. ثم ما حدث في السنوات الأخيرة من عمر الدولة حينما استولى رجالات الاتحاد والترقي على الحكم وعاثوا في البلاد فساداً. نقول رغـم كـل ذلـك وحرصاً من الهواشم على استمرار مسيرة الدولة لعل الزمن يكون كفيلاً بصلاح أحوالها، فقد قاد الهاشميون الجيوش مع القوات العثمانية للدفاع عن سيادة الدولة وحفظ أراضيها. فقد قاد الملك عبد الله بن الحسين حملة عثمانية سميت حملة أو غزوة عسير لإنقاذ منطقـة عسير وحاميتها من حصار السيد الإدريسي. وكان الملك فيصل الأول رحمـه الله قائـداً للجناح الأيسر للقوى الهاشمية في هذه الغزوة، وكان قائد الطوابير العثمانية زكـي بـك الشركسي.

وكانت هذه الحملة بأمر من السلطان إلى الحسين بن علي أمير مكـة. هـذا وقـد تراجعت القوات العثمانية في هذه المعركة بعد هجوم مضاد وسريع من قبل قوات السيد الإدريسي. وهو الأمر الذي لم يحسن التعامل معه قائد القوات العثمانية زكي بك. وكان عبد الله بن الحسين آخر من ترك الموقع متوجهاً إلى القنفذة.

ثم تكررت الحملة مرة أخرى بأمر الشريف الحسين بن علي وكان قائد الحملة هـذه المرة الشريف زيد بن فواز كما كان الملك عبد الله بن الحسين أحد أمراء هذه الحملة. وكان قائد القوة العثمانية نظيف بك. كذلك كان الملك فيصل الأول من قادة القوة الهاشمية واستمرت المعركة من الليل وحتى الصباح وكان النصر بها للقوات العثمانية التي تساندها القوات الهاشمية. وبعد النصر قدم الحسين بن علي إلى أرض المعركة (قوز أبا العير) وقد سميت المعركة بهذا الاسم أيضاً نسبة إلى الموقع. وقد أثنى رحمه الله على جهود شيخ آل عون الشريف زيد رحمه الله على حسن قيادته وصبره وشجاعته. والشريف زيد أثنى بدوره على فطنة وشجاعة وبلاء الملك عبد الله بن الحسين وكذلك الملك فيصل إضافة لشجاعة الجند الهاشمي من السادة الأشراف والعرب الخلص للراية الهاشمية.

ولكن الشريف الحسين رحمه الله تألم وحزّ في نفسه العربية ما رأى من إحراق الجنود الأتراك للقرى وتقتيل الأبرياء وتشريد الضعفاء، ورأى رحمه الله الرؤوس المقطعة ومناظر أخرى للقتلى من البشاعة بمكان، فالتفت إلى نظيف بك قائد القوات التركية وقال له: هل هذا يليق؟ وأجاب القائد العثماني: أليسوا قد حرقوا قلوبنا، وذلك أن الأتراك انفردوا بالقرى العربية فدمروها، وهذا أسلوب مرفوض لدى النفس المؤمنة، فالمقصود حركة تأديب فقط، لا تشريد وتشتيت ولا تعذيب وتمثيل. لذلك قال الشريف الحسين قولته (ليس في هؤلاء خير للعرب). ثم كانت وفاة الشريف زيد بن فواز بينما كان الملك عبد الله يرافقه الشريف شاكر بن زيد في طريقهما إلى استانبول بحراً.

الشريف شاكر بن زيد

ولد رحمه الله في مكة المكرمة عام ١٨٨٥م وتربى في منزل والده الشريف زيد بن فواز. درس وحفظ القرآن الكريم على مشايخ الحرم الشريف في مكة، كذلك عمل على دراسة وحفظ الشعر العربي الجميل، وطالع كتب السير وكتاب الكامل في التاريخ، وكتب المغازي والفتوح للبلاذري وغيره. هذا إضافة إلى ما ورثه عن والده وأعمامه

وأجداده من الهاشميين من طيب في النفس ودماثة في الخلق، وسخاء في البذل وشجاعة في الوقائع ومحبة للناس كافة.

هذا وعندما انتخب الملك عبد الله بن الحسين عضواً عن مكة المكرمة في مجلس المبعوثان العثماني كان يرافقه في رحلته إلى استانبول الشريف شاكر بن فواز صديق العمر ورفيق الصبا حيث استقبلهما خديوي مصر في قصر رأس التين بالاسكندرية. هذا وقد شارك الشريف شاكر في حملة ((قوز أبا العير)) التي ورد ذكرها في غير موضع من هذا الكتاب. وكان الشريف وقتها في فجر الشباب وريعان العمر.

ولدى انطلاقة الثورة العربية كلف قائدها الشريف الحسين بن علي الأمير شاكر بن زيد، قيادة مجموعة عربية مسلمة وغايتها الهجوم على حصن القوات التركية في مكة المكرمة، وقد أبلى الأمير شاكر بلاء حسناً في فتح الحصن والاستيلاء عليه. وتم الاستيلاء على الحاميات العثمانية في مكة المكرمة في يوم واحد. بتلك الجهود العظيمة للشريف شاكر ومن معه من الرجال. وظل الجيش العثماني محصوراً في ثكنة جرول وقلعة أجياد، وهنا بدأت القوات العثمانية تضرب مكة بالمدافع وقد أصابت إحدى القذائف بيت الله الحرام.

ثم كان فتح مدينة الطائف بقيادة المغفور له الملك عبد الله بن الحسين والذي توجه إليها على رأس سبعون هجاناً فقط لحصار أكبر فرقة عسكرية موجودة في الطائف، حيث تدفقت بعد ذلك القبائل العربية المجاورة للطائف لنصرة الأمير. وفي الوقت نفسه كانت قوة عربية بقيادة الملكين الهاشميين فيصل وعلي متجهة لفتح المدينة المنورة وكان ضمن هذه القوات الشريف شاكر بن زيد.

وبعد تحقيق الانتصارات المتتالية في الطائف ومكة والمدينة وغيرها وانسحاب القوات العثمانية تمت البيعة للشريف الحسين بن علي بعد إلحاح من الأمراء وعظماء ووجهاء الحجاز وعلماء الشام وسادتهم. وتمت البيعة في الأول من محرم الحرام **١٣٣٥هـ** وفي المسجد الحرام وفي البلد الحرام.

وكانت معركة المدينة المنورة أهم المعارك التي خاضتها قوات الثورة بقيادة الملك عبد الله ومعه الشريف شاكر الذي قاد المعركة ميدانياً وخاض معركة شديدة إذ حمل العرب حملة صادقة فأبادوا القوة التركية بأجمعها، وأسر قائدها الأميرالاي أشرف بك، وغنم الجيش العربي مجموعة من الرشاشات والمدافع وغنائم أخرى لا تحصى وكان من جملة الغنائم (٣٨٠٠٠) جنيه ذهباً عثمانياً واطعمة مجففة وسائر أنواع البسكويت مما أغنى القوات العربية أياماً عن الزاد والذي كانوا بأشد الحاجة إليه. وقد وزعت الغنائم على أمراء الجزيرة وإمام اليمن. وبعد هذه المعركة أمر الملك عبد الله ابن عمه الأمير شاكر بمن معه من قوات بقطع مواصلات الجيش العثماني بشكل مستمر بتدمير سكة حديد الحجاز. وكان لهذا الأثر الأكبر في نجاح حصار المدينة المنورة ثم استسلامها، بعد مراوغات من القائد العثماني فخري باشا والذي هدَّد بتفجير ما لديه من ذخائر في المسجد. ولكنه هو نفسه من وقع وثيقة الاستسلام بعد ذلك.

وكان يقود معركة المدينة الملك عبد الله ومعه الشريف الأمير شاكر بن زيد والشريف شرف بن راجح وكبار شيوخ القبائل العربية وكبار القادة العسكريين العرب من مختلف الأقطار العربية.

هذا وقد اعتبر الشرف الهاشمي والخلق العربي القائد فخري باشا ضيفاً عليهم، وأصر الباشا التركي أن يجلس بجوار الملك عبد الله، الذي سأله إن كان يرغب في رؤية أي من الضباط الذين كانوا معه، فرفض قائلاً: ((اترك هؤلاء الخونة، لا أريد منهم أحداً)).

بعد ذلك قام الملك عبد الله يساعده الشريف شاكر بن زيد بأمور حفظ الأمن الذي اختلت معاييره في المدينة، وهو ما يحصل دائماً في المراحل الانتقالية، وتم تنظيم الأمور الأمنية، وأعطي الجنود الأتراك الأمان لا بل عرض عليهم البقاء في المدينة، ولكن الشوق للأهل ومراتع الصبا دفعهم لطلب العودة إلى ديارهم، فتم تسفيرهم بواسطة سكة الحديد إلى معان ومنها إلى الشام. وعين الملك علي بن الحسين أميراً للمدينة المنورة، كما عينه شيخاً للحرم النبوي الشريف وقائداً عاماً للمنطقة.

هذا وقد شارك الشريف شاكر بن زيد مع مجموعة من الأمراء ورجالات بني هاشم في معركة تربة ضد الوهابيين، ولكن موازين القوى كانت مختلة لصالح الوهابيين، وقد استشهد في المعركة ثلاثة وخمسون شريفاً من الأشراف الكرام.

القدوم إلى الأردن

تلبية لنداء الواجب والجهاد، وبعد معركة ميسلون، استنجدت الشام بالشريف الحسين بن علي فأنجدهم بالسيف الهاشمي عبد الله بن الحسين وكان يرافقه الشريف شاكر، فوصلا إلى معان في ١١ ربيع الأول ١٣٣٩ هـ – ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٠م وكان عدد من وصل من الرجال بين ٥٠٠ – ١٠٠٠ رجل. ثم التحق بهما العديد من الضباط العرب الذين خدموا في الجيش العثماني، إلى جانب العديد من العشائر الأردنية. وقد استطاع الملك عبد الله بن الحسين بذكائه وحسن سياسته وتدبيره وجرأته أن يوحد هذه البلاد أملاً في عودة الحق إلى نصابه في سوريا لا بل أن يوحد سوريا الكبرى تحت راية الثورة العربية الكبرى والتي قامت من أجل سوريا والعروبة وحماية رسالة الإسلام.

بعد ذلك دخل الموكب الهاشمي إلى عمان المزدانة بأعلام النهضة العربية وأعلام المملكة السورية، وانتقل من محطة سكة الحديد إلى منزل سعيد خير حيث حلَّ ضيفاً عليه وهو رئيس بلدية عمان وكبير وجهائها. ثم تألفت أول حكومة أردنية برئاسة رشيد طليع في ١٩٢١/٤/١١ وشارك فيها رشيد طليع والأمير شاكر بن زيد والشيخ محمد الخضر الشنقيطي ومظهر أرسلان وعلي خلقي الشرايري وحسن بك الحكيم وأحمد مريود. ويلاحظ أنها حكومة عربية ذات صبغة قومية تضم بين أعضائها مختلف أقطار بلاد الشام.

وقد تحققت وحدة البلاد الأردنية وتم تحقيق الأمن في الداخل ومع الأقطار المجاورة حيث سويت الخلافات بين القبائل والعشائر العربية المتداخلة بين الأقطار العربية المتجاورة في بلاد الشام وكان للأمير شاكر دور بارز في هذه التسويات وتحقيق الأمن. كما أنه قام بوضع أسس التعليم الحديث في مناطق الأردن المختلفة لاسيما بين البدو.

كان الأمير شاكر بن زيد يسكن في دارته بالقرب من الدوار الأول في جبل عمان ومنزله ما زال قائماً على رأس تلة إلى اليوم بالقرب من شارع الرينبو.

وفاته

أدركته الوفاة رحمه الله في الثامن من كانون الأول عام ١٩٣٤م وكان يومها في عمل رسمي بالكرك. وقد حاول الطبيب المعالج د. جميل التوتنجي بحضرة الملك عبد الله إنقاذ حياته ولكنه أسلم الروح إلى باريها عن عمر تسعة وأربعين عاماً.

وفي صبيحة اليوم الثاني من رمضان ٩ كانون الأول (ديسمبر) خرجت عمان تودع الأمير حزينة دامعة العين بحضور المسؤولين وشيوخ القبائل العربية. وسارت الجنازة من المسجد الحسيني إلى المقابر الملكية، وكان على رأس المشيعين المغفور له جلالة الملك عبد الله والمغفور له الملك طلال والمرحوم الأمير نايف والأشراف والعلماء والوجهاء من أهالي عمان وشيوخ القبائل ومحبوه وبعضهم حضر من القدس والخليل ورام الله وغيرها. والمعروف أن الأمير شاكر هو والد الأمير زيد بن شاكر والذي كان قائداً للجيش ورئيساً للوزراء في سبعينات وثمانينات القرن الماضي. رحم الله كل أبطال الهاشميين ورجالات العرب المخلصين.

المغفور له عبد الله المؤسس
بماذا كان يحدث زواره

ولد جلالة المغفور له الملك عبد الله بن الحسين بن علي في مكة المكرمة عام ١٨٨٢م ونشأ في جو عربي رفيع. تعلم اللغة العربية وتعاليم العقيدة الإسلامية وتفسير القرآن الكريم على مدرسين في مكة، وكان نجيباً يستوعب ما يدرس بسهولة فائقة، وتكونت عنده ملكة التمتع بجمال اللغة العربية وتذوق كلماتها وعباراتها وأخذ يتكلم العربية الفصحى بالسليقة.

وكان عبد الله الابن الثاني للشريف الحسين بن علي وكان أخواه الآخران علي وفيصل. وكان الشريف حسين قد ذهب إلى الأستانة سنة ١٣٠٩هـ بناء على استدعاء من السلطان عبد الحميد ليكون بعيداً عن مكة وتحت نظر الحكومة، واستقر بالأستانة حيث عينه السلطان في مجلس شؤون الدولة.

كان عمر الملك عبد الله ١٢ سنة حينما قدم الأستانة مع والده وبقي فيها ستة عشر عاماً، تابع خلالها دراسته باللغتين العربية والتركية، وأتقن اللغة التركية الراقية نثراً وشعراً، وفي هذه الأثناء كان يدرس ويراقب الأوضاع السياسية في الدولة العثمانية، فوقف على أحوالها السياسية والإدارية، وعلى اتجاهات الدول الغربية نحو دولة الخلافة وعلى اتجاهات الحركات التركية الجديدة نحو العرب وبلادهم.

وفي سنة ١٩٠٩، انتخب الملك عبد الله عضواً في مجلس المبعوثان أي مجلس النواب العثماني عن الحجاز وبقي في هذا المنصب ست سنوات، وفي هذه الأثناء عين نائباً لرئيس المجلس.

وبذلك أصبح الملك عبد الله يقضي شهوراً من السنة في الأستانة لمتابعة نشاطات المجلس وأخرى في مكة بجانب والده بعد أن عاد إلى مكة واستقر بها، وكان يذهب إلى الأستانة عن طريق مصر، وفي القاهرة توثقت علاقته مع الخديوي عباس حلمي الذي عرفه على اللورد كتشنر وسكرتيره رونالد ستورس والذي أصبح بعد ذلك حاكماً للواء القدس أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين.

ثم كان ما هو معروف من أحداث الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف الحسين بن علي ودخول قوات الثورة إلى دمشق بعد تحرير الأردن ثم ما حدث من خيانة الحلفاء

لعهودهم مع الشريف حسين وتقسيم بلاد الشام والعراق بين الحلفاء. وما انتهت إليه الأمور من المناداة بالشريف عبد الله بن الحسين ملكاً على إمارة شرقي الأردن والتي تحولت بعد ذلك عام ١٩٤٦ إلى المملكة الأردنية الهاشمية ومن ثم اتحاد ما تم إنقاذه من فلسطين والذي عُرف بالضفة الغربية مع الأردن.

كان عبد الله بن الحسين كما أسلفنا أديباً وشاعراً وملماً بجوانب متعددة من ضروب العلم، لذلك كثيراً ما كان يفرح عندما يلتقي بشبان صغار يدرسون في المعاهد والجامعات فيبدأ بسؤال الواحد منهم عن تخصصه، وبعد ذلك يبدأ بتوجيه الأسئلة المختلفة إليه ومهما كان نوع التخصص سواء في الأدب من لغة وشعر وبيان، أو في الشريعة الإسلامية وكذلك في الطب والزراعة وغيرها من العلوم وكان يبدو عليه السرور حينما يرى التلميذ أمامه وهو متمكن من تخصصه. كما كان يناظر الشعراء ويبارزهم.

وفي أثناء حكمه كأمير لشرق الأردن ما بين ١٩٢١ – ١٩٤٦ سعى لأمرين هامين:
الأمر الأول: أنه كان يرى خطر الصهيونية على فلسطين أكثر من غيره من المسؤولين في البلاد العربية، وكان يرى أن ليس عند العرب قوة وهم متفرقون قادرة على وضع حد للخطر الصهيوني المؤيد من قبل الدول الغربية. وأخذ ينصح زعماء فلسطين بقبول ما يُعرض عليهم وفيه مصلحة البلاد والعباد وعدم تفويت الفرص المتاحة وهذا ما حدث.
والأمر الثاني: أنه كان يسعى إيجاد اتحاد بين الأقطار السورية تمهيداً لوحدة عربية أشمل.
فقد قال لأحد زواره يوماً (د. يوسف هيكل) وكان رحمه الله معروفاً بكثرة مجالسه وجلسائه من رجال سياسة وأدب وتجارة ومختلف ممثلي الأنشطة العامة وكذلك الزوار الأجانب فقد كان اجتماعياً من طراز رفيع ومحباً بالوقوف على كل صغيرة وكبيرة مما يجري في البلد وخارجه من أنشطة مختلفة، هذا إلى جانب غرامه بلعبة الشطرنج وممارسته لها في أوقات كان يحددها ومع أمهر لاعبي هذه اللعبة والتي لا يبرز بها إلا من كان ذو قدرات خاصة.

قال الملك رحمه الله لجليسه كما ذكر سابقاً يوسف هيكل: ((أنا أسعى لتحقيق الوحدة السورية كخطوة للوحدة العربية التي يتوقف عليها مستقبل العرب، وأنا أريد الوحدة السورية

لأمر آخر أيضاً. . إن الصهيونية خطر على فلسطين وعلى أهلها، وهي أيضاً خطر على البلاد العربية المحيطة بفلسطين، وهذه البلاد العربية لا تستطيع مقاومة أطماع اليهود وهي مجزأة، لهذا أريد وحدة سوريا الطبيعية لتصبح دولة كبيرة قوية نسبياً تستطيع رد أطماع اليهود وإيقاف الخطر الصهيوني)). وكان الملك عبد الله بعيد النظر، كان يرى النصر للحلفاء في الحرب الكونية الثانية، وأن من المصلحة أن يقف العرب معهم، وصرح بذلك بكل شجاعة سياسية وأعلن الحرب على دول المحور: ألمانيا وإيطاليا.

وعلى أثر صدور قرار التقسيم في **٢٩** نوفمبر/ تشرين الثاني **١٩٤٧** والقاضي بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام: دولة عربية وأخرى يهودية، ومنطقة دولية هي منطقة القدس وبيت لحم، كان الملك عبد الله الحاكم العربي الوحيد الذي نصح بقبول قرار التقسيم مع تعديل على الحدود وأن تكون منطقة القدس ضمن القسم العربي، وبعد فترة من الزمن زاره وفد من فلسطين لطلب النجدة والمساعدة وقال لهم الملك: ((لقد نصحت بقبول التقسيم مع تعديل في الحدود لأنه خير حل بالنسبة للأوضاع الراهنة في فلسطين وفي البلاد العربية، على أنه إن كانت الدول العربية ترى الحل بالحرب فإن جيش الأردن أول الجيوش التي تدخل المعركة لإنقاذ فلسطين من العدوان الصهيوني)).

وبالفعل فقد شارك الجيش العربي الأردني بحرب فلسطين كما دخلتها جيوش مصر وسوريا والعراق وغيرها، واستطاع هذا الجيش الباسل إنقاذ الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية من الاحتلال الصهيوني.

وسعى الملك عبد الله رحمه الله بعد ذلك إلى ربط الضفة الغربية وقطاع غزة حتى يمكن الاتصال براً وبحرية بين عرب آسيا وعرب إفريقيا، ورأت الحكومة الأمريكية حينئذٍ أن يوصل الضفة الغربية بغزة طريق يربط بينهما من الخليل إلى القطاع. وكان رد الملك على هذا المقترح الأمريكي والذي ورد في رسالة منه إلى السفير الأردني في واشنطن يوسف هيكل حين قال له:

عزيزي هيكل بك: أعلموا وزير الخارجية الأمريكية أن ربط الضفة الغربية بقطاع غـــزة عـــن طريق يوصل بينهما لا يحل المشكلة التي نواجهها. إن المشـــكلة أن عـــرب ومســـلمي آســـيا مفصولون عن عرب ومسلمي إفريقيا، وهذا لا نقبل به، والطريق يمكن قطعه في أي لحظـــة. إن الحل الصائب والذي نطمئن إليه هو أن تضم منطقة النقب كلها إلى الضفة الغربية وقطاع غزة فيعود اتصال عرب آسيا بعرب إفريقيا اتصالاً حراً، إننا لا نقبل فصل عرب ومسلمي آسيا عن عرب ومسلمي إفريقيا.

اهتمام المغفور له بالعلم ونهضة البلاد

في موضع سابق من الحديث حول شخصية المغفور له عبد الله بن الحسين عرضنا أنه كـــان شخصية محبة للعلم والعلماء ولديه اهتمامات واسعة بهذا المجال الهام من حياة الإنسان. وكان مما سمعه منه بعض زواره قوله: ((علينا أن نحرص جميع العرب على النهـــوض بالصـــناعة بسرعة فنجعل بلادنا صناعية تسد حاجاتها وليس لأمة تريد الحياة بين الأمـــم أن تغفـــل الصناعة وعلينا أن نهتم بنشر علم الكيمياء وإيجاد الاختصاصيين الكيماويين مـــن أبنـــاء البلاد، والكيمياء الآن عصب الحياة الحديثة)) ثم استطرد جلالته باهتمام عظيم ((علينـــا أن لا نغفل عن إيجاد معامل السلاح، فالشرق ضعيف لأنه غير متسلح، وليصبح قوياً عليه أن يتسلح، ولكي يتم تسليحه كما يريد عليه أن لا يكون عالة على المصـــانع الأجنبيـــة، ولنتخذ عبرة من موقف الدول العربية التي تريد السلاح الآن فلا تجده إلا بشق الأنفـــس ولا تجد ما يكفيها منه، فعلينا إذن أن نؤسس مصانع الأسلحة علـــى مختلـــف أنواعهـــا وننتجها، فيصبح كل رجل منا جندياً مسلحاً، وفي هذه الحالة يحترمنا الغرب ولا يطمـــع فينا شرذمة من اليهود)).

إنها كلمات لا تصدر إلا عن رجل دولة متمرس خبير بأسرار تقدم الدول وصنع عظمتها، وعالم بالطرق التي تؤدي إلى نهوض البلاد واستقلالها. وما كان الحراك الـــذي شـــهدته بعـــض الأقطار العربية من انقلابات وثورات وحراك جماهيري إلا للمطالبة بـــهذا الذي كان ينادي به المغفور له عبد الله بن الحسين منذ وقت مبكر من تاريخ الأمة المعاصر.

أما بعد النظر السياسي الخارق الذي كان يتمتع به جلالته فقد برز جلياً في حديث له مع بعض رجال الدولة والوزراء حين وجه كلامه لوزير الخارجية قائلاً: ((قضية فلسطين الآن لا تهم العرب وحدهم مع أنها قضية مستقبل العرب جميعاً، وكذلك فإن اليهود ليسوا وحدهم وإنما أصبحت قضيتهم يُنظر إليها من وجهة نظر غربية، لقد أصبحت قضية صراع بين روسيا وأمريكا، إن تأييد أمريكا لليهود في فلسطين ليس ناجماً عن مجرد رغبة ترومان في الحصول على أصوات اليهود وإنما إتمام لسياسة أمريكا في تطويق آسيا. فأمريكا الآن في اليابان والفلبين وإيران والبحرين، وهي تريد فلسطين كنقطة ارتكاز في البحر الأبيض المتوسط)).

ثم استدرك جلالته قائلاً: ((نحن والله لا نراضي أمريكا على حقوقنا ولن نكون ضد روسيا في حين أن أمريكا ضدنا، فروسيا بلاد شرقية، وإن استمرت أمريكا في سياستها العدائية للعرب فسننضم إلى روسيا)) ثم قال وهو يبتسم: ((وماذا تريد روسيا؟ تريد أن نتبلشف إنني أفضل أن أشتغل بالمعول معها من أن يحكمنا اليهود ويتسلطوا علينا. قال أحد الحاضرين: إن في تصريح جلالتكم غمزاً بالإنجليز، فأجابه الملك: الانكليز ذاهبون وهم تاركونا، وقد لفتنا نظرهم إلى خدماتنا لهم في الأيام السود فأجابوا إننا نشكركم ولا ننسى ذلك، واستمر جلالته قائلاً: ماذا يفيدنا الشكر؟ فنحن نريد أن يساعدونا، لماذا لا يعطوننا المدرعات الضخمة المكدسة في التل الكبير التي لو كانت عندنا لكان موقفنا غير ما هو الآن، ولكنا دخلنا تل أبيب من زمن بعيد، لو كان عندي مال لاشتريته به)).

واستطرد جلالته في حديثه وفي نفسه ألم شديد وقال: ((هل تعرفون من أشد الناس عداوة لليهود؟ والله إنه أنا، فاليهود يبغضونني أشد البغض، وإنني لعدوهم الأول والغرب يبغضني أيضاً لأنني مسلم أتقي الله وأصلي، ولم أغير ملابسي وطريقة معيشتي)).

ثم اتجه الحديث حول الهدنة الأولى فقال جلالته موجهاً كلامه لبعض جلسائه من الوزراء: ((إن هدنة أربعة أسابيع ليست بالأمر الهين، فلن يقف اليهود مكتوفي الأيدي تجاهنا، وعلينا أن نجد ونعمل باستمرار، ولهذا ينبغي تأليف ثلاث كتائب قوام كل منها ألف ومائتان من الجنود المشاة من أردنيين وفلسطينيين مدربون ومسلحون ويرسلون إلى

القدس في أول يوم بعد الهدنة بكل قواهم، مع القوة الأردنية الحالية والمدفعية، وعليهم أن يقتحموا القدس أو يموتوا وسأذهب بنفسي أنا أيضاً للمعركة، فعلى كل منا أن يعمل ويضحي ولا يتوانى)).

ثم تكلم جلالته عن أهل فلسطين فقال: ((إنهم ليسوا خونة ولا جبناء بل مثلهم مثل الأردنيين شجعان مخلصين لكن ظروفهم لم تساعدهم، وإنهم لم يوجهوا ولم يعدوا لمثل هذا اليوم، وزعامتهم لا تفهم الأمور كما ينبغي. فأهل فلسطين ضحوا وناضلوا في سبيل وطنهم وقاوموا اليهود ثلاثين عاماً، ولكن الأمر أن أهل فلسطين قد غُرر بهم ولم يقوموا بتحصين مدنهم وقراهم، بعكس اليهود فقد استعدوا وحصنوا خلال السنوات الماضية كل مدينة لهم وكل مستعمرة مهما صغرت، حتى أصبحت مدنهم ومستعمراتهم المغتصبة من أهلها قلاعاً، لذلك عجز أهل فلسطين عن التصدي لليهود وحدهم، لذلك تركوا جميع أمورهم بأيدي سياسيين غرروا بهم)).

هذا هو المغفور له جلالة عبد الله المؤسس وهذه نتف من بعض أحاديثه وآرائه في أهم القضايا التي تهم حاضر أمته ومستقبلها، نراه كم كان بعيد النظر وحكيماً عندما تناول موضوع العلاقة مع الغرب لاسيما أمريكا ومع الاتحاد السوفييتي والتي أسماها روسيا وكيف كان يرى الصراع بين الكتلتين وأن على العرب التحالف مع روسيا إذا كان في ذلك تحقيق مصالحهم ورد الأطماع الغربية الاستعمارية عن ديارهم. وهذا ما لم ينتبه إليه إلا بعض العرب وبعد مضي سنوات طويلة على مقولات وأفكار جلالته. وكذلك الحال في موقفه من الصراع العربي اليهودي في فلسطين وكيف كان يشخص مرض الأمة ويصف لها العلات. ولكن الصراع على المكاسب الضيقة والصغيرة بين الحكام العرب جعل الأمور على غير ما يجب أن تكون عليه.

رحم الله جلالة الملك عبد الله المؤسس والذي امتدت إليه يد الغدر في العشرين من شهر تموز عام ١٩٥١ ولكن ما يعزي الأمة أنه حمل الرسالة من بعده من حافظ على الأمانة وسار في طريق نهضة هذه الأمة وعزها.

سيرة حياة ملكة هاشمية

إنها الملكة عالية ابنة الملك علي بن الحسين ملك الحجاز، ولدت في ١٩ كانون الثاني من عام ١٩١١ بمكة المكرمة، ويرجع نسبها إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، ولدت الملكة عالية بينما كان والدها علياً بإحدى غزواته خارج مكة المكرمة. وبعد مرور سبعة أيام أطلق عليها جدها الحسين بن علي اسم (عالية) وعلى عادة أهل مكة المكرمة عندما يولد لهم طفل جديد فإنهم يأخذونه إلى المسجد الحرام، وهكذا بعد مرور أربعين يوماً على ولادتها طاف بها البيت الحرام السيد العلامة الشيخ عبد الله الزواوي وبعد ذلك وضعها على باب الكعبة وطلب إلى سادنها الشيخ محمد الشيبي أن يدعو لها قائلاً له: هاك ادع لعالية الفضائل.

وهكذا ترعرعت الأميرة عالية في أزقة تلك المدينة وحينما بلغت من العمر سنتها الرابعة غادر والدها الأمير علي بن الحسين مكة المكرمة إلى المدينة المنورة للإشراف على بعض الشؤون العشائرية وبقي هناك مدة عام كامل. وفي الليلة التي أعلن فيها الشريف حسين جد الأميرة عالية الثورة على الدولة العثمانية في ١٠ حزيران ١٩١٦ – ٩ شعبان ١٣٣٤هـ أمر الحسين بجمع أحفاده وأخذهم إلى قصر الجدة (جدة الأمراء أبناء الحسين) الواقع في شعب علي فأوقظت الأميرة من نومها هي وشقيقها عبد الإله، وهناك في ذلك القصر الكبير تجمع كافة أحفاد الشريف حسين ولم يكونوا يعلمون شيئاً عن أسباب ذلك التجمع، إلا حينما اندلعت النيران وهاجمت القوات العربية في مكة مراكز جيوش الحكومة الاتحادية معلنة ثورتها ضد الدولة والتي لم يعد يربطها بالإسلام ومبادئه رابط، فعلا أزيز الرصاص سماء مكة بينما أخذت قلعة ((أجياد)) التي كانت تضم حامية للجيوش الاتحادية تصلي قصر الإمارة بنيران حامية. في تلك اللحظات جمعت الجدة أحفاد الحسين حولها وشرحت لهم أسباب جمعهم في هذا القصر، حيث أعلمتهم أن جدهم الحسين بن علي أعلن استقلال العرب بعد أن دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وما جرته على البلاد العربية من ويلات، إلى جانب الفساد المستشري في الدولة، وإعدام جمال باشا

لأحرار العرب إلى جانب سياسة التتريك التي أخذت تتبعها الدولة في بلاد العرب إضافة لاضطهادها واحتقارها لكل ما هو عربي وكان هذا أول درس تلقته الأميرة عالية وأبناء عمومتها في الوطنية والشعور بالانتماء القومي وطبيعة معاناة الأمة العربية. وبعد فراغ الجدة من حديثها سألتها الأميرة عالية مستفسرة عن جدها الحسين أين هو؟ فتجيبها الجدة: إنه هناك في مكة المكرمة يدير الثورة في جميع أنحاء الحجاز.

وبعد انتهاء الحرب الأولى استدعى الشريف حسين عائلة ولده الأمير علي إلى مكة المكرمة وكان ذلك عام ١٩١٩ حيث عينه أميراً للمدينة المنورة، وكانت تلك فرصة مهمة للأميرة عالية حيث شاهدت والدها لأول مرة منذ خمس سنوات.

وفي عام ١٩٢٠ سافرت الأميرة عالية وشقيقاتها ووالدتها وأفراد الحاشية إلى دمشق بصحبة شقيقها الأمير عبد الإله لحضور تتويج الأمير فيصل ملكاً على سوريا حيث لم يتمكن الأمير علي من الحضور بسبب انشغاله ببعض الأمور في إمارة الحجاز. وقد شهدت الأميرة عالية مراسم تتويج عمها فيصل الأول ملكاً على سوريا في ٢٨ آذار ١٩٢٠ وقد شاهدت حفلة التتويج من إحدى الدور المطلة على ساحة الشهداء وهي الساحة التي جرى فيها التتويج حيث وصل عمها مستقلاً مركبته الملكية واحتشدت الجماهير تحييه حينما صعد إلى دار البلدية لإجراء مراسم التتويج، وهتفت الجماهير بأعلى صوتها ((ليحيا فيصل ملك سوريا المستقلة دون حماية أو وصاية أو انتداب)).

وهنا أثار فضول الأميرة معنى كلمات الحماية والوصاية والانتداب وهي في سن التاسعة من عمرها، ومنذ تلك اللحظة عرفت الأميرة معنى تلك الكلمات فكانت لها وقع في نفسيتها التي نضجت فيها منذ تلك اللحظة بواكير الشعور القومي. أما الدرس الأهم فكان يوم سمعت النسوة في القصر يسألن أهلها متى سوف تسافرون وتعودون إلى المدينة فقد أدرك الجميع أن الحرب واقعة لا محالة بين سوريا وفرنسا وأن الانتداب الفرنسي قادم.

وبالفعل اصطفت الطالبات زميلات الأميرة في المدرسة في محطة الحجــاز للقطــارات لتوديعها في طريق العودة إلى المدينة. وفي عام ١٩٢٣ تأزم الوضع بين الملك حسين بــن علي والحكومة البريطانية حول المعاهدة العربية البريطانية وأصر الملك على رفض الانتداب البريطاني وكذلك رفض وبشدة وعد بلفور رغم طلب بعض أقطاب العرب منـــه إبـــداء بعض المرونة إلا أنه أصرَّ على موقفه، وبـــهذا الموقف وبضغط بريطاني تنازل الحسين عن العرش إلى ولده ولي العهد الأمير علي والذي نودي به ملكاً على الحجاز ولكن الأمـــر لم يطل فغادرت الأسرة إلى العقبة ومنها إلى عمان حيث استقبلهم الأمير الملك فيما بعد عبد الله بن الحسين وأنزلهم في قصره الذي سكنه جدها الحسين.

وفي عمان ألقت الأميرة عالية بنظرها إلى المدرج الروماني القريب من القصر وكأنهـــا تقول له كم مر بك من مآسي حقيقية كانت أم من بنات الخيال ولكنك اليـــوم تشـــاهد مأساة بشرية حقيقية وليس من الخيال.

أما الملك علي والدها فقد توجه إلى بغداد ليقيم إلى جانب شقيقه الملك فيصل الأول، وبعد ثلاثة أشهر قدم بقية أفراد العائلة إلى بغداد ليكونوا بالقرب من والدهم الملك علي. وهناك في بغداد تم اختيار مدرسات عراقيات للأميرة عالية وشقيقاها اختـــارهن الملـــك فيصل ووالدهن الملكة نفيسة.

كانت الأميرة عالية نحيفة القوام هادئة الطبع وذات حساسية ملحوظة، وكانت متعلقة بوالدها منذ الصغر ولم تفارقها يوماً واحداً في حياها وكانت تحبها وتحترمها.

هذه الظروف الصعبة التي مرت بها الأميرة جعلت منها شخصية متميزة فقد طبعتها بطابع العقل والحكمة والصبر والعناد وتحمل المسؤولية وفي الوقت نفسه الظروف القاسية وبكل جلد وصبر، وكانت تلك مدرسة كاملة أبدعت في صقل موهبتها وجعلت منهـــا عقلية كبيرة برزت أثناء وقوفها مع زوجها الملك غازي في الظروف والأزمات الصـــعبة التي واجهته. وكذلك لعبت دوراً مؤثراً وكبيراً بعد رحيله وما واجه العرش مـــن فـــراغ

بسبب صغر نجلها الأمير فيصل. حتى أن الوصي عبد الإله قال بعد مرض شقيقته عاليـــة: ((سوف أغادر السلطة إذا ما ماتت شقيقتي فهي الملجأ والملاذ لي في أوقات المحنة)).

خطوبتها للملك غازي

بعد وفاة الملك فيصل الأول وتتويج نجله غازي ملكاً تولدت لدى الملك الجديد الرغبة بالاقتران بنعمت ابنة ياسين الهاشمي السياسي العراقي المعروف آنذاك. فقد كانت تـــربط أسرة الملك فيصل علاقات متينة مع أسرة ياسين الهاشمي إلا أن نـــوري الســـعيد تلـــك الشخصية الداهية والطموحة في العراق بذل كل جهوده لمنع هذا الزواج خوفاً من زيادة نفوذ الهاشمي حين يصبح عماً للملك غازي. ومن أجل ذلك قدم نوري السعيد إلى عمان والتقى بالملك عبد الله عم الملك غازي الذي كان له تأثير كبير على ابن أخيه بحكم موقعه وسنه، وفعلاً ذهب الملك عبد الله إلى بغداد واستطاع إقناع الملك غازي بالزواج من ابنة عمه الأميرة عالية ابنة الملك علي وكانت يومها تقيم في الأستانة وهكذا وافق الملك غازي على الزواج من ابنة عمه منفذاً بذلك رغبة عمه الملك عبد الله.

ولما كانت الأميرة عالية تقيم في الأستانة أو استانبول فقد ذهب شقيقها الأمير عبـــد الإله لإحضارها لكي تتم مراسم الزواج التي كانت محدودة ومقتصرة على الأهل بـــالنظر لوفاة الملك فيصل الأول قبل عشرة أيام.

وفي صباح يوم **٢٠** أيلول سنة **١٩٣٣** نشرت الصحف العراقية البيان الخاص بعقـــد قران الملك غازي على ابنة عمه الأميرة عالية إبنة الملك علي ملك الحجاز السابق.

وفي أثناء قدومها إلى بغداد مع شقيقها سلكت الأميرة الطريق البري الذي يربط تركيا بالعراق مروراً بلواء الموصل ومن ثم كركوك فإلى بغداد حيث حلت في قصر والدها الملك علي ببغداد انتظاراً ليوم الزفاف والذي أجل لحين انتهاء فترة الحداد على الملك فيصل.

وبعد انتهاء فترة الحداد نشرت الصحف العراقية صباح **٢٥** كانون الثاني عام **١٩٣٤** بياناً أعلنت فيه: أنه سيتم قرآن الملك غازي مساء اليوم الخميس وبهذه المناسبة الســـعيدة سيتشرف رئيس وأعضاء مجلس الوزراء ورئيسا مجلسي الأعيـــان والنـــواب ورؤســـاء

الوزارات السابقة بتناول طعام العشاء على المائدة الملكية وبناء على رغبة جلالته سوف لا تقام أية مراسم أخرى.

وقد حضر الحفل الملك عبد الله بن الحسين عم الملك غازي وقد قام بعقد القران السيد يوسف آل عطاء مفتي العاصمة وشهود العقد كل من السيد جميل المدفعي رئيس الوزراء والسيد محمد الصدر رئيس مجلس الأعيان والسيد رشيد الخوجة رئيس مجلس النواب.

وفي مساء يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٤ ودع الملك علي والملكة نفيسة والدا الملكة عالية ابنتهما لتنتقل من قصرهما إلى قصر الزهور حيث يقيم الملك غازي. وقد رافقها شقيقها الأمير عبد الإله في سيارة مكشوفة وسط الجماهير الفرحة والأهازيج الشعبية حيث كان الملك غازي بانتظارها أمام القصر، وبعد أن استقبلها الملك عاد الأمير عبد الإله بسيارته إلى قصر والده. ودخل الملك وعروسه إلى القصر فالتف حولهما أفراد الأسرة المالكة وحاشيتهم دون أية إجراءات من مظاهر فرح الزفاف.

هذا وقد تلقى الملك غازي عدداً كبيراً من برقيات التهاني أهمها من جلالة المغفور له عبد الله بن الحسين والملك جورج الخامس ملك بريطانيا، والملك رضا شاه بهلوي شاه إيران، وموسوليني حاكم إيطاليا آنذاك. وكذلك من العلامة محمد حسين النائيني والفنانة المطربة أم كلثوم.

وفي ٢٢ آذار سنة ١٩٣٥ رزق الملك غازي بولي عهده فيصل وكان فرح الملكة عظيماً بمولودها الأول حيث كرست معظم أوقاتها له وكان والده سعيداً به أيضاً إضافة لجدته لأمه الملكة نفيسة. وقد بذلت الملكة كل ما بوسعها لغرض إعداد إبنها وإرشاده في كل صغيرة وكبيرة وكانت تشرف على دراسته وترشده لرفع إمكانياته الثقافية وخلق ملكة التعبير عنده لأن مستقبلاً كبيراً ينتظره فهو ولا شك ملك العراق المنتظر. وكانت تتابع كل ما يكتب من مقالات أو أشعار وقصائد تذكر الملك فيصل الثاني وتشيد به وبعائلته وبلاده. وتعمد إلى قصها بيديها والاحتفاظ بها.

كل من عاش تلك الفترة واختلط بالملكة عالية كان يدرك أنها تتمتع بذكاء وقاد. وقد وجدت أن الأجواء السياسية في العراق وقتذاك مشحونة بالاضطرابات وأن الملك يقود تياراً وطنياً قومياً لا يمكن ثنيه عنه وأن الخصوم أقوياء وشرسون، لذلك عملت جهدها لتوفير الحماية لزوجها الشاب المتحمس فنزلت بنفسها لتوجيه الإرشادات للمرافقين وخاصة من تعتبرهم مخلصين وأوفياء له وللعائلة.

ولكن أين هي من غدرهم ودهائهم وخيانتهم مجتمعين. كانت تدرك أن زوجها مستهدف بشكل واضح من الانكليز فظلت تلازمه كظله توجه النصح له والإرشاد تارة وتشحذ همم المرافقين والحرس تارة أخرى. فالملك غازي كان يعلن صراحة عداءه ومقته للإنكليز وفي كافة المناسبات وعبر عن ذلك من خلال مواقفه وما تذيعه إذاعة قصر الزهور من برامج موجهة بإشرافه مباشرة.

الملكة عالية وحركة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١

هذه الحركة والتي سميت في كتب التاريخ ثورة رشيد عالي الكيلاني ما زال موضوعها ملتبساً في أذهان الكثير من الناس سواء في الماضي أو في الحاضر. فهذه الحركة لم يقم بها الكيلاني وهو رجل مدني كان رئيساً للديوان الملكي ورئيساً للوزراء في العراق. إنما قام بها أربعة عقداء من ضباط الجيش العراقي هم صلاح الدين الصباغ وكامل شبيب وفهمي سعيد ومحمود سلمان. ولم يكن هدفهم إسقاط النظام الملكي في العراق ذلك الوقت، إنما كان سبب قيام الحركة هو الأزمة التي وقعت إبان الحرب الثانية بين قادة الجيش العراقي ومعهم القوى الوطنية وعلى رأسها رشيد عالي الكيلاني وبين الإنجليز وأعوانهم في العراق. وقد حاول قادة الحركة التفاهم مع الوصي عبد الإله ولكنهم لم يعثروا على أثر له فقد كان اختفى مع أغلب الشخصيات السياسية المعروفة أمثال نوري السعيد وعلي جودت والسويدي وغيرهم، فلم يبق أمام الضباط سوى السيطرة على مقدرات البلاد.

يقول العقيد صلاح الدين الصباغ في كتابه فرسان العروبة:

((جلس اثنان من خيرة الشباب العراقي في مقر فرقتي بمعسكر الرشيد لإعداد مسودة منشـور يوضح للشعب الحالة الراهنة وما نجم عن غيبة الوصي عبد الإله، وكنت أفكر في حل مـرضٍ يحد من صلاحيات الوصي، وخطرت لي فكرة تعديل الوصاية على العرش وذلك بتأسيس مجلس وصاية من أربعة أشخاص والأمير خامسهم، وبذلك تكون سلطة البلاد بيد جماعة مـن خـيرة المواطنين. وفعلاً حاولت الاتصال بسمو الوصي عن طريق الاتصال بشقيقته الملكة عالية حيث خاطبني المرافق الأقدم عبد الوهاب عبد اللطيف فطلبت إليه أن يتوسل من جلالة الملكة لتكلمني في أمر يتعلق بأخيها الوصي ولكنها رفضت الحديث معي في البداية، ثم طلبت الحديث مع رئيس أركان الجيش ولكنها لم تتوصل معه إلى أي نتيجة، وكان كل همها الحفاظ على النظام الملكـي وحياة شقيقها الوصي إلى أن يكبر ابنها فيصل ليتولى عرش العراق. وكانت تنـاور وتتصـرف بكل جرأة ومسؤولية ولكن وبعد أيام من بداية الحركة واختفاء الوصي حدث فراغ دسـتوري في البلاد فسوف لا يمكن لكافة القرارات أو المراسيم أن تأخذ صفتها الدستورية والقانونية دون مصادقة الوصي عليها، لذلك قررت حكومة الدفاع الوطني دعوة مجلس النواب للانعقاد بهدف تعيين وصي على العرش ليملأ الفراغ الذي تركه الوصي عبد الإله، فتم اختيار الشريف شرف وصياً على العرش، وهو سليل الأسرة الهاشمية الحاكمة في العراق ويبلغ من العمـر سبعين عاماً وهو رجل وقور ويتمتع بصفات حميدة وخصال حسنة تدعمها عقلية حكيمة أملتها السنين الطوال التي عاشها في معاصرة أحداث المنطقة العربية، وقد حظي بـاحترام وثقة جميع الساسة العراقيين. ولما كانت إجراءات التنصيب تستهدف الوصاية على عرش الملك الصغير فيصل الثاني فقد أبت نفس الشريف شرف إلا أن يذهب إلى القصر الملكي ليلتقي بالملكة عالية ليستأذنها بشأن تنصيبه على الوصاية، ولكن الملكة كان لهـا موقـف آخر ولم ترحب بالفكرة.

تسفير الملكة عالية وأسرتها إلى مصيف صلاح الدين

بعد أيام من قيام الحركة عام ١٩٤١ قررت حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشـيد عـالي الكيلاني نقل العائلة المالكة وبضمنهم الملك فيصل الثاني الذي كان طفلاً صغيراً وقتذاك إلى أحد

مصايف أربيل، خوفاً من أن تصيبهم قنابل الطائرات البريطانية المغيرة على بغداد يومياً، فقد تعمد هذه الطائرات لقصف القصر الملكي ومن ثم اتهام الجيش بذلك وتحميل الحكومة المسؤولية، وقد اتخذت الإجراءات الرسمية في تسفير العائلة المالكة وتم إشعارهم بذلك، بعد أن أفرغت لهم دار ملا أفندي والد عز الدين الملا، وهي دار كبيرة على درجة عالية من الفخامة، وتم اتخاذ الاحتياطات الأمنية التي تكفل لهم الاستقرار والأمان دون أن يمسهم مكروه، وقد مكثت الملكة وابنها الملك وبقية أفراد الأسرة فيها تحت حماية وإشراف قوة عسكرية خصصتها الحكومة العراقية، واتخذت الترتيبات اللازمة بعدم الاتصال بأي كان إلا وفق الترتيبات اللازمة التي وضعتها الحكومة. وقد أشرف على تسفير العائلة المالكة المقدم صالح زكي آمر فوج الحرس الملكي والحراسة وقد تم ذلك مساء يوم الأربعاء ٢٨ آذار مارس ١٩٤١ حيث وضع الابن فيصل والملكة في سيارة خاصة.

لكن الوضع لم يستمر طويلاً فقد فشلت الحركة وهرب قادتها إلى الخارج وألقي القبض على عدد كبير منهم فتم إعادة الأسرة المالكة ومنهم الملكة وابنها فيصل إلى بغداد.

هذا وقد لعبت الملكة عالية دوراً كبيراً في رعاية ولدها فيصل وأعطته كل ما تقدر عليه وتستطيعه من رعاية واهتمام وقد سعت لذلك بكل جد ومثابرة منذ وفاة الملك غازي، ويبدو أنها تأثرت بمقولة نابليون التي تؤكد على ((أن مستقبل الطفل هو من صنع أمه دوماً))

مرض الملكة عالية ووفاتها

أوائل عام ١٩٤٨ بدأت الحالة الصحية للملكة عالية بالتدهور وفي خريف عام ١٩٥٠ تم نقلها من المستشفى في لندن إلى بغداد بعد أن تدهورت صحتها كلياً، ويقال كذلك بأنها لم تكن ترغب أن يعالجها طبيب أجنبي بل طبيب مسلم عربي خاصة وهي تشعر بأنها تودع هذه الدنيا، وفي ضوء ذلك ترك الملك فيصل مدرسة (هارد) وأبدت والدتها الملكة نفيسة الرغبة في زيارة المدينة المنورة والتضرع إلى الله سبحانه أن يمنحها الصحة والعافية، وقد رافقها في هذه الزيارة والتي استمرت يوماً واحداً الملك فيصل والوصي عبد الإله.

وكان الأمير السعودي منصور بن عبد العزيز على رأس المستقبلين ولكن لله كانــت إرادة فقد ساءت حال الملكة وأخذت النوبات الحادة تظهر عليها بشكل متواصل ودون أن يعــرف السبب، وقد كانت الملكة على قدر كبير من الشجاعة والقوة والتحمل وتجرع الألم بعنــاد لا مثيل له كما قال المشرفون على علاجها، ولم تكن تخش الموت وكانت تقــول: ((لا يموت المرء مرتين وإن لم يكن اليوم فغداً كل منا سوف يموت)). لقد كانت امرأة نبيلة وزوجة مخلصة وأماً مدهشة كما كانت مصدر حكمة سياسية واضحة.

أما عودها إلى بغداد كما أسلفنا فكانت بعد أن يئس الأطباء من شــفائها واســتفحل المرض الخبيث في أنحاء جسدها لذلك أعلنت رغبتها بالعودة إلى بغداد وقالت: ((خذوني إلى العراق، فإن عشت فأنا تحت سماء بلادي، وإن مت فلأدفن بين أبناء شــعبي)). وقــد رافقها إلى بغداد ابنها الملك فيصل بعد أن أجرت له كلية هارد ترتيبات خاصة بحيــث لا يضيع عامه الدراسي.

كانت الملكة عالية ذات حلاوة في خلقتها وخلقها، وفي نطقها وتحدثها، باسمة دوماً ولا تنسى دائماً أن تقدم الشكر لكل من يقدم لها خدمة ولو كانت ضئيلة.

كما كانت عطوفة على الفقراء وتشرف بنفسها على توزيع الطعام من مطبخ القصر أيــام الجمع، كانت ملكة نبل لا ملكة حكم. وبعد أن وجدت أن المرض قد أقعدها وليس بمقدورها ممارسة نشاطها كالمعتاد اتجهت لمطالعة الكتب لاسيما التاريخية منها وســير العظمــاء والقــادة وغيرهم من الذين يزخر بــهم التاريخ، وتارة تلجأ إلى وحيدها فيصل تقص عليه مــا قــرأت وتعطيه من تجاربها. وفي أواسط ١٩٥٠ استهوتها كتابة مذكراتها بعد أن أخذ المرض منها مأخذه وفعلاً بدأت بتدوين المذكرات يساعدها في ذلك العقيد المتقاعد يوسف النائب والذي يسجل ما تملي عليه.

ولكن القدر عاجل الملكة عالية والتي أسلمت الروح للباري سبحانه صباح يــوم الخمــيس ٢١ كانون الأول ١٩٥١ الساعة التاسعة والدقيقة العشرين صباحاً. وجرت مراسم الدفن في اليوم التالي. وأمَّ الصلاة على روحها المغفور له جلالة الملك عبد الله بن الحسين عم الملكة.

الرئيس الذي قادته شعبيته
إلى السجن الانفرادي

إنه المرحوم اللواء محمد نجيب أول رئيس لجمهورية مصر وأول حاكم مصري يتولى حكم مصر منذ ثلاثة آلاف عام. كان أكبر أعضاء مجلس قيادة الثورة سناً ورتبة. يقال بأنه لم يشارك فعلياً في ثورة يوليو وأنه وضع على رأس مجلس القيادة بسبب رتبته وسنه وحب الناس له ولمعرفتهم باسمه ربما.

وكأي شخص يُحمل المسؤولية ويصبح رجلاً أول فلابد أن يعمل على التمسك بالمنصب قدر الإمكان ويدافع عنه بكل ما أوتيَ من قوة. لذلك بدأ الخلاف بين نجيب وبقية أعضاء مجلس القيادة منذ الشهور الأولى للثورة، فقد أراد ممارسة صلاحياته كرئيس وفرض ما يراه مناسباً من أسلوب للحكم. ولكن وبعد فترة من الزمن وفي شهر مارس آذار **١٩٥٤** شهدت مصر ما سمي بأزمة مارس حيث تم إقصاء محمد نجيب عن منصبه، ولكن مظاهرات شعبية وقعت واستطاعت أن تجبر مجلس قيادة الثورة على إعادة نجيب إلى منصبه ولكن لفترة وجيزة فقد كان العمل جارياً للتخلص منه، فقد أصبحت شعبيته تهدد الضباط الشباب الذين لهم طموحات أخرى.

وفي ظهيرة أحد أيام أبريل **١٩٥٤** دخل ضابطان من مجلس قيادة الثورة هما عبد الحكيم عامر وحسن إبراهيم مكتب الرئيس وأبلغاه بأن مجلس قيادة الثورة قد أعفاه من منصبه كرئيس للجمهورية. واستطرد عبد الحكيم عامر قائلاً: ((سوف تقضي سيادتكم أيام قليلة في قصر زينب الوكيل ثم تعود إلى بيتك)) وزينب الوكيل هي زوجة مصطفى النحاس باشا أشهر رؤساء وزارات مصر ما قبل الثورة. ولم يناقشهم الرئيس وخرج من مكتبه لآخر مرة في حياته، وكانت آخر نظرة له إلى باب المكتب الذي أغلق فور خروجه منه وفوقه قطعة كبيرة من النحاس محفور بداخلها بالخط الكوفي كلمة ((الرئيس)) وركب معهما السيارة إلى ضاحية المربع حيث يقع قصر زينب الوكيل، وفي الطريق أخبرهما الرئيس المعزول والذي لم يعرف الشعب حتى تلك اللحظة نبأ اعتقاله أنه يريد الاتصال

بمنزله، وطمأنه عبد الحكيم بأن كل الإجراءات المريحة له سوف تكون مرتبة لدى وصوله. سألهم أن يخبروا أسرته بعنوانه ليراسلوه فأكد له حسن إبراهيم أن كـل طلباتـه مجابـة. ووصلت السيارة إلى قصر زينب الوكيل وانصرف الضابطان. ولكن نجيب فوجئ لـدى وصوله أن كل الوعود التي سمعها لم تكن سوى أحاديث طريق للتسلية.

وفوجئ نجيب بأن الحراس نهبوا كل ما في القصر قبل وصوله وهكذا دخل الفيلا التي أصبحت معتقلاً لأول رئيس مصري تذكَّر نجيب لحظة وداعه للملك فقد أصبح هو الآخر مخلوعاً مثله، ولكن بفارق أن الملك يتمتع بحياته الخاصة في إيطاليا بينما هـو معتقـل في وطنه. وفي هذه الأثناء كان نجيب يكتب عن وضعه للرئيس الراحل جمال عبـد الناصـر والذي كان يكلف مدير البوليس الحربي أحمد أنور بالحوار معه والرد عليه.

وفي ٨ نوفمبر ١٩٥٦ كتب نجيب إلى الرئيس عبد الناصر يقول:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، الشكوى لغير الله مذلة وما كنت أشكو لـو توافرت لي الشروط الضرورية للحياة، فأنا أليم في حبسي الانفرادي في غرفة ضوءها غير كاف ولا تدخلها الشمس تقريباً، لا أبارحها ولا أجد حتى الفرصة للمشي أو التـريض، ومع مرضي بالكبد وبانخفاض ضغط الدم لم يزرني الطبيب هذه المدة مع أني كنت آخـذ يومياً من الطبيب حقنة لعلاج الكبد والأعصاب وانخفاض الضغط وحرمت من كل هذه مرة واحدة فساءت صحتي وأصبت بنزلة صدرية وبصداع مستمر ودوخة إلى أن حدث لي أمس هبوط في النبض انخفض من ٧٦ إلى ٤٩ أو أقل ويعرف ذلك السادة الموجودون معي للحراسة، كما أن العلاج العادي المستديم وهو حبوب الفيتامينات وعـلاج الكبـد وحبوب الخميرة بل حتى الأسبرين العادي قد انعدم معظمها وأنا في شدة الاحتياج إليهـا وكانت حرارتي مرتفعة منذ مساء أول أمس حتى الآن. إضافة لذلك فإني لم أقـص شـعر رأسي منذ شهرين ولا أستطيع إحضار حلاق.

وأنا أكتب إليكم هذا وقد ساءت صحتي فعلاً، رجاء صدور أوامركم بما ترونه ممكناً وأنا لا أطلب أكثر من حق العلاج وأن يعودني طبيب ويعطيني الحقن التي كانت تحفـظ

كياني، وأن تسمحوا لي بمكان أستطيع فيه رؤية الشمس وعمل شيء بسيط من التـــريض وأن تسمحوا لي بقص شعر رأسي.

كما أني هنا لا أجد الحرية حتى في التوجه إلى دورة المياه للوضوء أو إزالة الضـــرورة لأني حريص على عدم إزعاج سكان المترل وهم أناس في غاية كرم الأخلاق والإنســانية لذا فإني حرصاً على راحتهم وشعورهم أضغط على نفســي بقــدر الإمكــان حــتى لا أزعجهم، بالإضافة أيضاً إلى عامل إنساني هام سأعهد إليكم بتداركه ذلــك أني تركــت زوجتي وأولادي وباقي أفراد أسرتي وهم لا يعرفون عني أي شيء وهل أنا حي أم ميــت وأظن رحمة بأولادي وزوجتي وباقي أفراد الأسرة لا يتعذر عليكم بأن تسمحوا بأن أرسل لهم خطاباً كل أسبوع على أن يصلني منهم ولو سطر واحد يؤكد لي أهم تسلموا خطابي واطمأنوا وطبعاً أنا وأولادي وكل ما نملك فداء للوطن.

وإني أتحمل كل شيء بصبر وإيمان ما دام ذلك في صالح بلادي العزيزة وأترك الأمـــر لحكمكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمد نجيب

وفي ٢١ من نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٦ تبرع اللواء نجيب بخمسة جنيهات كرمـــز لمؤازرته للقوات المسلحة أمام التهديدات الصهيونية. ولكن هذا التبرع رُفض بحجة أنـــه مبلغ زهيد من رجل مثل محمد نجيب قالوا بأنه كسب مبلغ (١١) ألف دولار كان ريـــع كتاب ألفه عن الثورة. وأنَّ هذا المبلغ وأقل منه كان سيقبل وبكل اعتزاز لو قُدم من رجل فقير وما أكثر أولئك الذين قدموا قروشاً كان هم وأولادهم أحوج إليها وقبلت مـــنهم بكل اعتزاز هكذا قيل لنجيب حينما زدت إليه جنيهاته

وبالمناسبة فقد قيل بأن رصيد نجيب في البنوك هو ١٧٦ جنيها مصريا. لا بـــل إن محمـــد نجيب أرسل إلى عبد الناصر يطلب منه المساعدة قي انجاز أمر أنساني بالغ كتب يقول:

المرج ٢٨ من أغسطس ١٩٥٧

السيد قائد عام القوات المسلحة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرسل لكم مرفقاً بهذا الطلب استبدال بمبلغ عشرين جنيهاً من معاشي لأن هذا المبلغ يلزمني بصفة عاجلة وضرورية للأسباب التي ذكرتها بالطلب من إجراء عملية جراحية في عظم الرأس لابني الصغير لتغطية فجوة عارية كسر عظمها في عملية تربنة أصيب بها عام ١٩٤٧ وترتب عليها آثار عصبية سيئة وحيث أنني أقوم بتغطية نفقات أولادي الثلاثة في التعليم ويوجد من بينهم طالب بجامعة ميونخ بألمانيا وأرجو بصفة خاصة مساعدة سيادتكم بالتوصية على طلبي هذا بسرعة التصديق عليه وسرعة صرف هذا المبلغ حيث أنه جميع مدخراتي قد نفذت بسبب علاج زوجتي ولم يبق لي غير ما ترسله وزارة المالية من معاش في البنك وقدره ١٧٦ جنيهاً فقط.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

لواء سابق: محمد نجيب

أما أبناء نجيب فإن ابنه الأكبر فاروق اعتقل وتوفي هو الآخر في المعتقل عام ١٩٦٩ وحُرم نجيب من السير في جنازته، وابنه الثاني اغتيل في ألمانيا، والابن الثالث يوسف فُصل من عمله إثر خلاف في الرأي مع أحد أقارب شمس بدران وزير الحربية وفشل في العثور على عمل آخر إلى أن نجح في العمل كسائق تكسي.

طالت سنوات اعتقال نجيب ولكن الحياة دبت به من جديد إثر تلقيه مكالمة من الرئيس السادات أواخر السبعينات يخبره بها بأنه أصبح حراً طليقاً.

وفي بداية الثمانينات طالب ورثة زينب الوكيل حرم النحاس باشا بالقصر الذي يقيم فيه محمد نجيب وكان القانون معهم. وانتاب الحزن نجيب الذي ربطته بالمكان علاقة من الصعب وصفها رغم ما رآه في هذا المكان من حياة لم يكن يتمنى أن يعيشها، فقد اعتاد المكان الذي أمضى به الكثير من سنوات عمره.

وتمسك الورثة بحقهم وبكى نجيب عندما شعر بأنه سيخرج إلى الشارع يبحـــث عـــن مأوى. ولكن الرئيس مبارك تدخل في الأمر وخصص له شقة يعيش فيها، وما كاد نجيب ينتقل إلى شقته الجديدة أوائل ثمانينات القرن الماضي حتى فارق الحياة.

والآن نقول بأن الكثيرين ممن قرأوا ما جرى لنجيب لابد وأنهم تعاطفوا معه وشـــعروا بأنه سجن مظلوماً ودون سبب أو وجه حق. وفعلاً كان الأمر كذلك وكان مجرد صراع على السلطة أو الأقرب إلى الحقيقة أنه كان الخوف من شعبية نجيب والذي كان مدعوماً بجماعة الإخوان المسلمين وربما بعض الأحزاب القديمة الأخرى. إضافة لشـــعبيته ربمـــا في الجيش، فنجيب معروف عنه التدين والأخلاق الفاضلة ولطف المعشر وذلك كان خشية أعضاء مجلس قيادة الثورة من بقائه معهم سواء شارك في الثورة حقيقة أم لم يشارك. ولكن والحق يقال وكما عُرف وكُتب عن نجيب أنه لم يكن رجل دولة ولم يكن صاحب شخصية قوية وربما كان تقليدي الأفكار ولو تولى السلطة لعاد بالبلاد إلى ما كانت عليه قبل الثورة ولانتهزت الأحزاب القديمة ورجالها الفرصة لمعاودة الصراع على السلطة وإبقاء الثروة في أيدي نفر قليل من رجال المال والإقطاع ورؤوس الأموال الأجنبية. ولكن رغم كل ذلك لم يكن نجيب يستحق مثل تلك المعاملة السيئة وكان من الأفضل أن يبقى مع أسرته وتحت الإقامة الجبرية في أحسن الأحوال ولسنوات قليلة ثم ينال حريته حيث أنه وبعد أن استقر الوضع وبلغت شعبية عبد الناصر ما بلغت في مصر والعالم العربي فإن نجيب لم يكن يشكل أي خطر على النظام لا بل نسيه الناس ولم يعد له ذكراً. ولكنها السياسة العربية ومنـــذ قرون عديدة مضت وهي لا تعرف غير هذه الطرق والأساليب في التعامل مع حملة الرأي الآخر أو من يُتصور أنه يشكل خطراً على النظام القائم.

أشهر رحالة العرب

إذا كانت الرحلات تعود بعظيم الفوائد على من يقوم بها سواء في متعــة المشــاهدة والترويح عن النفس إلى كسب المعارف الجديدة عن البلاد والعباد إلى جانب ممارسة نوع من المغامرة والولوج في مجاهل غير مطروقة أو معروفة للعامة. كل هذه الفوائد وغيرهــا ومن ضمنها طلب الرزق وتبديل الحال إلى أحسن منها تعود بالنفع علــى مــن يقــوم بالترحال والتجوال فإن الحال يكون أفضل والفوائد أعم لو قام صاحب الرحلة بتسجيلها وكتابة يومياتها عن كل ما شاهد وعاش من تجارب. فمن يقرأ عن هذه الرحلات بعد ذلك لابد أن تتحقق له فوائد جمة حتى لو لم يرتحل، فيتعرف على أماكن وشــعوب وعــادات وظروف معيشة وطبائع بشر ما كان ليعرفها لو لم يقم أصــحاب الــرحلات بتــدوينها والحديث عنها وبالتالي تسهم في تدوين تاريخ الأمم والبلدان.

وما سمي بأدب الرحلات عرفته البشرية منذ القدم، والحضارة العربية الإسلامية لم تكن بعيدة عن هذا النوع من الآداب فقد عرفت العديد من الكتب التي تركها من قام بتلــك الرحلات ودونها، ومن أشهر هؤلاء الرحالة ابن بطوطة وابن جبــير وناصــر خســرو وغيرهم. ونستطيع أن نعد معهم ابن خلدون صاحب التاريخ المشهور وإن لم يكن تفــرغ للكتابة عن رحلاته، ولكن هذه الرحلات مكنته من كتابة نوع من التاريخ جديد مزجــه بعلم الاجتماع والاقتصاد وليخرج بنظرية ما زالت تدرس للآن لا بل وتعتبر مــن أهــم نظريات علم الاجتماع العربية الإسلامية قديماً وحديثاً.

وعن أدب الرحلات العربية سنقف مع اثنين من أشهر الرحالة العرب المسلمين وهمــا ابن بطوطة وابن جبير. فابن بطوطة سيد الرحالة العرب بلا منازع في القرن الرابع عشــر – الثامن الهجري – فقد سلخ من عمره ثمانية عشر عاماً ينتقل في أجزاء العالم المعروف في أيامه. بدأ من طنجة واجتاز شمال إفريقية إلى مصر وبلاد الشام، وأدى فريضة الحــج، ثم ساح في فارس وبلاد العرب وزار شرق إفريقية ودخل القرم وحوض الفولفا الأدنى وعرج

على القسطنطينية، وتاقت نفسه بعد ذلك إلى التشريق فاتجه نحو خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند حيث خدم ملك دلهي ثماني سنوات، ثم زار جزر المالديف وجزر الهند الشرقية والصين وعاد إلى طنجة، لكن حنينه إلى الأسفار عاوده فرحل رحلتين قصيرتين واحدة إلى الأندلس والأخرى إلى السودان.

وقد قدرت المسافة التي اجتازها ابن بطوطة في أسفاره بنحو (١٢٠٠٠٠) من الكيلو مترات. وإذا ذكرنا وسائل النقل والمواصلات التي كان عليه أن يلجأ إليها أكبرنا فيه هذه الهمة. وإلى جانب كون ابن بطوطة رحالة فقد كان عالماً فقيهاً فقد درس العلوم الشرعية قبل أن يبدأ رحلته حيث ولاه الحجيج الذين كان بينهم القضاء بعد أن أدركوا أن بينهم فقيهاً.

ابن بطوطة ولد في طنجة في ١٤ رجب ٧٠٣هـ ١٣٠٤/٤/٢٤م وبدأ رحلاته وهو في الثانية والعشرين من العمر، رحل من المغرب إلى مصر ماراً بالجزائر وتونس وليبيا وأعرس قبل أن يصل إلى مصر. وصل إلى الإسكندرية أولاً ثم إلى القاهرة حيث رافق الحجيج الإفريقي إلى عيذاب ليجتاز البحر إلى الحجاز، ولكن ولأسباب قتالية تم خرق المراكب التي لم تستطع اجتياز البحر الأحمر، فعاد ابن بطوطة إلى القاهرة واجتاز إلى الشام بطريق سيناء فنزل في غزة ومنها إلى الخليل فالقدس وهناك انضم إلى الحاج الشامي ووصل الحجاز وبعد ذلك انتقل إلى العراق ولم يمكث طويلاً بسبب اضطراب الأمن قليلاً، فعاد إلى الحجاز ليدرس ويحج ويكرر الدرس والحج. ثم يركب البحر إلى اليمن ومن هناك يعبره إلى إفريقيا ثم يعود إلى شواطىء الجزيرة العربية الشرقية، ثم يحج للمرة الرابعة وبعد ذلك يذهب إلى مصر فالشام. ومن اللاذقية يبحر إلى بلاد الروم، وهناك ينتقل من مكان إلى آخر حتى يصل الغولغا والقوقاز ويزور القسطنطينية في حاشية " الخاتون بيلون " زوجة السلطان " أوزبك خان " وابنة ملك الروم.

وبعد زيارة خوارزم وبخارى وسمرقند وترمذ وغزنة وكابل وغيرها دخل الهند سنة ٧٣٤هـ ١٣٢٣م وكان سلطانها " محمد بن تغلق " الذي أكرم وفادته فأقام ثماني

سنوات وفي حاضرتها دلهي تولى القضاء، فأراد ملك الهند إرسال هدية إلى الصين فجعل ابن بطوطة رئيساً للوفد وفيما بعد تنقل في الهند وجزر (ديبة المهل) والمالديف وسيلان (سرنديب) والملايو وسومطرة.

وما تركه ابن بطوطة عن المجتمع في هذه الأماكن وفي الصين فيه صور فريدة لا في أناقة الوصف فحسب ولكن غزارة المادة التي يمكن أن تفيد المؤرخ في معرفة الحياة الاقتصادية أو السياسية والاجتماعية. وكانت عودته بطريق الخليج العربي والعراق.

وكان ابن بطوطة في دمشق أيام أصابها الطاعون في عام ٧٤٩هـ ١٣٤٨م وقد وصفه وصفا مؤثرا. ومن دمشق ذهب إلى مصر فالحجاز حيث أدى الفريضة مرة أخرى. وفي سنة ٧٥٠هـ ١٣٤٩م غادر مصر إلى تونس بحراًثم انتقل إلى فاس إلى بلاط السلطان (أبي عنان) حيث لقي عطفاً وكرماً وفرا له أسباب الراحة والعمل.

وزيارة ابن بطوطة للأندلس كانت قصيرة، ذلك أن ما بقي للعرب يومها هناك قد تقلص ظله، ولكنه لم يقم في فاس طويلاً بعد عودته حتى عاوده الحنين إلى الرحيل، فخرج من فاس ٧٥٢هـ ١٣٥٢م إلى السودان الغربي في رحلة دامت سنتين زار فيها سجلماسة، تغازى، أبو الاتن، مالي (عاصمة سلطنة مالي)، تكدا ثم عاد إلى فاس ٧٥٤هـ ١٣٥٣م.

وكان ابن بطوطة كثير الحفاوة بالأشخاص الذين عرفهم وتحدث إليهم، وكان يولي رجال الدين عناية خاصة ويكثر من رواية أخبارهم وكراماتهم مما يشوق القارىء ويطلعه على نواح من حياة المجتمع الاسلامي في القرن الرابع عشر. ولكنه لم يعنى بالجغرافيا عناية خاصة فهو لم يكن يهتم بوصف جغرافية الأقطار التي يزورها ووصفه للمدن يدل على أنه كان يعتبرها أماكن إقامة للناس الذين كانوا هم موضع اهتمامه.

ويقال إن ابن بطوطة قد فقد أوراقه ولذلك كان كل ما أملاه على (ابن جزى) كاتب السلطان أبي عنان من الذاكرة وكان ذلك بين ٧٥٥و ٧٧٠هـ (١٣٥٤و١٣٦٨م) والكاتب ابن جزي لم يكتف بما أملاه الرحالة بل أضاف إلى الإملاء شواهد شعرية كثيرة وبسبب بعد الشقة الزمنية بين وقوع الأسفار واملاء الأخبار فقد اختلطت علينا بضعة أمور في الرحلة، فهو لم يمل أخبارها متسلسلة وما كان ذلك باستطاعته بعد كل هذه

السنين. وكان أكثر ما وقع من لبس في أسماء أهل المناطق الشرقية القصية وليس ذلك غريباً فالأسماء هناك كانت وما زالت أمر غير مألوف.

لذلك نُقل بعضها محرفاً، ومنها أن صور المكان غير واضحة لا سيما وكما أسلفنا فابن بطوطة لم يعنى بالأمكنة عنايته بالناس والأشخاص. هذا وقد حملت هذه الأمور بعض المفكرين القدماء والمحدثين على الشك في بعض روايات ابن بطوطة ووصوله إلى بعض الأماكن التي ذكرها مثل الصين، فقد شك في ذلك ابن خلدون وابن جزى كاتب رحلاته نفسه.

ومن روايات ابن بطوطة المشوقة ذكره للنساء الهنديات اللاتي يحرقن أنفسهن بعد موت أزواجهن.

"وإحراق المرأة في الهند بعد وفاة زوجها أمر مندوب إليه غير واجب، ولكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك، ونسبوا إلى الوفاء، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها ممتهنة لعدم وفائها ولكن لا تكره على إحراق نفسها ".

ويروي ابن بطوطة ما شاهده حين تعاهدت ثلاث نسوة على إحراق أنفسهن، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا، ويأتي إليهن النساء من كل جهة وفي صبيحة اليوم الرابع جيء إلى كل واحدة منهن بفرس ركبته وهي متزينة متعطرة، وفي يمناها جوزة نار جيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر بها إلى وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والألوان والأنغار؛ وكل إنسان يقول لها أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي، وهي تقول نعم وتضحك إليهم.

أما كيفية صنعهن بالاحتراق فيصفه ابن بطوطة قائلاً:وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، يقول سرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة، وبين القباب صهريج ماء تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس. ولما وصلت إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه، وجردن ما عليهن من ثياب

وجواهر وتصدقن به، وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض وصب عليها زيت الجلجان فزاد في اشتعالهاوكان هنالك نحو خمسة عشر رجلاً بأيديهم حزماً من الخشب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبير، وأهل الطبول والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها منظر النار. ورأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف وقالت لهم ما معناه " أبالنار تخوفونني، أنا أعلم أنها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت نفسها فيها "

ثم يتحدث عن زواجه في الصين وإعجابه بالمرأة الصينية لا سيما عدم غضبها حين الزواج عليها لا بل إنها تساعده في عملية التطبيب وتتخير الثياب وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير.

ابن جبير الرحالة الفقيه

يعتبر ابن جبير من كبار الرحالة العرب ولد في بلنسية بالأندلس عام ١١٤٥م ٥٤٠هـ وسمع من أبيه وأخذ القراءات عن ابن أبي عياش، وعني بالأدب والشعر فبلغ فيهما الغاية، وخلف شعراً كثيراً، وأكبر آثاره الأدبية رحلته المسماة " تذكرة الأخبار عن اتفاق الأسفار".

كان ابن جبير كاتباً للسيد أبي سعيد عبد المؤمن صاحب غرناطة وكان هذا يوماً على شرابه، فاستدعى ابن جبير ليكتب له وناوله كأساً، لكن ابن جبير أظهر الامتعاض من ذلك لأنه لم يشرب قط في حياته، لكن السيد أقسم عليه أن يشرب منها سبعاً، فقبل ابن جبير مرغماً فكافأه ابن سعيد بأن ملأ الكأس له سبع مرات بالدنانير فقرر ابن جبير ساعتها أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، وقد راق ذلك للسيد فأسعفه وأعانه.

وكان خروج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس في ٨شوال ٥٥٧٨ ١١٨٣م ودخل الإسكندرية بعد شهر قضاه على ظهر البحر بين سبتة وبينها، ثم ذهب إلى القاهرة، ثم مر بقوس

وعيذاب في طريقه إلى الأماكن المقدسة، ثم ذهب إلى الكوفة ومنها إلى بغداد والموصل، وكانت عودته بطريق حلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وعكا، ومن هناك أقلع بمركب للإفرنج إلى صقلية ماراً بصور، وكان الوصول إلى غرناطة في ٨ محرم سنة ٥٨١هـ وكان من رفقاء الرحلة والحج جده لأمه القاضي ابن عطية وأبو جعفر الطيب.
وبعد نحو ربع قرن قضاها ابن جبير في غرناطة ومالقة وفاس مهتماً بسماع الحديث والتصوف، توفيت زوجته عاتكة أم المجد وكان ولعه بها شديداً فاشتد حزنه عليها، وخرج من المغرب حاجاً مجاوراً في مكة وبيت المقدس، وعاد إلى القاهرة والاسكندرية وشغل بالحديث حتى وفاته ٦١٤هـ-١٢١٧م.

وقد دون ابن جبير رحلته الأولى على شكل مذكرات يومية. وعني بها بالمراسم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة. فمشاعر الحج مدونة كلها، وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفاً دقيقاً بارعاً، ورحلته فيها الكثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبيين في سوريا، ويشير غير مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة. وهو شديد العناية بالبحث عن المدارس والبيمارستانات وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة. وتناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته صقلية بوصف رائع.

ومن رحلة ابن جبير نقتطف وصفه لعملية الغوص على اللؤلؤ، ومن زار منطقة الخليج الغربي وسمع عن عمليات الغوص فإنه يرى تطابقاً فيما يرويه ابن جبير مع وصف أهل الخليج. يقول ابن جبير: ((وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها وأوان الغوص عليه هو شهر يونيو العجمي والشهر الذي يليه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق، والمغاص قريب منها ليس ببعيد، ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة، فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنهما محارتا فضة، ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق)).

نازلي والدة فاروق
انحراف ملكة

عاشت وترعرعت في عصر كان من مقتضياته وسماته قصص العشق والغرام لاسيما غرام السياسيين الكبار بنساء غالباً ما يكن بعمر الأبناء أو أصغر مثل غراميات إسماعيل صدقي والنحاس باشا ومحمد توفيق نسيم الذي كان له من العمر سبعة وستون عاماً وعروسه الجديدة كان عمرها سبعة عشر عاماً. وهذه الأسماء التي مرت تولت منصب رئاسة وزراء مصر وكل واحد منهم لعدة مرات.

أما الملكة نازلي فكانت تجري في عروقها دماء فرنسية تركية مصرية فهي ابنة حفيدة سليمان باشا الفرنساوي القائد الفرنسي الشهير. والذي اعتنق الإسلام وأصبح يدعى الكولونيل "سيف" والذي دخل في خدمة محمد علي: أما الدماء التركية فكانت نتيجة زواج محمد شريف باشا من جلالة الملكة نازلي والتي أنجب منها السيدة(توفيقة) والدة الملكة نازلي، أما الدماء المصرية فقد تدفقت في عروق الملكة نتيجة زواج المصري عبد الرحيم صبري بفتاة من أسرة شريف باشا هي السيدة(توفيقة) والدة الملكة نازلي. وعمل والد الملكة عبد الرحيم باشا صبري محافظاً للمنوفية من **١٩١٣**حتى **١٩١٧**. ثم أصبح محافظاً للقاهرة في عهد السلطان فؤاد وبعد وفاة أخيه السلطان حسين كامل ثم أصبح وزيراً للزراعة قبيل زواج السلطان فؤاد من الآنسة نازلي.

رجال في حياة ملكة مصر

يقال بأن نازلي الملكة ارتبطت بخمسة رجال في وقت واحد وكانت هذه العلاقة هي المحرك الرئيس والحقيقي لكل مجريات الأحداث العلنية والسرية التي عاشتها طوال خمسين عاماً. والغرابة هنا تكمن في أن نازلي حملت فوق رأسها تاج مصر وهؤلاء الرجال وفقاً للترتيب الزمني كانوا:

- سعيد زغلول وهو ابن أخت الزعيم سعد زغلول، وأول حب في حياة نازلي.
- السلطان أحمد فؤاد أول الأزاوج

– الوجيه عمر فتحي كبير ياوران الملك فؤاد وأحد المنافسين الرئيسيين على قلب الملكة.
– أحمد حسنين رئيس الديوان الملكي وهو الزوج الثاني بعد أحمد فؤاد.
–وأخيراً فؤاد غالي الذي عاصر أواخر أيام الملكة وهو زوج ابنة الملكة الأميرة فتحية والتي قتلها بالرصاص في أمريكا.

ويقال بأن نازلي كانت على وشك الزواج من أحد الشبان التي كانت على علاقة حب معه قبل زواجها بالملك أحمد فؤاد. وهي أول سيدة مصرية تدخل البلاط الملكي من خارج أسرة محمد علي.

ويقال إنها في الوقت المحدد لعقد قرانها على السلطان أحمد فؤاد هربت مع شاب كانت تحبه من أقاربها، وبقيت تتنقل معه من مكان إلى آخر في ذلك اليوم إلى أن رأت وذلك الحبيب أن لا فائدة فعادت إلى قصر أبيها في المساء. وعقد القران ويقول أحد المصادر أن الشاب الذي أحبته الملكة كان هو " سعيد زغلول " وهو ابن شقيقة سعد زغلول وليس شقيقه. ويقال أيضاً بأن الشاب الذي أحبته نازلي ليس سعيد زغلول، بل شخص آخر يدعى (شاهين شريف).

وعلى أي حال فقد تم زواج نازلي والسلطان أحمد فؤاد والذي كان من مواليد مارس ١٨٦٨ وهو آخر أبناء الخديوي إسماعيل وأمه كانت تدعى (فريال هانم) وتولى الحكم عام ١٩١٧.

وتزوج لأول مرة وهو أمير عام ١٨٩٥ من الأميرة (شويكار) وانفصل عنها عام ١٨٩٨. وبقي دون زواج حوالي ٢٠ عاماً إلى أن تزوج نازلي عام ١٩١٩ وكان عمره واحداً وخمسين عاماً وفي المقابل كانت نازلي تبلغ من العمر الخامسة والعشرين. فهي من مواليد ١٨٩٤. وظل فؤاد زوجاً لها قرابة سبعة عشر عاماً فقد توفي عام ١٩٣٦.

وكان من عشاق الملكة الياور (عمر فتحي) والذي كان يعمل ضابطاً في حرس السلطان حسين كامل، وبعد فترة وبعد توجيهات من الملكة نازلي تم تعينه ياوراً خاصاً لابنها فاروق عام ١٩٣٧. وفي عام ١٩٣٩ أصبح برتبة لواء، وبعدها تم اختياره كبيراً

للياوران الملكي في عام ١٩٤١. وكانت زوجته من وصيفات الملكة نازلي وقد انفصل عنها عام ١٩٥٣ قبل وفاته بسنتين.

والغريب في حياة نازلي الملكة أنها كانت تعتبر نفسها سجينة القصر لمدة سبعة عشر عاماً هي بنظرها ربيع العمر وسنوات الصبا والشباب. لذلك انطلقت الملكة بعد وفاة السلطان تعوض ما فاتها حسب اعتقادها، فانطلقت بشراهة ونهم تنهل من عيون الحياة، تطفي نار الظمأ الذي أحرقت حشاها السنوات الطوال.

وكثر الهمس حولها وذكرت بعض أسماء لضباط الحرس وموظفي القصر، وتركزت الإشاعات حول اسمين اثنين هما أحمد حسنين والياور عمر فتحي. وكان برتبة مقدم.

وكانت ملكة مصر يومئذٍ تريد أن تلهو بالرجلين وأن تضرب أحدهما بالآخر، وأن تثير الغيرة في صدر هذا ضد ذاك وأن تتلذذ بمشاهدة الغيرة والمنافسة بين رجل الحاشية الوسيم وضابط الحرس الرشيق وأن تعبث وتلهو. فقد كانت تخرج مع أحدهما وتبذل الحيل ليسأل عنها الآخر حتى يقال له إنها خرجت مع فلان لتوقع بينهما.

أما عمر فتحي فلم تكن له مطامع وكان حريصاً أن يكون في حاله وأن يؤدي واجبات منصبه فقط، ومن ثم فقد انسحب باختياره وترك الميدان خالياً أمام أحمد حسنين. وحسنين هذا اعتبره البعض الرجل الأول والأخير في حياة نازلي إذ نجح بمفرده في الفوز بقلبها وعقلها، وتمكن في النهاية من الزواج منها عرفياً، وفي سبيل هذا الزواج طلق زوجته ابنة الأميرة شويكار – الزوجة الأولى للسلطان أحمد فؤاد – ليتمكن من إحكام سيطرته على الملكة ويتفرغ لحياته الخاصة معها. وفي الوقت نفسه ليحتل أرفع المناصب التي كان يحلم بها ويعمل من أجلها حيث وصل فعلاً إلى منصب رئيس الديوان الملكي.

والغريب أن حسنين أكد لبعض خاصته ومقربيه بأن علاقته المميزة مع الملكة لم تكن علاقة حب، بل كانت حرصاً منه على إرضاء نزواتها لأنها ملكة مصر وأم ملك مصر وكانت صاحبة النفوذ الأعلى لدى ابنها فاروق. ورغم أن علاقة نازلي بحسنين قد طوقت الآفاق وبات معروفاً للعامة والخاصة أن هناك علاقة من نوع ما بين حسنين ونازلي إلا أن

زوجته لم تكن تعرف بهذه العلاقة إلا على سبيل الإشاعات، ولكن الإشاعة تأكدت لديها عندما أصرت الملكة نازلي على اصطحاب حسنين معها في رحلتها إلى أوربا، عندئذٍ طلبت الطلاق وحصلت عليه فوراً رغم إنجابه منها العديد من الأبناء.

وكان مما عجل في هذا الزواج تصرف حسنين على المطربة أسمهان وجاء ذلك بعد أن حقق حسنين الكثير من طموحاته جراء علاقته بالملكة نازلي حيث تقلد أرفع المناصب السياسية. ولقد حاول حسنين استغلال علاقته الجديدة بأسمهان ليحقق المزيد من المكاسب العاطفية والغرامية والتقدم خطوات جديدة واسعة ناحية اهتمام الملكة نازلي. وبالفعل كان له ما أراد حيث جعل الملك فاروق نفسه يصدر أوامر لحسنين كي يتزوج من أمه الملكة. وقيل إن هذا الزواج كان عرفياً. وعندما توفيت أسمهان غرقاً في مياه النيل عام **١٩٤٣** اطمأنت الملكة إلى خلو قلب حسنين من سواها.

وحول علاقة الملكة بحسنين لاسيما في فترة الثلاث سنوات التي أعقبت وفاة زوجها السلطان أحمد فؤاد يقول أحد المعاصرين: ((لقد عرف الناس أن هناك شيئاً ما أو علاقة ما بين ملكة مصر نازلي وبين أحمد حسنين باشا وأصبحت هذه العلاقة موضوع حديث في النوادي والمجتمعات والسهرات، أما الخاصة في دوائر القصر وأوساط الأسرة المالكة فكانت تعرف أن نازلي هي التي تحب حسنين وتعرض نفسها عليه وتطلبه زوجاً لها وتقدم له مئات الأفدنة من أراضيها هدية خالصة. أما حسنين فكان يظهر التمنع ويقول إنه يكره الحرام ويخاف الله، وقيل بأن الملك فاروق كان يهرع إلى حسنين لإنقاذ سمعة أمه وسمعة الأسرة المالكة ويطلب منه النجدة في كل مرة كان يخشى فيها أن تخرج أمه الملكة على العرف المألوف ومقامها السامي كأرملة ملك وأم ملك، وكان حسنين يلبي نداء الملك ويسرع إلى نازلي ويفلح في تهدئتها وكبح جماح أعصابها الثائرة)).

ويضيف ذلك الشاهد بأن: ((نازلي صارحت الأمير محمد علي ولي العهد بأنها عرضت نفسها عشيقة على حسنين وأنه رفض. ولكن رفض حسنين لم يكن حسن أخلاق منه أو عن أي وازع آخر وإنما كان يريد زيادة نار غيرة الملكة بتجدد علاقته بأسمهان كلما

فترت، هذا إضافة إلى غزوات نسائية لحسنين وإقامة علاقات غرامية جديدة مع بعض الراقصات والمطربات.

ولما صعب على فاروق بداية أن يصدر فرماناً بزواج أمه من حسنين فقد قررت الملكة العودة من جديد إلى اللهو وسهر الليالي في النوادي الليلية بل ومصاحبة شباب الإنجليز، فسافرت إلى القدس وأمضت أسابيع طويلة في فندق الملك داود وعاشت بأروقته أعنف مغامراتها التي بدأت تتناقلها الألسن وتصل تباعاً إلى القصر.

ولما طالت غيبتها في القدس وعلى إثر وصول أخبار بثها ومجونها إلى قصر عابدين لم يجد الملك فاروق مفراً من اللجوء إلى حسنين باشا طالباً منه إنقاذ سمعة العرش المصري وسمعة الملكة، وطلب منه السفر إلى القدس فوراً واصطحاب الملكة عائداً إلى مصر. لكن حسنين اعتذر عن طلب الملك خوفاً من مقابلته المطربة أسمهان والتي كانت تنزل في نفس الفندق بعد انفصالها عن زوجها الأمير حسن الأطرش. وطلب من الملك أو اقترح عليه أن يقوم سعد زغلول بالمهمة. وفعلاً سافر زعيم حزب الوفد إلى فلسطين وبرفقته زوجته لإحضار الملكة نازلي. وقد نجح في تلك المهمة الخطيرة باستجابة الملكة لرجاء رئيس الوزراء وعادت معه، ولكن مقابل عدة شروط كان أهمها أن يصدر الملك أوامره بأن تتزوج من حسنين، ولم يجد الملك مفراً سوى الموافقة بشرط أن يكون زواجاً عرفياً فقط، ووافقت الملكة وتزوج حسنين من نازلي. وكان أحد شهود هذا الزواج الفنان (سليمان نجيب) مدير دار الأوبرا المصرية في ذلك الوقت فقد كان موضع ثقة حسنين.

وكان الشاهد الثاني مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية. وبعد عقد القران اختارت نازلي سراي الدقي التي ورثتها عن والدها عبد الرحيم صبري باشا لتكون دار الزوجية وذلك خجلاً من ابنها الملك بأن يقابل الزوج الجديد في أحد القصور الملكية وفي مخدع زوجها الأول الملك أحمد فؤاد. ويقال بأن الملك فاروق كان يزور بيت أمه الجديد ودون أن يخطرها بأنه سوف يزورها لا بل كان يدخل من أبواب خلفية. ويقال أيضاً بأن الملك

وعندما توفي حسنين ذهب إلى منزل والدته وبحث في أدراج المكتب وعثر على وثيقة عقد قران الملكة نازلي بأحمد حسنين.

أما نهاية أحمد حسنين وهو ذلك الشخص الذي ما نصب شباكه حول امرأة إلا تعلقت به، مصرية كانت أو عربية أو أجنبية، فقد كانت جاذبيته للنساء غريبة رغم أنه شخص عادي بالنسبة للشكل، فهو أسمر ذا ملامح مصرية ووجه يميل إلى الطول، ولكنه ذا ثقافة اجتماعية عالية جداً، فهو ابن القصور منذ نعومة أظفاره وكان يرافق الملك فاروق أثناء دراسته في لندن شاباً يافعاً وكان له أثر كبير في تكوين شخصيته وهو نفسه خريج جامعة أكسفورد أما نهايته فكانت عام ١٩٤٦ عندما صدمت سيارته التي كان يستقلها سيارة تابعة للجيش البريطاني فوق جسر قصر النيل بالقاهرة. وكان ذلك الحدث قمة المأساة في حياة الملكة نازلي.

أما آخر عشاق الملكة فكان ذلك الشاب المصري الوسيم (رياض غالي) الذي تعرفت عليه عندما قررت أن تهاجر من مصر لآخر مرة وظلت بجواره وظل هو تابعاً لها إلى أن سمحت له بدخول الأسرة المالكة حين ارتضت أن يكون زوجاً لابنتها الصغيرة الأميرة فتحية رغم اختلاف الديانة، والغريب أنها قد سعت بكل ما تملك من نفوذ وأموال حتى ينجح هذا الزواج.

وقد كان العام ١٩٥٠ من الأعوام الحاسمة في مصير تلك العلاقة الجديدة التي نشأت بين الملكة وبين آخر هؤلاء الرجال، حيث شهدت أعنف حرب أعصاب كانت قد اشتعلت بينها وبين الملك فاروق وحاشيته، بل بينها وبين الشعب المصري كله، هذه المعركة دارت رحاها على أرض أجنبية، بعض العواصم الأوربية وبعض ولايات أمريكا، وتمكنت الملكة من حسم الصراع لصالحها ولصالح الرجل الأخير في حياتها (رياض غالي) وأثناء هذه الفترة كانت الملكة تعيش في أمريكا، أما في مصر فقد حُرمت من الألقاب والأموال هي وابنتها فتحية.

ورياض غالي هذا مصري قبطي أبوه يدعى (بشاي غالي) من مدينة أسيوط، كان يعمل مدرساً بمدرسة التوفيقية الثانوية، ورياض ابنه الوحيد وجاءت ولادته في مدينة القـاهرة. ودخل هذا الابن دائرة الضوء مبكراً. فقد بدأ موظفاً بالقنصلية بـالكنغو ثم بالقنصـلية المصرية في باريس، وهناك بدأت علاقته بالملكة نازلي عندما استقبلها أو كُلف باستقبالها في إحدى رحلاتها الخاصة إلى فرنسا حيث نزلت بمدينة مرسيليا المدينة التي كان بها ريـاض غالي ضمن أفراد القنصلية المصرية هناك، وظل غالي مرتبطاً بالملكة وابنتها في الفترة مـن عام ١٩٤٧ إلى ١٩٥٠ عندما ارتبط بابنتها وبعدما ظل يعمل سكرتيراً خاصـاً أثنـاء وجودها – أي الملكة – في أمريكا.

وبالنسبة لعشاق الملكة فقد كان كل منهم يمثل دوراً حيوياً في مرحلة مـن مراحـل حياتها، وقد اختلف هذا الدور باختلاف الوقائع من حيث الزمان والمكان ومـن حيـث الأغراض والأهداف السرية منها والعلنية.

والحقيقة أن الملكة كانت تشعر دائماً بأنها تعيش في سجن السلطان وكانت تتمنى كما يقول المقربون الخلاص منه وتنتظر رحيله، وما أن حانت الساعة المنتظرة حتى أتاها الفرج بنظرها، وأخذت تنتقم من زوجها بعد وفاته، وكان أول ما فعلته نازلي أنها باعت ملابسه الملكية والشخصية والداخلية لباعة الأشياء المستعملة الذين علقوهـا بـدورهم بسـوق (الكانتو) في عرض الطريق. وكانت الخطوة الثانية التخلص من كل رجال الملك ومخدوميه في القصر والذين كانوا على مقربة منه وفي خدمته المباشرة والذين كانت ترى فيهم عيون الملك عليها وعلى كل حركاتها وتصرفاتها.

وبالعودة إلى موضوع رياض غالي وعلاقته بالملكة، فقد ثبت أنها تدخلت بكل قوة من أجل زواج هذا الرجل بابنتها الأميرة فتحية رغم اختلاف الديانة. أمـا دوافـع الملكـة وحماسها لهذا الزواج هل كان دافعه الحقيقي الارتباط به حتى النهاية، أم كان دافعه غـير مرئي ومرتبط بشكل مباشر برغبة الملكة في العيش للمرة الأخيرة مع قصة حب جديدة؟

قررت الملكة الرحيل عن مصر في يوليو تموز ١٩٤٦ وبعد ثلاثة أشهر من رحيل أحمد حسنين، ولم تكن تنوي العودة إلى مصر مرة أخرى، ورحلت ومعها الأميرة فتحية وضد رغبة نجلها الملك فاروق. سافرت إلى فرنسا حيث وصلت إلى مرسيليا وكان في استقبالها رياض غالي وعن هذا الاستقبال يقول أحمد فراج طايع – قنصل مصر في مرسيليا –: ((أخطرت من وزارة الخارجية بوصول الملكة نازلي وكريمتيها فتحية وفائقة إلى مرسيليا على متن باخرة فرنسية، وقبل وصول الباخرة بيوم وصلت مساء الأميرة فايزة قادمة من باريس لاستقبال والدتها. وقد كنت طلبت من رياض غالي أن يرافقني لنقل أمتعة الملكة ومن معها من الميناء إلى الفندق. وبعد قضاء ليلة واحدة في باريس ذهبت الملكة إلى بلدة الاستجمام الفرنسية (شاموني) وبعد قضاء أسبوع في (شاموني) ذهبت الملكة إلى جنيف وكان يرافقها رياض غالي والذي طلب منه قنصل مصر والذي كان وصل جنيف قبل ذلك العودة فوراً إلى مرسيليا، إلا أن الملكة طالبت بأن يبقى معها عدة أيام ورفض القنصل لأن الوزارة لم تأمره بذلك. ولكن بعد أيام قليلة من عودة القنصل إلى مرسيليا إذا بالملكة تتصل به تليفونياً لتقول له إنها تنتدب رياض لخدمتها أثناء وجودها في أوربا. فاعتذر القنصل إلا أن يأتيه أمر من وزارة الخارجية في القاهرة ولم تمضي أيام قليلة حتى أتى أمر الندب من القاهرة.

يقول رياض غالي في حديث لأحد الصحفيين: ((أثناء وجود الملكة في مرسيليا كلفني القنصل بحمل البريد الوارد باسمها إلى الجناح الذي تنزل به، وفي غرفة الاستقبال دعتني الملكة للجلوس، وبعد أن تصفحت البريد أخذت تسألني عن أسرتي وعملي وثقافتي وغير ذلك من أسئلة، ثم أذنت بالانصراف. وما إن عدت إلى دار القنصلية حتى علمت أن الملكة اتصلت بالقنصل ليتخذ الإجراءات اللازمة لانتدابي لمرافقتها إلى الولايات المتحدة)).

وكان للملكة ورياض صفات مشتركة مثل حب المغامرة والترحال وحب الأسفار والجرأة وانعدام الضمير. والحقيقة أنه ومنذ اليوم الأول للقاء رياض غالي بالملكة نازلي

على رصيف ميناء مرسيليا الفرنسي بدأت الأنباء تتردد ليس في أوربا وحدها ولكن في قصر عابدين لا بل والشارع المصري حول علاقة رياض بالملكة، فقد كانت هناك عيون ملكية عديدة تراقب حركات الملكة نازلي وتتابعها وبناتها كظلها أينما ذهبت، وكانت تتم عبر سمع وبصر الملك فاروق نفسه، مما يدل على أنه كان يعلم مسبقاً برغبة والدته في الدخول في علاقة غرامية جديدة وإن لم يكن يتوقع أن تكون مع أحد رعاياه من موظفي الدبلوماسية المصرية. وقد عُثر على عدد من التقارير السرية التي كانت تبعث بها الخارجية المصرية من مختلف المدن الأوربية حيث كانت تنزل الملكة نازلي.

بتاريخ ٢٥ يوليو عام ١٩٤٦ أي بعد أقل من أسبوع من رحيلها من مصر لآخر مرة ورد تقرير من باريس يقول: ((وصلت الملكة نازلي قادمة من نيس ومعها رياض غالي وقد قدمته إلى المستقبلين باعتباره سكرتيرها الخاص)) وعلى الفور وضع الملك فاروق خطاً أحمر تحت كلمة سكرتيرها الخاص. ومن جنيف جاء التقرير الذي أرسل إلى الملك بتاريخ ٢٥ أكتوبر عام ١٩٤٦ ونصه: ((سافرت الملكة نازلي إلى جنوب فرنسا وقد لوحظ أنها سلمت رياض غالي كل أموالها وجعلته المتصرف الأول والأخير فيها. ومن نيس في ٣ نوفمبر ١٩٤٦ ورد أن: ((الملكة شوهدت مع رياض غالي في المعرض وكانت تتحدث معه بغير كلفة، واشترت روائح عطرية مختلفة وكانت تضع بعضها على أنف رياض ليشم الرائحة))، وورد من باريس في ١٧ نوفمبر ١٩٤٦: ((وصلت الملكة نازلي إلى هنا وحجزت غرفة لرياض غالي في فندق (بلانتزا أتينيه) بجوار جناحها)).

وتوالت التقارير على هذا المنوال ترصد تحركات الملكة وعشيقها رياض في كل من باريس ولندن. ومنها تقرير يقول: ((إن الملكة قالت بأنها ستهاجر إلى أمريكا وأنه معروض على رياض غالي مناصب كبيرة في شركات مالية وصناعية في أمريكا وأنه يستطيع أن يكون مليونيراً إذا أراد، ولكنه فضل أن يكون في خدمتها)).

وفي منتصف مايو عام ١٩٤٧ تحرك الركب الملكي المصري الذي كان يضم الملكة نازلي وعشيقها رياض غالي وابنتيها فائقة وفتحية مرة أخرى ولكنه هذه المرة كان إلى

واشنطن كبداية مرحلة جديدة. هذه المرحلة التي شهدت أعنف مراحل حياة الملكة نازلي فقد انتهت بمقتل ابنتها الأميرة فتحية ودخول زوج ابنتها رياض السجن، ثم وفاتها بعد عامين. ثم كان أخطر قرار في حياة الملكة وهو ارتداد الملكة عن الدين الإسلامي واعتناقها المذهب الكاثوليكي. فابتداءً من عام ١٩٧٦ دخلت أخبار الأسرة المالكة دائرة الضوء من جديد على إثر ارتكاب غالي جريمة قتل الأميرة فتحية فقد أوردت وكالات الأنباء وقتها أن الجريمة وقعت في شقة رياض غالي المفروشة والتي كان يقيم بها بعد انفصاله عن الأميرة فتحية منذ عام ١٩٦٥ بعدما اهتزت حالته المادية وإدمانه الخمر والمخدرات. وحاول الانتحار إلا أنه فشل وحكم عليه بالسجن (١٥) عاماً، ولكنه توفي قبل إكمال مدة السجن وتم دفنه مع الأميرة فتحية في إحدى الكنائس الكبرى.

أما الملكة نازلي فقد رحلت عام ١٩٧٨ وكان عمرها ٨٣ عاماً، ودفنت كذلك في الولايات المتحدة الأمريكية بعد مراسم دفن أقيمت في إحدى كنائس ولاية لوس أنجلوس.

قصة أول عربي تطأ
قدماه أرض أمريكا

هذه قصة أول عربي تطأ قدماه أرض القارة الأمريكية أو العالم الجديد، إنها حكاية أظن أن كل عربي بشوق لمعرفتها والوقوف على أسرارها ومجرياتها، لاسيما وأن هجرات العرب تتالت بعد ذلك إلى تلك البلاد البعيدة ليصبحوا مكوناً رئيساً من مكونات شعوب ذلك العالم الجديد. وسوف نعرض هنا تعريفاً بصاحب الرحلة، ثم عرضاً لأحداثها.

المعلومات المتوافرة عن صاحب هذه الرحلة شحيحة للغاية حسبما كتب محرر الرحلة، لكن أهم ما فيها أنه قسيس كاثوليكي من أصل كلداني، وأنه من عائلة البطاركة. كانت لهم صلات وثيقة بالفاتيكان والبابوية، ويبدو مما سجله هو بنفسه عن الرحلة أنه كان صاحب حظوة لدى البابوية من ناحية، ولدى السلطات الإسبانية والفرنسية في إسبانيا وفرنسا، والسلطات الاستعمارية في أمريكا الجنوبية من ناحية أخرى، فضلاً عن ديوان التفتيش الكاثوليكي الإسباني في صورته التي عُرف بها في المستعمرات الإسبانية، وتتضح هذه الحقيقة من خلال الألقاب التي أسبغتها عليه البابوية، والحفاوة التي قوبل بها من السلطات في كل مكان زاره أثناء رحلته التي استمرت ستاً وعشرين سنة.

وقد بدأت الرحلة من بغداد سنة ١٦٦٨م صوب دمشق ومنها اتجه إلى بيت المقدس حيث وصلها في نهار عيد القيامة. وقد تعرض لهجوم اللصوص وقطاع الطرق، ولكن الأسلحة النارية التي كانت معه ومع الطوبجي باشا – أي قائد المدفعية العثمانية في الشام وحلب وبغداد – ميخائيل أغا، رفيقه في هذا الجزء من الرحلة، جعلتهم ينتصرون على اللصوص، ويواصلون سيرهم إلى دمشق ثم القدس الشريف. واتجه هو إلى حلب ثم ميناء الإسكندرونة حيث استقل مركباً إنجليزياً إلى قبرص، ثم وصل البندقية بعد سبعين يوماً من مغادرة الإسكندرونة. وهناك تم حجزهم في الحجر الصحي خارج المدينة على مدى واحد وأربعين يوماً.

ومن هناك اتجه إلى روما حيث مكث ستة أشهر ومن هناك سافر إلى فرنسا. ثم تجـول في فرنسا ووصل إلى أفنيون التي كانت ملكاً للبابوية منذ العصور الوسطى حينما أهداها ملوك فرنسا إلى البابوية حتى استردها الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ (أي بعد زيارة إلياس الموصلي بعشرين عاماً). وفي باريس زار الملك لويس الرابع عشر الذي أكرمه هو وأخوه أمير أورليانز، وقد امتدح باريس كثيراً: ((. . . التي لا مثيل لها في كل الـدنيا، بحسـنها وعدالة حكمها واستقامة شرعها. . .)).

ويلفت النظر هنا أن الثورة الفرنسية التي اندلعت بعد عشرين سنة من زيارته كانـت ثورة ضد ظلم الملكية والإقطاع المتحالفين مع الكنيسة وهو ما يلقي ظلالاً مـن الشـك حول أحكام القسيس الأرستقراطي!!.

على أي حال، بقي إلياس في باريس ثمانية أشهر بناء على طلب سفير السلطان العثماني محمد الرابع إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، وبعدها توجه إلى إسبانيا حتى وصل إلى مدريد العاصمة حيث كانت الوصية الملكة آن النمساوية لأن الملك ارلوس الثاني كـان قاصراً. وأمرت بأن يصرف له مبلغ من المال من حاكم صقلية ومثله من حاكم نـابولي، ولكنه لم يحصل على هذه الأموال مما جعله يكرس معظم حديثه في رحلته في إيطاليا عـن فشله في الحصول على المال، وسوف نرى أن المال كان يشغل حيزاً مهماً من تفكير هذا القسيس. وقد رجع مرة أخرى إلى إسبانيا ((خائب الرجاء)) على حد تعبيره. وذهب إلى البرتغال ليحدثنا عن النصارى الجدد: ((. . . وهم من ملة اليهـود المتنصـرين وهـم معلومون عند الكل، وما يتزوجوا من النصارى القدماء. والبعض منهم بالحقيقة نـاكرو دين المسيح. فلما يتحققون أمرهم أنهم كذلك، يحكم عليهم ديـوان الإيمـان (محـاكم التفتيش) بالحريق...)).

هذه إشارة واضحة إلى أن فظائع محاكم التفتيش الكاثوليكية كانت لا تزال موجـودة ومستعرة في شبه الجزيرة الأيبيرية، ويتحدث الرجل عنها ببرود شديد لاعتبارهـا أمـراً طبيعياً. كان هذا هو الجزء الأول من الرحلة الذي قضاه في أوربا، وقد انتهى بأن حصل

من الملكة الوصية على عرش إسبانيا على تصريح بالسفر إلى ((بلاد هنــد الغــرب)) أي أمريكا (ولم يكن ممكناً لأحد أن يسافر إلى تلك الأرجاء سوى بإذن من التــاج كمــا أن السفن الإسبانية لم تكن تنقل بشراً أو بضائع غير إسبانية إلا بموجب تصريح مثل هــذا). ومن ميناء قادش غادر إلى أمريكا يوم ١٢ فبراير ١٦٧٥، بعد أن أمضى في أوربا ســبع سنوات، محملاً بلوازم السفر والتوصيات والأوامر الملكية لتسهيل رحلته. وخُصصت له قمرة في مركب القيادة (وهو ما يشير إلى احتمال أنه كان مكلفاً بمهمة لصالح البابوية أو الملكية الإسبانية، أو لصالحهما معاً). وقد أمدنا بمعلومات مهمة عن الرحلة البحرية مــن إسبانيا إلى بيرو في أمريكا الجنوبية، فقد كانت المراكب تسافر مرة واحدة كــل ثــلاث سنوات ((. . . لكي يحضروا من هناك خزانة الملك. وأيضاً التجار يوسقون الغلايين مــن كل أجناس البضايع ويبيعوها في تلك البلاد، ولا يدعون إنســاناً غريبــاً عــن الجــنس السبنيولي يرافقهم لا تاجراً ولا كاهناً، إن لم يكن معه أمر من الملك. . .)).

وقد صادفت مركب إلياس الموصلي ((مركباً إنجليزياً موسوقاً مــن العبيــد الســود عددهم سبعمائة نفس، قد جاءوا بهم من بلاد برازيل من حكم البرتغال حتى يبيعــوهم في بعض جزائر الهند. . .)) وهذه إشارة إلى خاصية أخرى من خصائص تلك الفترة الــتي ازدهرت فيها تجارة الرقيق ولعب الإنجليز دوراً مهماً فيها.

وعند شواطئ كراكاس تحدث عن جزيرة مرجريتا وذكر أسطورة دينية يُعتــاد علــى مثلها في كتابات رجال الدين. وذكر ما يشير إلى وجود نوع من حرب العصابات ضــد الحكم الإسباني في بيرو، كما تحدث عن جزيرة السلاحف، وأشار إلى استيلاء الإســبان على مركب فرنسية تحمل سلاحف مملحة بسبب حالة الحرب التي كانت قائمة بين إسبانيا وفرنسا آنذاك. وعندما رست بــهم السفن في أرض بيرو، كان أهم ما لفت نظره ثــراء أهل المدينة، ديانتهم الكاثوليكية، وكثرة الكنائس والقسوس وأديرة الرهبان والراهبات. وتحدث عن عمليات البيع والشراء التي كانت تستمر أربعين يوماً بين الإسبان والسكان الأصليين. وتحدث عن انتقام الفرنسيين من الإسبان بسبب المركب الذي استولوا عليــه.

بيد أن أهم شيء هو الأموال التي تمت جبايتها للتاج الإسباني وشاهدها صاحب الرحلة ((فرأيت شيئاً لا يُحصى من الفضة والذهب)).

وقد وصف الرجل النباتات والحيوانات والحشرات التي صادفها من تلك البلاد الجديدة بقدر غير قليل من المبالغة، كما حدثنا عن حيل السكان المحليين لصيد التماسيح الأمريكية (**Caiman**) التي عاشت في بيرو. وتحدث عن طيور الببغاء الناطقة ذات الألوان الزاهية وجبال كاتوكاكسي التي توجد بها بعض البراكين. لا يخلو كلامه من الأحاديث المعتادة لدى القساوسة عن الرؤى الإعجازية والقصص الأسطورية التي يزعم أنها حدثت، وأن أبطالها من رموز الديانة المسيحية. كما أنه تحدث بإسهاب عن رحلته البرية في أمريكا الجنوبية. وذكر القصص الرائجة عن استخراج الذهب كما تحدث عن العلاقات بين السكان الأصليين (الذين يسميهم الهنود) والإسبان الذين يسميهم (السبنيولية).

وتحدث عن استخراج الذهب ورغبته في الذهاب إلى أماكن استخراجه ولكن البعض أشار عليه بعدم الذهاب لصعوبة الطريق فاكتفى بالشراء من ذلك الذهب في بلدة كيتو، ووصف بعض النباتات في تلك الأرجاء ثم خرج من ليما في بيرو، قاصداً جبال الفضة والذهب، ووصف عملية استخراج الزئبق، وتحدث عن اقتصاديات استخراج الزئبق وفرق الحساب لصالح الملك. وكان نصيبه من هذه الزيارة مقدار خمسين قنطاراً من الزئبق، فترك هناك وكيلاً ليستلم منهم الزئبق، كما حدثنا عن صناعة الحجارة من ماء أسمر يتجمد فيصير حجارة.

ونزل في دير اليسوعية الذي كان رئيسه غنياً لأنه كان قبل ذلك رئيس ديوان الإيمان (محاكم التفتيش) فأهداه (جنزير ذهب). ثم تحدث عن استخراج الفضة وشاهد عملية سبك الفضة عقوداً مختومة بخاتم الملك. وتحدث عن القتال بين السكان الأصليين والإسبان. بعد ذلك تحدث عن رحلته إلى المكسيك التي يذكرها باسم بلاد ينكي دينا أي الدنيا الجديدة، وذكر أشجار الكاكاو وتحدث عن شراء القرمز ثم عاد إلى أوربا حيث وصل إلى ميناء قادش الإسباني وقدم هدية فاخرة إلى البابا إنوسنت الحادي عشر الذي أنعم عليه بوظائف جليلة.

دور العسكر في الحياة السياسية العربية المعاصرة
الثورات والانقلابات

منذ أواخر ما سمي بالعصر العباسي الأول حوالي عام ٤٠٠هـ برزت القوى العسكرية كمحرك أساسي لمجريات الأمور في العالم الإسلامي، لاسيما بعد دخول العنصر التركي إلى ساحة العمل العربي حينما جلب الخليفة العباسي المعتصم أعداداً كبيرة من الجند التركي وبنى لهم مدينة سامراء ليكونوا عوناً له وحماة ضد أي عدو يتهدده سواء أكان داخلياً أم خارجياً. ولم تمضِ سنوات قلائل حتى سيطر هؤلاء الجند على مقدرات الدولة، وأصبحت لهم الكلمة الأولى، لاسيما حينما تولى منصب الخلافة العباسية خلفاء ضعاف أصبحوا ألعوبة بيد هؤلاء القادة.

وحينما بدأ جسم الدولة بالتحلل إلى دويلات وأتابكيات صغيرة كان الحكم في هذه الدويلات للعسكر فهو الفئة الأقوى وهم حماة هذه الدويلات. وزاد من نفوذ هؤلاء قدوم الحملات الصليبية والحروب التي اشتعلت معها على أرض المسلمين، ثم الحملات المغولية ومقاومتها، لاسيما من قبل المماليك. وأخيراً قدوم العثمانيين واعتمادهم على العسكر سواء في الفتوحات أو تأمين ما تمت السيطرة عليه من الأراضي سواء في البلقان أو الوطن العربي. هذا وقد استمر الحكم العثماني في الوطن العربي أربعة قرون بالتمام والكمال، وقد كان لنظام الحكم العثماني أساليب ومميزات عُرف بها، فقد كرس وشجع نوعاً من الحكم الإقطاعي وحكم العائلات الكبيرة وزعماء الطوائف ورجال الدين إلى جانب الحاكم العسكري لكل ولاية ومن يتبعه من رجالاته الأقل رتبة منه.

هذا وقد امتازت الفترات الأخيرة من الحكم العثماني بشكل خاص بالتخلف والفقر وسيادة الجهل والأمية لأكثر من ٩٩% من رعايا الدولة ومنهم العرب، وعند انهيار الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى ودخول دول الحلفاء لاسيما بريطانيا وفرنسا واحتلالها للأرض العربية نراها وقد أبقت أمور المجتمعات العربية بتركيبتها القديمة فهم

أكثر من يتعاون معها لحفظ مصالحهم وامتيازاتهم، وإن كانت هذه الدول الغربية افتتحت مدارس متنوعة وأرسلت أبناء بعض العائلات للدراسة في جامعاتها لتأمين التعاون معها.

أما حكم الإقطاع ورأس المال فبقي على حاله، إضافة لنفوذ أبناء العائلات والعشائر التي يهمها الحفاظ على مصالحها. وبعد مضي سنوات قليلة وإنشاء الجيوش العربية الحديثة أو شبه الحديثة وازدياد أعداد المتعلمين في الوطن العربي والذين تنبهوا للأطماع والمخططات الاستعمارية على الأرض العربية، وأخذوا يطمحون للتحديث في كل المجالات وضرورة تغيير الواقع المتخلف والمتردي، لم يكن هنالك وسيلة للتغيير لاسيما بعد حصول بعض الأقطار العربية على الاستقلال إلا الجيوش فالتغيير المنشود لا يمكن أن يتم إلا بواسطتها.

وعليه فقد بدأت هذه الجيوش بالتحرك والعمل نحو التغيير. وكان ما سمي بانقلاب بكر صدقي في العراق عام ١٩٣٦هو البداية، وهذا الانقلاب لم يكن بالشكل الذي عرفته الانقلابات اللاحقة فلم يكن هدفه تغيير نظام الحكم الملكي في العراق وإنما كان ضد رئيس الوزراء ياسين الهاشمي آنذاك وكذلك كانت حركة رشيد عالي الكيلاني في آذار مارس ١٩٤٢ والتي بدلت الوصي عبد الإله بالشريف شرف كما مر في موضوع آخر من هذا الكتاب.

أما الانقلاب الأول بمعنى تغيير الحكم كلياً وتولي السلطة فقد قام به الزعيم حسني الزعيم في سوريا يوم الأربعاء ٣٠ آذار (مارس) ١٩٤٩ فأسقط به رئيس الجمهورية آنذاك شكري القوتلي ورئيس حكومته خالد العظم.

أما البلاغ رقم واحد للانقلاب فهذا نصه:

" مدفوعين بغيرتنا الوطنية، ومتألمين مما آل إليه وضع البلد من جراء افتراءات وتعسف ممن يدعون أنهم حكامنا المخلصون، لجأنا مضطرين إلى تسلم زمام الحكم مؤقتاً في البلاد التي نحرص على المحافظة على استقلالها كل الحرص وسنقوم بكل ما يترتب علينا نحو وطننا العزيز، غير طامحين إلى استلام الحكم، بل القصد من عملنا هو تهيئة حكم ديمقراطي

صحيح يحل محل الحكم الحالي المزيف. وإننا لنرجو من الشعب الكريم أن يلجأ إلى الهدوء والسكينة، مقدماً لنا كل المعونة والمساعدة للسماح لنا بإتمام مهمتنا التحريرية، وإن كـــل محاولة تخل بالأمن ويمكن أن تظهر من بعض العناصر الهدامة الاستعمارية تقمع فوراً دون شفقة أو رحمة ".

القيادة العامة للجيش والقوات المسلحة

٣٠ آذار ١٩٤٩

وكانت طريقة الانقلاب هادئة جداً، حيث توجهت قوة من الشرطة العسكرية إلى قصر الرئاسة وقرأت على رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي أمراً موقعـــاً مـــن رئـــيس الأركان حسني الزعيم جاء فيه، إن الجيش قد تسلم مؤقتاً مقاليد الأمـــور وعليـــه فـــإن الرئيس القوتلي بدأ من تلك اللحظة في حكم المعتقل ويبدو أنه وبسبب المفاجأة أحـــس بالألم في المعدة مما جعلهم ينقلوه فوراً إلى المستشفى العسكري للعلاج. كذلك تم اعتقال رئيس الوزراء خالد العظم ومحافظ دمشق ومدير الشرطة. وقد قيل الكثير حـــول هـــذا الانقلاب وأنه كان وراءه قوى محلية وعربية ودولية. وإن كان حســـني الـــزعيم هـــو المستفيد الأول من الانقلاب، وإن كان كلفه حياته بعد أشهر قليلة. فمن هـــو حســـني الزعيم:

إنه من مواليد مدينة حلب عام ١٨٨٩، كان والده مفتياً لـــدى الجـــيش العثمـــاني، ووالدته كردية، تطوع في الجيش العثماني ودرس في تركيا، وقد اعتقله الانجليـــز أثنـــاء الحرب الأولى، بعدها تطوع في الجيش الفيصلي الذي دخل إلى دمشق وحارب العثمانيين، وفي عهد الانتداب الفرنسي تطوع أيضاً في الجيش الفرنسي وتابع علومه العســـكرية في باريس وعند وصول قوات فيشي إلى سوريا، انقلب على الديغوليين وحـــارب ضـــدهم. وفي عام ١٩٤١ اعتقله الديغوليون وأرسلوه إلى سجن الرمل في بيروت وبقي في السجن حتى ١٧ آب ١٩٤٣ حيث أخرج منه وسرح من الجيش برتبة عقيد.

ومنذ عام ١٩٤٥ أخذ يتردد على السياسيين وأعضاء مجلس النواب بهدف التوسط في إعادته إلى الجيش حيث تم تعيينه رئيسا للمحكمة العسكرية في دير الـزور، ثم نُقـل إلى دمشق كمدير لقوى الأمن.

وفي أيلول ١٩٤٨ أصدر رئيس الجمهورية شكري القوتلي قراراً بترفيعه إلى رتبة زعيم (عميد) وتعيينه قائداً عاماً للجيش.

ويقال عن الزعيم أنه كان منذ طفولته تواقاً للسلطة حيث يروى عنه أنه قال " ليتـني أحكم سوريا يوماً واحداً ثم أقتل من بعده " وقد عرف عنه معاقرته للخمر وجلوسه على موائد القمار، إضافة لكونه محباً للظهور بطريقة مسرحية ملفتة للنظـر، وكـان مصـاباً بالسكري مما جعله عصبي المزاج وكثير التهور إضافة لحب التسلط والكبرياء والغـرور. وقد اشترى من باريس عصا الماريشالية الخاصة به بمبلغ خمسة آلاف دولار.

ويقال بأن أكرم الحوراني هو الذي خطط لانقلاب الزعيم وكتب له البيانات المختلفـة التي صدرت عنه.

وبعد الانقلاب أعلن عن انتخاب مجلس نيابي جديد وحكومـة ائتلافيـة ديمقراطيـة ستشكل. وتم الإفراج عن العديد من السياسيين السابقين، ثم أفرج عن خالـد العظـم. وعين المقدم أديب الشيشكلي مديراً عاماً للشرطة والأمن العام والنائب أكرم الحـوراني مستشاراً لوزارة الدفاع الوطني. ثم شكل الزعيم الوزارة بنفسه حين تسـلم الرئاسـة ووزارتي الداخلية والدفاع، وكان من أعضاء الوزارة خليل مردم وعادل أرسلان ونوري الأيبش.

ثم أعقب ذلك باستفتاء لرئاسة الجمهورية كان هو مرشحه الوحيد حيث فاز بالأغلبية الساحقة مما دفعه للمزيد من الغرور والعظمة وأخذ يتصرف كأحد القياصرة ممـا جعـل الشعب ينفر منه تدريجياً.

وعندما أصبح الزعيم رئيساً للجمهورية كان رئيس وزرائه محسن البرازي وهو شخصية من عائلة إقطاعية معروفة في مدينة حماة، وكان يحمل درجة الدكتوراة في القانون من جامعة باريس.

ولكن الزعيم ونظراً لتصرفاته فإنه فقد معظم شعبيته والمتعاطفين معه فسياسته الموالية للغرب أثارت عليه الفئة المحايدة، ومحاولاته الإصلاحية العلمانية أثارت عليه رجال الدين، وموالاته أو ارتباطه بمصر الملك فاروق أثارت عليه الفئات الوحدوية الموالية للهاشميين، ومحاولاته لإصلاح الجهاز المالي الحكومي والزراعي أوقع الرعب في قلوب الطبقات الإقطاعية والتجارية. أما سائر طبقات الشعب فإنها لم تلمس أي تغيير يذكر في حياتها.

ولكن قبل الحديث عن الانقلاب الثاني نود أن نُمتع القارىء الكريم ببعض نوادر الزعيم وتناقضات شخصيته. فقد لفتت العالم الصور الأولى للزعيم حسني الزعيم في الصحف والمجلات غداة الانقلاب وهو يضع " المونوكل" وهي تلك العدسة الواحدة التي توضع على إحدى العينين.

وفي هذا المظهر الجديد عليه، يبدو مقطباً شديد العبوس مقلداً يذلك الجنرالات البروسيين. وقد انتقده بعض المقربين إليه لظهوره بهذا المظهر حيث اختفت هذه الصور في اليوم التالي ولكن الرغبة في مظاهر الأبهة لم تفارق الزعيم وظل مأخوذاً بها. فقد نشرت عنه صحيفة "ألف باء " لصاحبها نزير فنصة وهو عديل الزعيم الخبر التالي:" يتشوق الكثيرون من الذين يودون أن يطلعوا على دقائق الأمور أن يعلموا ما هو الرداء الذي ارتداه حضرة صاحب الفخامة المشير حسني الزعيم المعظم لمناسبة انتخابه بالإجماع الشعبي العام لرئاسة الجمهورية ولمناسبة تقبله التهاني من وفود المهنئين الرسميين وغير الرسميين، وأضافت "فقد ارتدى فخامته يوم أمس الأول منذ الصباح رداءاً مدنياً هو(البونجور) عندما انتقل من السرايا إلى القصر الجمهوري في ذلك الموكب بل المهرجان العظيم الذي يرتد عنه الطرف، وبه استقبل المهنئين وفق البرنامج الرسمي. أما يوم أمس

صباحاً فقد استقبل وفود المدن السورية ببزة بيضاء مدنية، وارتدى بعد الظهر عندما استقبل البعثة الملكية المصرية برئاسة عمر فتحي باشا البزة الرسمية (الغرال) وسيرتدي فخامته صباح اليوم بزة المشير، وهي أول بزة لهذه الرتبة يرتديها بوصفه القائد الأعلى للجيش الباسل ".

وقد أسر بعض أصحاب صاحب الجريدة عديل الزعيم نزير فنصة قائلين له "أهذا قائد انقلاب ورئيس دولة أم مانيكان ؟".

كان الزعيم معجباً بشخصية مصطفى كمال أتاتورك ويريد أن يقلده في بعض أعماله في تركيا فقد كان يرفض مثلاً لبس الطربوش كما كانت عادة معظم رجال الحكم في سوريا، وكان عازماً على توحيد اللباس في سوريا وإلغاء الطربوش نهائياً. وقد أمر الشرطة في أحد الأيام بمعاقبة كل من يظهر في الشارع مرتدياً (البيجاما).

وفي أحد الأيام قال له عديله الصحفي " كان دخلي من الصحيفة يعادل خمسة آلاف ليرة بالشهر، أما الآن وأنا أعمل كسكرتير خاص لك في رئاسة الجمهورية فإن راتبي ثمانمائة ليرة فقط، فقال له الزعيم، سأجعلك مليونيراً بالحلال، استغرب الصحفي فتابع الزعيم اذهب إلى بيروت وأوصي لدى بعض تجارها استيراد مليوني برنيطة فهو يريد أن يجبر السوريين على اعتمادها بدلاً من الطربوش. . . ولو ربحت نصف ليرة من ثمن كل برنيطة كعمولة، أصبحت مليونيراً ". هذه بعض نوادر حسني الزعيم وهي قليل من كثير مما جرى في عهده الذي استمر ١٣٧يوماً.

كانت كل هذه العوامل والظروف التي سبقت وغيرها مساعدة لظهور مغامراً آخر جديد يضرب ضربته فكان ذلك المغامر هو سامي الحناوي صديق الزعيم وابن مدينته.

والذي وجه ضربته مثل سلفه حوالي الساعة الثالثة فجر ليل الرابع عشر من آب ١٩٤٩، حيث وصلت وحدة صغيرة من السيارات إلى دمشق وتوزعت لثلاث فصائل حيث توجهت الفصيلة الأولى إلى مسكن الزعيم وكانت بقيادة الحناوي نفسه واقتحمت

المترل وفي رواية أنها قتلته في مترله وفي رواية أنه ورئيس وزرائه محسن البرازي اقتيدا إلى طريق المزة وهناك أعدما رمياً بالرصاص.

وفي العاشرة صباحاً أذاع الحناوي بيانه الأول من إذاعة دمشق والذي جاء فيه " إنني لكي تمنح سورية فرصة الحياة بلداً حراً مستقلاً، أعهد بالحكومة إلى زعماء البلاد". ثم تلا ذلك عدداً من البلاغات العسكرية التي اتهمت حسني الزعيم بتبديد ثروة البلاد، وانتهاك حرمة قوانينها وحرية أبنائها، وأن حكمه كان ضرباً من الفوضى والتعسف. وأضاف أن الجيش أنقذ الأمة من حكم الطاغية وأنه سوف يعود إلى ثكناته. وفي مساء الخامس عشر من آب قام الحناوي بتسليم السلطة رسمياً لهاشم الأتاسي الذي أذاع فوراً تشكيل وزارته بينما أعلن الحناوي عن انتهاء مهمته الوطنية وأنه سيعود إلى الجيش.

ويروى عن شخصية الحناوي أنه كان شخصية مناقضة تماماً لشخصية الزعيم فهو لا طموح له وكان قائداً للجبهة في عهد الزعيم وصديقاً له والزعيم هو الذي رفعه لرتبة زعيم أو عميد ويبدو أن هناك من كان يدفعه لذلك الانقلاب حيث تشير الأصابع إلى أكرم الحوراني الذي لم يجد بالزعيم ضالته المنشودة وكانت وزارة هاشم الأتاسي تضم أسماء سورية بارزة مثل ناظم القدسي وأكرم الحوراني وميشيل عفلق ورشيد الكيخيا وسامي كبارة وغيرهم. وقد عملت الوزارة على وضع دستور جديد للبلاد. استقالت بعده حكومة الأتاسي وكلف ناظم القدسي بتشكيل حكومة جديدة استمرت يومين اثنين وبعدها تم تكليف معروف الدواليبي لكنه فشل، فتم تكليف خالد العظم لكن القدر كان وكان الانقلاب هذه المرة بقيادة أديب الشيشكلي المولود في حماة من عائلة معروفة، وكان شارك في انقلاب حسني الزعيم ثم في انقلاب الحناوي مما أكسبه الخبرة ليقوم بدوره بالانقلاب الثالث وليصبح الشخصية الأولى في سوريا لمدة خمسة أعوام تقريباً تقلد أثناءها منصب رئيس الجمهورية، أما سامي الحناوي والذي حدث الانقلاب عليه بعد أربعة أشهر من انقلابه فقد غادر إلى بيروت حيث اغتيل هناك على يد شاب من أسرة البرازي ثأراً لمقتل محسن البرازي رئيس وزراء حسني الزعيم.

وإثر الانقلاب اجتمع الضباط وقرروا تكليف خالد العظم بتشكيل الحكومة والتي استمرت في الحكم حتى ٢٩ أيار ١٩٥٠، وتم تكليف الدكتور ناظم القدسي بتشكيل وزارة جديدة. وفي ٢٧ أيلول من نفس العام انتخب هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية بينما احتفظ القدسي برئاسة الوزارة. وفي ٣ آذار ١٩٥١ استقال القدسي ليخلفه خالد العظم. وفي هذه الأثناء أصبح العقيد الشيشكلي رئيساً للأركان وليصبح الحاكم بأمره في سوريا فاستقال العظم وشكل الوزارة معروف الدواليبي والذي احتفظ لنفسه بوزارة الدفاع. وهنا أحس الشيشكلي بالإهانة فقام بعد (١٢) ساعة من تشكيل الوزارة الجديدة باعتقال أعضائها وقام صبيحة اليوم التالي بالانقلاب الرابع والذي تولى فيه الشيشكلي مهام رئيس الدولة، وتم حل البرلمان، وعين فوزي سلو رئيساً للدولة إسمياً وليمارس السلطة الفعلية من خلاله. فقد أخذ يمارس دوراً جماهيرياً بإلقاء الخطب التي يظهر نفسه بها كبطل قومي ومنقذ للفلاحين وعاملاً على تحرير فلسطين، وقد شكل حزباً جديداً باسم ((حركة التحرير العربي)) واستطاع تغييب معظم السياسيين، ثم أجرى انتخابات نيابية جديدة في العاشر من تموز ١٩٥٣ كان حزبه الفائز الأول بها وأصبح بعد ذلك رئيساً للجمهورية. حيث انفرد بالسلطة وزج بمعارضيه في السجون. فزادت المقاومة لحكمه وحدث عصيان في جبل العرب تم القضاء عليه بالقوة. وتنادى السياسيون والأحزاب والهيئات العامة لعقد اجتماع في حمص لإقرار ميثاق وطني ووجهوا إنذاراً للشيشكلي ليعيد الأوضاع الدستورية للبلاد ويفرج عن المعتقلين السياسيين ويوقف حرب الجبل، وكانت هذه الجبهة بقيادة هاشم الأتاسي، ولكن الشيشكلي رد على الإنذار باعتقال كل من وقعت يده عليه فزادت الاضطرابات والمظاهرات والتي قُمعت بالقوة.

وفي صباح الخميس ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٤ أعلنت إذاعة حلب عن قيام تمرد عسكري بقيادة النقيب مصطفى حمدون وهو ضابط من مدينة حماة مدينة الشيشكلي وطلب به من قطعات الجيش الانضمام لحركته والتي قال إن هدفها إسقاط حكم الشيشكلي وتسليم البلاد لحكومة دستورية. وانضمت قطعات مختلفة للتمرد مما حدا

بالشيشكلي وحقناً للدماء بالاستقالة ومغادرة البلاد. حيث ذهب إلى السعودية وأقام بها فترة. ثم غادرها إلى البرازيل. وقيل إنه عاد إلى دمشق متخفياً عام ١٩٥٧ واتصل ببعض أنصاره محاولاً العودة إلى السلطة ولكنه فشل وعاد إلى البرازيل وعاش في مزرعته وكان يلتقي العديد من أبناء الجاليات العربية هناك ويقضي معهم أوقاتاً في لعب الورق وإقامة السهرات العربية. إلى أن اغتاله شاب درزي عام ١٩٦٤ حينما علم نيته العودة إلى سوريا.

وبعد الانقلاب على الشيشكلي أسندت رئاسة الجمهورية إلى هاشم الأتاسي الذي كلف بدوره صبري العسلي بتشكيل الحكومة. ثم كان عهد الوحدة عام ١٩٥٨ بين مصر وسوريا ثم انقلاب الانفصال في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ وهو ما خصصنا له حديثاً مستقلاً.

وأخيراً كان انقلاب ٨ آذار ١٩٦٣ بقيادة زياد الحريري ومحمد الصوفي وراشد قطيني وثلاثتهم كانوا مترددين فلا هم بعثيون ولا هم ناصريون. وهنا استغل الضباط البعثيون الفرصة وأخذوا بإقصاء الضباط الناصريين والإسلاميين وغيرهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على السلطة بالكامل وأصبح الفريق أمين الحافظ الشخصية الأولى في سوريا وإن كان هناك من هو أقوى منه ويعمل من خلفه لغايات أخرى. فقد تم التخلص من لؤي الأتاسي رئيس مجلس قيادة الثورة ثم زياد الحريري والصوفي وقطيني. وفي ١٧ تموز ١٩٦٣ قام نفر من الضباط الناصريين بقيادة جاسم علوان بمحاولة انقلاب لإعادة الوحدة مع مصر. ولكن هذه الجماعة كانت مخترقة من قبل نقيب يدعى محمد نبهان وفشلت الحركة وتم إعدام (١٧) فرداً من القائمين بها، كان على رأسهم العقيد هشام شبيب قائد سلاح الإشارة والذي استطاع أن ينشئ إذاعة محلية بأحد معسكرات الجيش أخذت تذيع باسم الجمهورية العربية المتحدة. أما قائد المحاولة جاسم علوان فقد قُدم للمحكمة وحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظراً لوضعه العشائري في منطقة دير الزور، ثم أطلق سراحه بعد فترة.

وكما أسلفنا تولى الحكم في سوريا أمين الحافظ ومعه ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار ورفاقهم ممن أطلق عليهم القيادة القومية لحزب البعث. ولكن لم تمضِ فترة طويلة

حتى احتدم الصراع بين أجنحة الحزب المختلفة، إلى أن كانت حركة **٢٣** شباط **١٩٦٦** حيث أقصي أمين الحافظ وجماعته وزج بهم في سجن المزة وبقوا قابعين خلف أسـوارِه إلى أن قامت حرب حزيران **١٩٦٧** فأخرجوا من السجن وألقي بهم على الحدود اللبنانيـة، وبقوا في بيروت إلى أن تولى حزب البعث السلطة في العراق فانتقلوا إلى بغـداد وظلـوا يعيشون هناك حتى الغزو الأمريكي للعراق فقد خرجوا إلى أماكن مختلفة بعد أن رفضـت السلطات السورية السماح لهم بالعودة إلى سوريا، ثم قيل إن أمين الحافظ فقط والذي بلغ أواخر الثمانينات من عمره سُمح له بالعودة إلى سوريا، أما عفلق فكان توفي قبل سنوات ودفن في بغداد. وكذلك توفي أمين الحافظ في مسقط رأسه حلب قبل أشهر.

في سوريا وكما أسلفنا تولى السلطة جماعة القيادة القطرية بزعامة صلاح جديد الذي كـان رجل سوريا القوي في تلك الفترة، وتم تعيين د. نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة ويوسف زعين رئيساً للوزراء، أما صلاح جديد فكان الأمين العام المساعد للحزب، ولكنـه كـان صـاحب الكلمة الأولى في البلاد. أما حافظ الأسد فقد أصبح وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للقوات الجوية. وفي فترة حكم هؤلاء نشبت حرب **١٩٦٧** وما نتج عنها من احتلال الجولان مع أراضٍ عربية أخرى، ثم أحداث أيلول في الأردن مما أدى لاستئناف الصراع من جديد، وكان هذه المرة بـين صلاح جديد وحافظ الأسد وقد حُسم الصراع لصالح الأسد في **١٣** تشرين الثاني **١٩٧٠**. وتم اعتقال الأتاسي وجديد ومجموعتهم وأمضوا في سجن المزة سنوات طويلة حيث نُقل الأتاسـي للعلاج في باريس قبل وفاته بيومين وتم نقله من السجن، أما صلاح جديد فقد توفي في سـجن المزة. بينما كان زعين وماخوس خارج البلاد.

مصر

صبيحة يوم **٢٣** تموز (يوليو) قام جيش مصر بحركة انقلابية حيث أخرج الملك فاروق من البلاد وعين نجله الأمير الصغير (ستة أشهر) ووضعت هيئة وصاية عليه، ولكن بعـد ستة أشهر ألغي النظام الملكي في مصر بعد حكم دام (**١٥٠**) عاماً كان محصوراً في أسرة محمد علي باشا وأعلنت الجمهورية في مصر، وأصـبح اللـواء محمـد نجيـب رئيسـاً للجمهورية، وقد مر ذكر قصته في موضع آخر.

وفي أثناء رئاسة نجيب كان جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء، ثم أقصي نجيب عام ١٩٥٤ وأصبح جمال عبد الناصر والذي هو القائد الفعلي للثورة رئيساً للجمهورية. وكان هنالك مجلساً لقيادة الثورة مكون من اثني عشر ضابطاً. ولقد حقق عبد الناصر إنجازات عظيمة داخل مصر وعلى مستوى حركات التحرر العربي والعالمي. ففي عهده تم تأميم قناة السويس وبناء السد العالي وتحقيق جلاء الإنجليز عن أرض مصر. تم القيام بعملية الإصلاح الزراعي والقضاء على الإقطاع بتوزيع الأراضي على الفلاحين، وبناء آلاف المصانع وتحقيق نظام اشتراكي معتدل ومتوازن ما بين الملكية الخاصة والعامة. كما طبق مجانية التعليم والتطبيب في مصر وفتحت الجامعات المصرية أبوابها للطلبة العرب من كل الأقطار مجاناً ومهما كان نوع التخصص.

كما ساندت ثورة مصر حركات التحرر في الجزائر واليمن والخليج العربي، وتمت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨، وتم الانتصار على العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ بعد تأميم قناة السويس. وعلى العموم شهدت الساحة العربية من المحيط إلى الخليج حراكاً جماهيرياً لم يحصل مثله من قبل ولا من بعد وشعر العرب في مختلف أقطارهم بأنهم فعلاً أمة واحدة.

ولكن الثورة وقائدها تعرضا لنكسة مؤلمة بعد هزيمة حرب ١٩٦٧ واحتلال شبه جزيرة سيناء، ثم ما تلاها من حرب الاستنزاف والتي كلفت مصر الكثير من الدماء والأموال ووقف عملية التنمية كما كان مخططاً لها. ثم كانت وفاة الرئيس عبد الناصر يوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٠. وتولى المرحوم أنور السادات الرئاسة وقامت في عهده حرب أكتوبر ١٩٧٣، ثم توقيع اتفاقية كامب ديفيد مع اليهود. إلى أن اغتيل على يد نفر من أبناء الجيش المصري في ٦ أكتوبر ١٩٨٠. وتولى بعده الرئيس محمد حسني مبارك والذي لا يزال يحكم مصر حتى الآن.

ومما هو جدير بالذكر أن ثورة مصر كانت بيضاء ولم ترق بها نقطة دماء واحدة. إلى أن كان الخلاف مع جماعة الإخوان المسلمين حيث تمت بعض عمليات الإعدام المحدودة.

العائلة المالكة في العراق صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ يوم الإنقلاب كيف كانت النهاية

في موضوع سابق من هذا الكتاب كنا قد أشرنا إلى أن تدخل الجيش في السياسة في الوطن العربي بعد زوال الحكم العثماني كان في العراق على يد بكر صدقي عام **١٩٣٦** والذي حاول إقصاء ياسين الهاشمي عن مركز السلطة في بغداد، وكانت الحركة العسكرية الثانية أيضاً في العراق قام بها أربعة من العقداء عام **١٩٤١** وسميت ثورة رشيد عالي الكيلاني والذي أصبح رئيساً للوزراء وتم إقصاء الوصي على عرش العراق عبد الإله وعين مكانه الشريف شرف. ثم فشلت الحركة وعاد عبد الإله.

وقد بقي الحكم الملكي في العراق كما هو معروف مستمراً بحكم العائلة الهاشمية حتى يوم **١٤** تموز (يوليو) **١٩٥٨** عندما قامت ثورة أو انقلاب عسكري أطاح بالنظام الملكي في العراق وأعلن الجمهورية. وبرز اسمي عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف كقائدين للانقلاب.

وهنا لا بأس من أن نروي للقارئ الكريم مجريات الانقلاب والأحداث المأساوية التي رافقته صبيحة يوم الرابع عشر من تموز. فهذه رواية لرئيس العرفاء كاظم ضاحي مرافق ولي العهد في سفراته حول النهاية المأساوية. فقد تحدث هذا الشخص – وكان المسؤول عن تهيئة ملابس ولي العهد عبد الإله وكان من أقرب المرافقين له في سفراته – تحدث إلى مساعد آمر فوج الحرس الملكي آنذاك العميد المتقاعد المحامي هاشم الحاج كمال عما حدث صبيحة يوم **١٤** تموز وقد كتب الحديث بخطه بما يلي:

من بعد ظهر يوم الأحد **١٣** تموز **١٩٥٨** كنا جميعاً متهيئين للسفر إلى تركيا صباح الإثنين (جلالة الملك والوصي الأمير) ومن يرافقهم من العائلة، كما انه من المعتاد جداً

حضور أشخاص كثيرين إلى القصر طيلة أيام الأسبوع وأصبح من عادتنا أن نراهم ولكننا لم نكن في يوم من الأيام نتدخل أو نحاول أن نعرف أسباب قدومهم.

لقد هيأت للأمير أغلب ما يستصحبه في مثل هذه المناسبات لأنني كنت المسؤول عن تهيئة ملابسه وأحذيته كل يوم وكنت أقرب المرافقين إلى نفسه حيث كنت أتقيد بالضبط والربط ومعرفة حدودي وهذا ما حببني إليه. وفعلاً هيأت حقائب السفر منذ يوم ١٣ تموز وطلبنا إحضار السيارات الستيشن الخاصة بالحمل ولم تكن لدى الجميع كما شاهدت أية فكرة حول توقع شيء ما لأن الأمير كان بصورة طبيعية فقد كنت أفهم نفسيته جيداً لقربي الدائم منه لسنوات وقد مكثت تلك الليلة مع الانضباط المرافقين المخصص لهم غرف في جناح آخر من القصر.

وفي صباح يوم الإثنين ١٤ تموز استيقظت مبكراً وذهبت فوراً إلى جناح الأمير ووجدت شيئاً غير اعتيادي يدور والقلق يساور الأمير، كما وجدت جلالة الملك مرتدياً سروالاً وقميصاً على ما أتذكر وكان القلق بادياً عليه أيضاً، وكانا في الطابق الأول ويوجد في هذا الطابق شباك كبير يطل على الساحة الأمامية للقصر والتي بها حوض ماء والباب الرئيسية للقصر وغرفة الحرس للباب النظامي. وقد زاد من ارتباكي وقلقي موقف الأمير الحائر ولم يلفظ بكلمة واحدة ولكنني سمعته بالتلفون يسأل (من أمر اللواء العشرين) وقد علمت بعد ذلك أنه كان يخابر قائد الحرس الملكي طه البامرلي. ثم بدأ القلق يزداد وقد صعد قسم من النساء ووقفوا جميعاً أمام النافذة وقد رأينا بعض الجنود وسيارات حمل عسكرية تقف على الشارع العام. ثم طلب الأمير من النساء النزول إلى الطابق الأول أول السرداب فيما إذا استجد الأمر. وكنت واقفاً بجوار الأمير حيث رن التلفون وتكلم الأمير مع شخص تبين لي بعد ذلك أنه أمر الفوج وطلب منه أن يستوضح الأمر جيداً بالاتصال مع الضباط الذين كانوا مع القطعات الواقفة على الشارع وقال له(لا نريد أن نكون سبباً في تقاتل الجيش والحرس، نحن الآن مسافرون وعندما نعود فنحن حاضرون إذا كان يريدنا. وأغلق التلفون، وفي هذه اللحظة ضرب القصر على

الشباك العلوي بقذيفة حطمته ثم بدء رمي الرشاشات والبنادق، وأصبح موقفنـــا حـــرج فطلب منا الأمير النزول فوراً لأن الرمي كان مصوب على الطابق الأعلى.

نزلنا جميعاً إلى السرداب وكان مخصصاً للمؤونة وبعض الفرش الزائدة. وكان قد جاء المرافق(النقيب) ثابت يونس فطلب منه الأمير الخروج إلى الساحة الأمامية لمعرفة من هم الضباط الذين دخلوا الساحة فيتفاوض معهم إن كان يعرفهم وركز على منع محاولـــة أي تصادم وإنهم على استعداد لمغادرة البلد إن كان في ذلك صالح البلد. وفي هـــذه الأثنـــاء كانت السيدات في رعب وهذا أمر طبيعي في مثل هذا الموقـــف. وبعـــد برهـــة عـــاد النقيب(الرئيس) وهو يقول (الجماعة مستهترين وقد طلبت منهم التفاوض فقال أحدهم عليهم أن يخرجوا وبعدها يتم التفاوض وما رأيت سوى أربعة ضباط كلهم برتبة رئـــيس وما رأيت ضابطاً برتبة كبيرة حتى أتكلم معه، وهنا طلب الأمير أن نخرج وقـــد رفعـــت الست الكبيرة (ويبدو أنها جدة الملك فيصل لأمه) مصحفاً وغطاء رأس أبيض وخرجـــوا بمحاذاة الجدار وكنا معهم.

وبعد خروجنا وجلالة الملك والأمير والسيدات وصلوا أمام الباب الداخلية للقصـــر خلف حوض الماء ولم نر إلا وضابط برتبة رئيس (نقيب) يوجه رشاشته علـــى الجميـــع، وبعدها سقط الجميع على الأرض، ومن لم تصبه الطلقات رجع فوراً متخفياً بخط الأشجار وتفرقنا بسرعة وتمكنت من الـــهرب وأنا لم أدرِ من هم الذين قتلوا والذين بقوا إلا عـــن طريق الإذاعة.

بعد هذه المجزرة الرهيبة لم يبق من أفراد الأسرة المالكة في العراق إلا الشريف حسين بن علي وعائلته والذي كان يُعرف بدماثة الخلق والاتزان ونقد التصرفات غير القانونية. كان الشريف حسين يسكن في المنصور في شارع الأميرات مع زوجته الأميرة بديعة شقيقة عبد الإله وأولاده الثلاثة. شعر بالخطر المحدق به وبعائلته وكلم الملك تلفونياً واستفســـر عما يجري حول قصر الرحاب، ولما تأزمت الأمور سارع مع من قدم له النجدة ونقله إلى

السفارة السعودية، وكان يُعتقد أنه يحمل جواز سفر مصري، وفي يوم ١٩٥٨/٨/١٢ نقل بطائرة إلى القاهرة مع أسرته حين انتهت محنتهم

كذلك نجت من الكارثة الأميرة هيام زوجة عبد الإله وقد ساعد في إنقاذها المحامي شاكر جميل، والذي استطاع أن ينقلها بسيارته إلى المستشفى وهي جريحة وسط جموع حاشدة من البشر الذين كانوا يتجمهرون في مناطق مختلفة من العاصمة لاستطلاع ما يحدث، ويقول هذا المحامي إنه شاهد سيارة فان تحيط بها الجماهير وعندما ذهب لاستطلاع الأمر بعد جهد ولمعرفة ما بهذه السيارة يقول بأنه شاهد جثة الملك فيصل والوصي وهما ما زالا بملابسهما. ثم عدت إلى سيارتي يقول المحامي المذكور واستأنفت السير إلى مستشفى الشعب وكانت معنا حماية عسكرية كما يقول أنقذتنا من غضبة العوام عندما عرفوا أنني أُقل في سيارتي زوجة الوصي. حيث أخذ أفراد الحماية يطلقون الرصاص في الهواء.

وعند وصولنا المستشفى عرضت على الطبيب الخفر أمر معالجة المصابة وبينت له أنها كانت واقفة مع جمهور المتفرجين في الحارثية وأصيبت برصاصة طائشة، ولم أقل إنها من سكنة القصر الملكي، فقرر الطبيب بعد فحصها إبقاءها تحت المراقبة والمعالجة المستمرة والمشاهدة. وتركناها في المستشفى تحت اسم مستعار (سعاد نافع). ثم عدت إليها في المستشفى وبعد أن بادرتني بالشكر طلبت مساعدتي للتحرر من المستشفى لأن حياتها الآن في خطر، ورجتني أن تذهب إلى بيت صديقتها (ن) في محلة البتاوين وستدلك على بيت أهلي في السعدون وتخبرهم بقصتي ثم تدبروا الأمر لإخراجي.

وفعلاً ذهبت إلى دار صديقتها (ن) ثم انتقلنا إلى دار أهلها. ووجدنا والدتها تهم بمغادرة المنزل بسيارتها مع سائقها. فاستوقفتها وأخبرتها بقصة ابنتها هيام وطلبت منها أن ترافقنا إلى المستشفى لإخراج ابنتها، ثم توجهنا إلى المستشفى كل بسيارته وذهبت إلى إدارة المستشفى وبينت للطبيب بأن المريضة (سعاد نافع) هيام زوجة الوصي تريد مغادرة

المستشفى فوافق بعد إلحاح شرط أن يكون ذلك على مسؤوليتنا وغادرت هيام المستشفى. وكانت ما تزال حية ترزق حتى ١٩٨٠/١/٥.

الأميرة هيام تروي مأساة الساعات الأخيرة للملك والأمير عبد الإله

قالت الأميرة:

حوالي الساعة الخامسة صباحاً رن التلفون في غرفتنا (الأمير وأنا) صحوت من النوم وأخذ الأمير يتكلم مع ضابط فلاحظت أن الأمير ارتبك واصفر وجهه وجلس على كرسي وأخذ يدخن ورد على الضابط: سأتصل وأرى ماذا يجب أن تعمل. سألته ماذا حدث، فصاح بأعلى صوته علي وقال: إنقلاب. نظرت من الشباك لم أجد أحداً يتقدم نحونا، والأمير استمر يدخن السيجارة تلو الأخرى.

ذهب الأمير إلى شقيقته عابدية أخته الكبيرة وأخذ يكلمها باللغة التركية، وحدث جدل بينهما لم أفهمه وأخذت أبكي من شدة تأثري، مرت فترة هدوء بدأنا نسمع أصوات الإطلاقات والرمي نحونا ثم سقطت قنبلة مدفع. طلب ضابط الحرس مواجهة الأمير عبد الإله ولكنه قال: دعه ينتظر، اشتد الرمي ومرت إطلاقة فوق رأس الملك قتلت إحدى الخادمات داخل القصر، ثم سقطت القنبلة الثانية وحصل دخان كثيف داخل الطابق العلوي، نزلت العائلة المالكة من الطابق العلوي إلى الأسفل ومن هناك ذهبوا إلى مشتمل الخدم وجاء ضابط إلينا ووجه كلامه إلى الملك قائلاً: سيدي لدي سيارة حاضرة في الباب الخلفي للقصر وأستطيع إيصالك إلى المطار، رفض الأمير هذا العرض وقال: ركوب الملك في السيارة بعد خروجه من القصر يعطيهم حجة لقتله.

سقطت قنبلة أخرى فقال الأمير: إطلعوا كلنا، فكان الخروج على الترتيب التالي: الملك فيصل والأميرة عابدية والملكة نفيسة والدة الأمير عبد الإله وجدة الملك فيصل لأمه وكانت تحمل القرآن بيدها ثم الأمير عبد الإله ثم أنا (الأميرة هيام) زوجة عبد الإله وصاحبة هذه الرواية، ثم تبع بقية الخدم. وخرجنا جميعاً من مشتمل الخدم وتأخرت أنا قليلاً حيث وجهت صلية رشاش نحونا فسقطت على وجهي حيث أصبت في رجلي. بعد

ذلك رمى أحد الجنود صلية نحونا وقال: ((هذا اللي كنتم تريدونها يا خونة ووجه كلامه إلى عبد الإله قائلاً له: يا خائن)).

أصبحت بين الغيبوبة والنوم تقول هيام زوجة عبد الإله، سألني أحد العسكريين أنـــتِ منو، فرددت عليه أنا سعاد نافع، أي بدلت اسمي للتخلص من القتل ودخلت في غيبوبة. وأركبت بسيارة بحراسة جنديين إلى المستشفى، وعندما يُسأل السائق عني يـــرد علـــيهم صاحب السيارة إنها خادمة تشتغل عند العائلة المالكة وأصيبت بطلق نـــاري ونريـــد أن ننقلها إلى المستشفى. ودخلت المستشفى باسم سعاد نافع وهي قريبتي وزوجـــة المحـــامي ناجي جواد الساعاتي. وأخرجتني أمي بنفس اليوم إلى دارها.

الضابط الذي نفذ مجزرة قصر الرحاب يتكلم

إنه العقيد عبد الستار العبوسي والذي لا يخفى على أحد في العراق دوره في القضـــاء على العائلة المالكة، إلا أن الكثير لا يعلم ماذا كان في خلجات هذا الإنسان من انفعالات نفسية قادته إلى الانتحار في شهر شباط (فبراير) ١٩٧٠. قابله عقيد في الجيش العراقـــي يدعى عدنان محمد نوري وسأله لماذا فعل ما فعل يوم انقلاب ١٤ تموز فأجاب: إنـــك لم تعلم بأنني لم أذق طعم الراحة حتى في نومي منذ قتلي الملك وأنه يأتي إلي في المنام لابســـاً لباساً أبيض ويقول لي: لماذا قتلتني، هل أصابك ضرر مني، هل قمت بخطأ ما لماذا حرمتني لذة الحياة وأنا في ريعان الشباب، ويتكرر علي الكلام كل ليلة ولم أذق طعم النوم المريح طيلة هذه الفترة فيا ليت تصيبني طلقة أو شظية قنبلة.

ثم انتقل الضابط العبوسي إلى الكلية العسكرية معلماً والتقى به هناك نفس الضـــابط عدنان وسأله عن أحلامه، فقال إنها ازدادت سوءاً وأن بعض النساء يظهرن لـــه وهـــن يلومونه ويقلن له أنك تعيش وأشباحنا تطاردك حتى نلتقي.

وقال له العقيد عدنان لماذا لا تطلب تعيينك في الخارج وتعالج نفسك فما تشكو منـــه هو حالة مرضية، فقال: وهل تعتقد أنني ارتحت في روسيا، نفس الشيء كان يـــراودني. ثم التقى به نفس الضابط في البصرة وكان رئيس أركان البحرية، ووجده في حالـــة نفســـية

متردية للغاية. وكان يهنئ في داخله كل شخص يسمع به قد مات ويقول: أهنئه تخلص من هذه الحياة. وبعدها بفترة سمعت بأنه قد انتحر بمسدس صغير نمرة (٥) كان يحتفظ به في البيت، وقد حضر العقيد عدنان راوي حكايته تشييعه من مسجد الشيخ عبد القادر الكيلاني إلى مقبرة الغزالي.

وهنالك روايات متعددة وصفت ما حدث يوم ١٤ تموز ومصير العائلة المالكة ومعظمها متشابه إلى حد كبير لذلك اكتفينا بما تم إيراده في الصفحات السابقة. هذا ولم يمضِ سوى أشهر قليلة حتى دب الخلاف بين قائدي الانقلاب عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف، فقد حدث الانقلاب بوقت وجود الجمهورية العربية المتحدة المكونة من إقليمي مصر وسوريا، وكان عبد السلام عارف يريد الوحدة الفورية، فقد ذهب إلى دمشق بعد الانقلاب بأيام حيث كان يوجد الرئيس عبد الناصر للتباحث معه بشأن انضمام العراق لدولة الوحدة، أما عبد الكريم قاسم وأنصاره فلم يكن يريد الوحدة وكانت له أطماع أخرى، ومن المرجح أن يكون قاسم مرتبط بالمخابرات البريطانية والتي غضت الطرف كما يبدو عن الانقلاب لأنها أرادت محاربة عبد الناصر والوحدة بأناس يزايدون عليه في شعارات التحرر والاشتراكية، فبريطانيا همها مصالحها بالدرجة الأولى ولا تلتفت كثيراً لحملة الشعارات أو حتى قناعاتهم ما داموا يحققون لها أهدافها، حيث سلمت الجبهة القومية في عدن الحكم حين انسحبت مع أن هذه الجبهة كانت تدعي أنها ماركسية نكاية بأنصار الوحدة وقتئذٍ من اليمن الشمالي وهي الجماعة التي كانت تدعمها مصر الناصرية. وقد حدث أن اجتمع السفير البريطاني في تركيا مع من أتى من لندن إلى بغداد بعد الانقلاب بأيام واجتمع مع عبد الكريم قاسم لساعات طويلة تم فيها ترتيب الأمور على ما يبدو، وهدأت حركات بريطانيا وتهديداتها بعد ذلك وأصبح نفوذها في العراق ربما أقوى مما كان.

ووصل الخلاف بين قاسم وعارف إلى أقصى درجاته وعُزل عارف من جميع مناصبه وعين سفيراً في بون عاصمة ألمانيا الغربية آنذاك. ولكنه عاد بعد ستة أشهر إلى بغداد واتهم

بمحاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في اجتماع ضمهما، وقدم لمحكمة المهداوي وحكم عليه بالإعدام ولكن تم تخفيف الحكم وأقصي معظم الضباط القوميين من مراكــزهم، وأخــذ الشيوعيون يسرحون في أرض العراق، ودب الخلاف مع الجمهوريــة العربيــة المتحــدة وأنصارها، وكانت محكمة المهداوي منعقدة طوال فترة حكم قاســم، وفاضــل عبــاس المهداوي هو ابن خالة قاسم. وارتكبت من المجازر في هذا العهد في العراق ما لم يرتكب مثلها في أي عصر، لذلك اشتدت النقمة على حكم قاسم وجرت محاولة لاغتياله شــارك فيها الرئيس العراقي المرحوم صدام حسين وخمسة آخرون ممن ينتمون لحزب البعث العربي الاشتراكي، منهم سمير عبد العزيز النجم سفير العراق في القاهرة في عهد الرئيس صــدام وآخر قتل أثناء إطلاق النار على قاسم ويدعى عبد الوهاب الغريري. وجرح قاســم في ذراعه وأدخل المستشفى. وعندما خرج أصبح ذلك اليوم عيداً في العراق يســمى عيــد السلامة. أما أبرز محاولات الإطاحة بقاسم فكانت ثورة الشواف في الموصل والتي قُتــل فيها العقيد الشواف وأعدم بعدها أربعة عشر ضابطاً برتب عالية. ودبت الفوضى بعدها في شمال العراق لاسيما في مدينة الموصل وارتكب الحزب الشيوعي بها من المجازر مــا لا يمكن وصفه.

استمر حكم عبد الكريم قاسم في العراق لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة لم يخــرج خلالها قاسم من العراق ولم يجتمع بأي زعيم أو رئيس دولة سوى بناظم القدسي رئــيس جمهورية الانفصال في سوريا، وتم هذا الاجتماع على الحدود بين البلدين.

إلى أن جاء يوم ٨ شباط (فبراير) **١٩٦٣** حيث قام انقلاب عسكري في العراق أطاح بحكم قاسم والذي تم إعدامه مع المهداوي في أحد استديوهات إذاعة بغداد. إلى جانــب مقتل عدد من الضباط أنصاره في وزارة الدفاع مقر قاسم، وأعلن عن تســليم منصــب رئاسة الجمهورية لعبد السلام عارف والذي أطاح بحزب البعث وأصبح الحاكم الفعلــي للعراق مع مجموعة من الضباط القوميين. وكان حكمه هادئــاً مســتقراً عــاش أثنــاءه العراقيون بأمن ورفاه إلى أن توفاه الله بحادث سقوط المروحية التي كان يســتقلها في ١٤

نيسان ١٩٦٥. فتولى الحكم بعده شقيقه عبد الرحمن عارف والذي كان ضعيفاً وإن كان حكمه مستقراً بفضل إخلاص معظم ضباط الجيش إكراماً لشقيقه عبد السلام. وبقي في الحكم حتى ١٧ تموز ١٩٦٨ حين قام حزب البعث بانقلابه الثاني وعين أحمد حسن البكر رئيساً للجمهورية وصدام حسين نائباً له، إلى أن أقصي البكر عام ١٩٧٨ وأصبح صدام حسين رئيساً للجمهورية حتى ٩ آذار ٢٠٠٣ يوم دخول القوات الأمريكية الغازية إلى بغداد.

ليبيا

كانت ليبيا بعد الاستقلال عام ١٩٥١ تحكم من قبل الأسرة السنوسية باسم المملكة الليبية المتحدة. وكان ملكها الأول والأخير هو إدريس السنوسي. وكان رجلاً متقدماً في السن ضعيفاً. استمر حكمه حتى يوم الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٦٩ يوم قام الجيش الليبي بقيادة الملازم أول معمر القذافي والذي أصبح برتبة عقيد وكان يقود مجلساً مكوناً من اثني عشر ضابطاً بما فيهم هو. وأعلن قيام الجمهورية العربية الليبية وقام بإصلاحات مذهلة في سني حكمه الأولى. ولكن تغير كل شيء بعد أن أصبح فيلسوفاً يريد حل مشاكل العالم بأسره وتبنى النظرية الاشتراكية المتطرفة وانهار كل ما بناه بنفسه وأعلن عن قيام الجماهيرية وعطل الدستور والقوانين، وأصبحت اللجان الشعبية والثورية تعيث بالأرض فساداً، وعاش الشعب الليبي في ضنك شديد وهو الذي يملك المليارات وأرضه تفيض بالذهب الأسود، فقد صادر المنازل والمزارع وألغى الأسواق والمحلات التجارية وحتى المطاعم والمخابز وخرج بالكتاب الأخضر والنظرية العالمية الثالثة كما يصفها، وصادر الحريات فلا أحزاب ولا نقابات ولا حتى أندية وجمعيات اجتماعية وخيرية، وأقصى كل الضباط الذين قاموا معه بالانقلاب عدا اثنين منهم، وتم تصفية المئات وقيل الآلاف من المعارضين الليبيين في السجون والمعتقلات، وتم إعدام العشرات علناً وقبيل المغرب في رمضان.

ولكن يظهر انه تراجع الآن عن الكثير من الإجراءات السالفة وأخذ كل شيء بالعودة إلى طبيعته من حيث الحياة العامة وإن لم يتغير أسلوب حكمه الفردي. والغريب أنه قام بكل تلك الخطوات باسم الشعب وأنه ليس رئيساً ولا ملكاً بل هو مواطن عادي. وما زال يحكم إلى هذا اليوم.

اليمن

ظلت اليمن تُحكم من قبل أسرة حميد الدين، الزيدية المذهب، لسنوات طويلة، بقيت خلالها اليمن غارقة بالظلام بكل معانيه الإنسانية، حيث الجهل والتخلف والأمية والانغلاق على الذات، فقد بقيت بعيدة عن كل مظاهر التطور والحداثة التي شهدها الوطن العربي ولو جزئياً خلال القرن العشرين المنصرم.

كان حكماً ظلامياً بكل ما تعني الكلمة، حكماً استبدادياً تعسفياً يمارسه مجموعة من الجهلة وعلى رأسهم الإمام. حتى أنه لم يكن لليمن عملة خاصة بها، وكانت تستعمل عملة نمساوية قديمة تسمى عملة ماريا تريزا. وكانت زيارته ممنوعة على الأجانب وحتى العرب منهم إلا بإذن الإمام شخصياً. لم تعرف اليمن الطرق المعبدة ولا وسائل المواصلات الحديثة، والمدارس ومعاهد التعليم شبه معدومة.

هكذا كان حال اليمن السعيد، بلاد الممالك والحضارات القديمة والتي يرجع إليها معظم العرب في أصولهم. فيها كانت مملكة سبأ وسد مأرب والملكة بلقيس. وإليها كانت تذهب قوافل العرب في رحلة الشتاء والصيف. هكذا كان حال اليمن والتي قامت بها عدة محاولات لتغيير ذلك النظام المتخلف كان أبرزها محاولة عبد الله الوزير أواخر أربعينات القرن الماضي والتي لم يكتب لها النجاح وتم إعدام القائمين بها، وكان الإمام أحمد هو الإمام القوي قبل الأخير بها، وبعد وفاته تولى ابنه الإمام البدر الحكم، ولم يمضِ عليه في الحكم سوى عشرة أيام حتى قامت ثورة ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٢ بقيادة عبد الله السلال فألغيت الملكية وأعلنت الجمهورية في اليمن والتي ساندها مصر عبد الناصر بكل قوة وأرسل آلاف الجنود المصريين لمساندة الثورة والحفاظ عليها، بينما كانت السعودية تساند الإمام البدر وأنصاره. واحتدمت حرب بين الطرفين استمرت أكثر من خمس سنوات. ترسخ فيه النظام الجمهوري في اليمن،

والتي شهدت بعد ذلك عدة انقلابات عسكرية ولكن اليمن ظلت تشق طريقها نحو التقدم وشهدت نهضة شاملة في كافة الميادين. ثم توجت الإنجازات بتحقيق الوحدة بين شطري اليمن الشمالي والجنوبي.

السودان

منذ استقلال السودان وهو يشهد انتقالاً للسلطة بين المدنيين والعسكريين، حيث قام الفريق إبراهيم عبود بأول انقلاب في السودان. ثم كان بعد فترة من الحكم المدني انقلاب جعفر النميري عام ١٩٦٨ – ١٩٨٥. ثم كانت الانفاضة الشعبية ضده وتسلم المدنيون الحكم بعد تنازل الفريق عبد الرحمن سوار الذهب الذي عينه الجيش رئيساً مؤقتاً بعد انضمام الجيش إلى الشعب في الانتفاضة ضد الحكم النميري. وبقي المدنيون في السلطة إلى أن حدثت ما تسمى بثورة الإنقاذ بقيادة الرئيس عمر حسن البشير والتي ما زالت تحكم حتى هذه الأيام.

الجزائر

بعد انتصار الثورة الجزائرية أصبح أحمد بن بلة أول رئيس لجمهورية الجزائر المستقلة. وحكم من ١٩٦٢ – ١٩٦٥ حينما قام العقيد هواري بو مدين بانقلابه الذي أطاح به حكم بن بلة، وبقي في الحكم حتى وفاته عام ١٩٧٨. ليتولى بعده الشاذلي بن جديد، ثم مرت مرحلة من الاضطراب والفوضى إلى أن تولى الحكم الرئيس عبد العزيز بو تفليقة والذي لا يزال يحكم.

موريتانيا

بعد الاستقلال كان رئيسها الأول المختار ولد داده والذي حكم لسنوات طويلة ثم أطيح به وبعد ذلك تتابعت الانقلابات العسكرية.

المغرب

تحكمها الأسرة العلوية منذ مئات السنين، في سبعينات القرن الماضي وقعت بها محاولتين انقلابيتين بقيادة أوفقير الذي كان أقرب شخصيات المغرب إلى الملك ولكن فشلت المحاولتان وأعدم أوفقير ومجموعة كبيرة من الضباط بعد هاتين المحاولتين.

حكم العسكر في الميزان

بعد أن هدأت موجة الانقلابات في الوطن العربي واستقرت الأمور بالشكل الذي هو عليه الآن. أخذ العديد من الكتاب العرب يرجعون أوضاع الأمة وما هي عليه من ضعف وتخلف إلى حكم العسكريين، وأنهم هم المسؤولون عن هذه الأوضاع التي تعيشها الأمة. والحقيقة أن المتتبع لمجريات الأمور في أقطار الوطن العربي لابد أن يدرك الحقيقة ويقف على الأسباب الحقيقية للأحوال المتردية التي يمر بها الوطن العربي، فإننا نرى أقطاراً عربية كثيرة لم يحكمها العسكريون ولكننا نراها لا تختلف عن الأقطار التي حكمها العسكر، فزحفها نحو التقدم ما زال يسير ببطء شديد، فلم نرَ قطراً منها حقق المعجزات فتملّك أسرار الذرة وجارى الدول الصناعية في إنتاج الطائرات والسيارات ومختلف التقنيات الحديثة، فالكل ما زال عالة على الأمم المتقدمة، والكل في تراجع مستمر في كافة أنواع الإنتاج الصناعي والزراعي وحتى الخدمي. مثل تونس والمغرب والسعودية ودول الخليج والأردن.

وحتى في مجال الديمقراطية والحريات العامة لا نرى اختلافاً كبيراً لا بل ربما كانت بعض الأنظمة العسكرية أرحم من غيرها من نظم ما حكم فيها العسكر يوماً، ففي أقطار مثل هذه حدثت إعدامات بالجملة لا بل وجرى تغييب للآلاف من المعارضين على طريقة أمريكا الجنوبية وزج بالمئات في السجون والمعتقلات الرهيبة. وفي أقطار أخرى لم تر حكم العسكر بقي الحزب الحاكم بها منفرداً بالسلطة لعقود طويلة، ورغم إجراء الانتخابات بشكل دوري إلا أن معارضاً واحداً لم يفز بمقعد في مجلس الأمة في ذلك القطر. فالمقاعد يفوز بها الحزب الحاكم جميعها، رغم شدة المعارضة في ذلك القطر وكثرة الأحزاب وانتشار المثقفين لاسيما اليساريين منهم.

لا بل والحق يقال ما نُفذ مشروع يستحق الذكر في الوطن العربي إلا وقام على يد العسكريين. هذا إلى جانب الحراك النشط الذي شهدته الأمة على امتداد الساحة العربية وحركات التحرر ضد القوى الاستعمارية وعملائها، وشعور أبناء أمة العرب بأنهم فعلاً شعب واحد وأبناء أمة واحدة يمكنها التصدي ومواجهة كل عدو يتجرأ على انتهاك سيادتها عكس ما

هو واقع هذه الأيام التي تعيشها الأمة من سيادة روح الإقليمية والقطرية لا بل الترحيب بالقوى الاستعمارية من جديد على الأرض العربية ومدفوعة الأجر هذه المرة.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نرى أن العسكر في حكمهم قد استعانوا بخيرة الخبرات من أبناء شعوبهم في النواحي الاقتصادية والتنظيمية والتعليمية وغيرها. وكان من إنجازاتهم التي لا تُنكر نشر التعليم بمختلف مراحله ومجانيته، ونشر الخدمات الصحية ومجانيتها أيضاً، والقضاء على الإقطاع ونفوذ العائلات الإقطاعية وتغيير بنية المجتمع العربي وإشعار سكانه جميعاً بأنهم متساوون ولو نظرياً فيمكن لأي شخص أن يطمح في أن يكون مسؤولاً كبيراً ويحتل أي منصب في الدولة لأن هذه المناصب والمسؤوليات لم تعد حكراً على طائفة أو جماعة معينة من أهل البلد.

أما قضية التقدم في الوطن العربي وتعثره رغم مرور أكثر من قرن على بدء اليقظة والنهوض العربي، فإنه لا يرجع كما يبدو إلى حكم عسكري أو مدني، إنما يرجع لطبيعة الذهنية العربية المسيطرة وإلى مفاهيم وتراكمات فكرية تسيطر على العقول العربية المعاصرة وتحد من استيعابها وقبولها لمعطيات العصر وإنجازاته المذهلة. لا بل إننا نرى وعقب انحسار موجة المد القومي والتقدمي في الوطن العربي انكفاءاً إلى الخلف وتراجعاً في أنماط التفكير والتعاطي مع روح العصر، حتى أنه يُخشى من العودة إلى نقطة الصفر وإلى العودة إلى ما قبل فكر النهضة وإرادة التقدم ومجاراة العصر، فنرى الآن أن التسويق للحياة بعد الموت هو الشائع على الساحة العربية وأن هذه الحياة الدنيا لا تساوي جناح بعوضة، أما الاعتماد على الغير في مختلف شؤون حياتنا لا بل وحتى توكيل هذا الغير بالدفاع عنا وعن أرضنا فهذا كله يهون أمام النجاة من عذاب القبر.

وهذا بخلاف روح الإسلام الذي يحض على العمل والإنتاج وإعداد القوة وزرع ما بيد الإنسان من فسائل حتى ولو رأى نهاية الحياة على هذه الأرض بأم عينيه. فهل هو الجهل بروح الإسلام. أم جهل معشعش في عقول أئمة المسلمين وفقهائهم وعلمائهم وانتقل إلى عامتهم؟

مسيرة المغفور له الحسين بن طلال
حكمة وشجاعة وتسامح

الحسين بن طلال المولود في ١٤ تشرين الثاني عام ١٩٣٤ اعتلى العرش في الثاني من أيار (مايو) ١٩٥٣ وهو نفس يوم اعتلاء ابن عمه فيصل الثاني عرش العراق. كان للحسين سبعة عشر عاماً من العمر آنذاك، واستمر حكم جلالته حوالي سبعة وأربعين عاماً كانت كلها مليئة بالأحداث والمفاجآت لاسيما في السنوات الأولى من حكم جلالته، فقد كان الصراع على أشده بين المعسكرين الغربي والشرقي أو الشيوعي والرأسمالي، وفي عام ١٩٥٢ قامت ثورة مصر بتوجهاتها المعروفة وما أحدثته بعد سنوات قليلة من قيامها من حراك في الشارع العربي كان يتحول أحياناً إلى فوضى واضطرابات وانقلابات او محاولة انقلابات، كذلك كانت الأحوال في سوريا غير مستقرة ونشطت بها القوى اليسارية والشيوعية والتي لم تكن تُكنّ الود للحسين ونظامه، ثم قامت الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨ وزاد التهديد للنظام في الأردن، ثم كانت ثورة العراق في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ في العراق ومقتل أبناء عمومة الحسين وعلى رأسهم الملك فيصل الثاني وأثر كل ذلك على الحسين ونظام حكمه الذي أصبح محاطاً بالمتربصين من مختلف الجهات. وفي هذه الأثناء واجه النظام والملك في الأردن محاولات للتمرد والانقلاب ومحاولة تغيير نظام الحكم. هذا عدا عن وجود العدو الصهيوني المتربص والطامع والذي ينتهز الفرصة للانقضاض.

كل هذا وغيره كان يحدث والحسين رحمه الله لم يكن قد جاوز السابعة والعشرين من العمر. وللقاريء أن يتخيل كم من الحكمة والشجاعة تتطلب مثل هذه الأحداث لرجل كان في قلب العاصفة. قاد الحسين السفينة وسط كل هذه الأعاصير بحكمة وشجاعة عز نظيرها، هذا إلى جانب تسامح مع الخصوم لم تشهد له الساحة العربية على امتدادها مثيلاً في ذلك الوقت لا بل وغيره من الأوقات. استمر حكم الحسين أكثر من سبعة وأربعون

عاماً وهي من أطول فترات الحكم لملك أو رئيس بينما تساقط خصـــومه الواحـــد تلـــو الآخر.

أما في داخل البلد فكانت نشاطات جلالته متنوعة إذ كان يخصص جزءاً كبيراً مـــن وقته لاستقبال الناس من جميع الطبقات، وفي فترات منتظمة كان يزوره رؤساء العشـــائر. والجميع يلاقون منه كل ترحيب، أما الأعمال الروتينية فكانت من اختصـــاص رئـــيس الديوان الذي يقوم بدور الوسيط بين الملك والحكومة، وكان الحسين يسمح لأي كـــان بمقابلته أو الاتصال هاتفياً. أما في حال رفض أي مقابلة فإن الســـبب يكـــون غالبـــاً أن البرنامج اليومي يكون مثقلاً بأعباء العمل. كان الملك يستمر في عمله اليومي من الساعة الثامنة والنصف صباحاً إلى الثامنة مساءاً غالباً. وكان رحمه الله يقوم بين الفينة والأخـــرى بزيارة مضارب العشائر ويستمع إلى مطالبهم وحاجاتهم ويطلع على أحوالهم.

ويقول جلالته: ((إن مطالب العشائر كانت من التواضع والبساطة والقناعة إلى الحـــد الذي يجعلني أستجيب لها حالاً. وكانت في معظمها مطالب عمل أو معالجة طبية أو بنـــاء مدارس وعيادات صحية في مناطقهم)). ولم تكن اهتمامات الحسين بأهل المدن بأقل مـــن ذلك، فلم يكن يدع فرصة تفوته للاختلاط بالسكان ومعرفة آرائهم حول مختلف القضايا وكذلك الوقوف على أحوالهم عن كثب، كل هذا كان يقوم به المغفور له في أوائل ســـني حكمه وعمره لم يتجاوز العشرين عاماً، حقاً إنها حكمـــة الملـــوك وشـــجاعة الفرســـان وتصرفات الإنسان.

كان الحسين مدركاً تماماً لأبعاد الأحداث العالمية فنراه يقول: ((لما نشبت الاضطرابات في منطقتنا أدرك العالم الغربي بصعوبة أسبابها الجوهرية، فعندما تطرح قضية معقدة في العالم العربي ينحي الغرب باللائمة إما على الشيوعية أو على الفلسطينيين، أو يعمد بكل بساطة إلى تحميل كل العرب المسؤولية دون تحفظ أو استقصاء بدلاً مـــن أن يـــتفهم أن قـــوى متعارضة متناقضة تتجابه وتتصارع في بلادنا. ربما كنا نحن مسؤولين جزئياً عن هذا الخلط والالتباس وهذا النقص في الإعلام، ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك، هو هـــذا العـــدد

المدهش من الكتب الرديئة التي أنتجها الغرب عن البلاد العربية. وقليل هـــي المؤلفـــات الغربية المتوازنة والمعقولة)).

هذا ما قاله الحسين منذ سنوات طويلة وهو بالضبط ما نراه الآن من نظرة الغـــربيين تجاه قضايانا، وكأن الملك كان ينظر إلى الأمور بعين زرقاء اليمامة.

شجاعة الحسين كانت في مواقف كثيرة اتخذها أو تصرف خلالها أثناء حكمه. وكانت أول هذه المواقف وربما أهمها إقصاء كلوب باشا عن قيادة الجيش الأردني، وهي خطوة لم تكن سهلة في ذلك الوقت في أن يقف ملك في الثانية والعشرين من العمر بوجه مخططات بريطانيا العظمى وما لها من قوة ونفوذ في العالم آنذاك. فقد اختلف الحسين مع كلوب في مسألتين جوهريتين، الأولى دور الضباط العـــرب في الجـــيش الأردني ثم الاســـتراتيجية الدفاعية، ويقول الحسين إنه لو لم يعزل كلوب لما مارس أعباء مسؤولياته، وإن ما تم كان يجب أن يتم.

كان الحسين يرغب في ترفيع الضباط الأردنيين إلى المناصب العليا في الجـــيش وفي أن يتولوا قيادته طبقاً لخطة واقعية. وكان هذا يضايق سياسة التسلط البريطانية.

يقول الحسين: ((كان من واجبي أن أقوي ثقة الأردنيين بأنفسهم وأن أرسخ في أذهانهم روح الكرامة والكبرياء القومي لتعزيز قناعتهم بدور الأردن القـــومي ومســـتقبل الأردن ذاته)). أما من الناحية الاستراتيجية فيقول الملك أن: ((كلوب باشا كانت لديه مفـــاهيم عسكرية قديمة الطراز بعض الشيء وقد قارب الستين آنذاك وكان تولى قيـــادة الجـــيش الأردني عام ١٩٣٩. وكان يريد أن يقيد الجيش به ولاسيما حول مفهومه الخاص بدفاعنا ضد إسرائيل)).

ولكن بعد رحيل كلوب واجه الحسين مرحلة جديدة هي مرحلة الاستقلال الحقيقـــي والبحث عن رجال يتحملون المسؤولية سواء في المجال العسكري أو المدني، خاصـــة أن المنطقة كانت تمر بظروف لم تشهدها من قبل، فقد كانت الساحة العربية تموج بالتيـــارات المتصارعة من قومية إلى شيوعية ويسارية قومية وإسلامية.

يقول الحسين: ((كان الوجود البريطاني من العمق والشمول بحيث أن ضباطنا لم تتح لهم إمكانية إثبات مقدرتهم في تولي المناصب ذات المسؤولية، فكان علينا أن نجري تجاربنا الخاصة وما يستتبع ذلك من ارتكاب ما لا مفر منه من الأخطاء. وعلى المسرح السياسي كانت تواجهنا نفس المشكلة، لأن المسؤولين عندنا كانوا قد توقفوا منذ سنين عن التفكير في الأردن كبلد مستقل. فقد جرت العادة أن يذهبوا لاستشارة السفير البريطاني عند مواجهة أية أزمة أو خلاف)).

ولعل من أصعب المآزق التي واجهها الحسين كانت ما عُرف (بتمرد الزرقاء) في ربيع ١٩٥٧، وهو التمرد الذي كان يقضي باغتيال الملك لخلق الاضطراب والفوضى في الأردن وإعلان الجمهورية. وجد الحسين نفسه في لحظة من اللحظات وحيداً تقريباً في خط إطلاق النار بين فريقين من الضباط. كاد هذا التمرد يكلف الملك حياته، وكان في الوقت ذاته نقطة تحول في تاريخ الأردن.

كانت مؤامرة سياسية، ومما زاد في خطورة الأمر أن لا رجال الجيش ولا السياسيين لديهم الخبرة الكافية في إدارة الأمور بدولة مستقلة. وكان الجميع معتادون على المساعدة والمشورة الأجنبية، بينما كان الحسين الشاب يرى بأن ساعة التحرر من نير الأجنبي قد حانت.

عام ١٩٥٧ أصبح المرحوم سليمان النابلسي أمين عام الحزب الوطني الاشتراكي رئيساً للوزراء كما كان في الجيش عدد من الضباط اليساريين المتحمسين للمشروع الناصري، فقد كانت الدعاية مكثفة جداً وكانت الأموال توزع على سبيل الرشوة. وكانت الوعود السوفييتية بإمداد الجيش بالأسلحة تتوالى ولكن بعد تغيير النظام. وانقسم الجيش بعد فترة إلى جماعات متعارضة لكل منها معتقداتها السياسية الخاصة، إذ كان العالم العربي كما أسلفنا في حالة غليان، وكان الشارع الأردني لا يخلو من الاضطرابات والمظاهرات كما كان الحال في معظم الأقطار العربية، وكان بعض الضباط يتعاطفون مع حركات الشارع لا بل ويؤيدونها ويحمون القائمين بها. وكذلك كان حال النابلسي

ومعظم وزرائه، الأمر الذي أدى لازدياد التوتر بين الملك وحكومته خاصة بعد ارتفاع حدة التوتر في البلاد.

وكانت حكومة النابلسي ترى وتعمل على تعميق العلاقات مع دول الكتلة الشرقية آنذاك لاسيما الاتحاد السوفييتي والاعتراف بالصين الشعبية والتزود بالأسلحة الشرقية والسماح للحزب الشيوعي وكل أحزاب اليسار بالعمل بحرية تامة والسماح لهم بإصدار ما يريدون من صحف ومطبوعات، الأمر الذي أزعج الملك وجعله يبعث برسالة شديدة اللهجة إلى النابلسي لافتاً نظره إلى ما يهدد البلد من أخطار. وفي اليوم التالي ذهب النابلسي وبرفقته علي أبو نوار وعبد الله الريماوي وبعض الوزراء اليساريين الآخرين طالبين من الملك تخفيف لهجته الواردة في الرسالة، ولكن الملك رفض بإصرار.

وبعد أيام قليلة نشبت أعمال تمرد نظمها بأسلوب علمي سياسيون وعناصر من الجيش مناوئة للنظام، وألقى النابلسي بعد ذلك خطبته المشهورة في سينما البتراء. في هذه الأثناء كان علي أبو نوار قائداً للجيش وقرر التحرك، فقامت سرية من المصفحات بتطويق مدينة عمان واحتلت النقاط الاستراتيجية. فاستدعى الحسين أبو نوار واستوضح منه عن الأمر فأجاب بأنها عملية روتينية. ولكن الملك أمره بسحب القوات ففعل، وبعد هذا الحادث أمر الحسين بإقالة حكومة النابلسي وهذا ما كان.

وفي مساء نفس اليوم جاء لزيارة الملك خاله الشريف ناصر بن جميل وقال له: ((يبدو أنه قد ضاع كل شيء، وأنكم (يعني الحسين) الآن قد ازددتم وحدة وانعزالاً، فهل نبقى ونقاتل أم علينا أن نحزم حقائبنا، ألا ترون أنه يجب علينا أن نفكر بسلامة ومستقبل أسرنا وأن نحاول وقايتها من كل خطر، فرد الملك قائلاً: لا أريد الرحيل، يجب أن أبقى، وإنك تعرف بأنني أؤمن بما أفعل)) فهل هنالك من شجاعة أكثر من هذه الشجاعة لشاب لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر.

بعد أيام حاول أبو نوار وأنصاره وجماعة النابلسي الضغط على الملك لإعادة تكليف النابلسي برئاسة الحكومة بعد إسقاط حكومة حسين فخري الخالدي من قبل مؤتمر

الأحزاب الذي انعقد في مدينة نابلس، ولكن المحاولات مع الملك لم تجدِ نفعـاً. ثم كـان تمرد بعض الضباط في الزرقاء والذين حاولوا الزحف بقواهم إلى عمان، ولكن عندما علم الجنود بالنوايا الحقيقية تمردوا وطالبوا بأن يكون الحسين بينهم، فما كان منه إلا أن استقل سيارته غير مبال بما سوف يحدث واتجه نحو الزرقاء والتقى برجال الجيش الغاضـبين لما حدث والذين أحاطوه بعبارات التأييد والولاء، وأعاد الملك الأمـور إلى نصـابها بجـرأة وإقدام لا يملكها غيره من الملوك والحكام.

أما علي أبو نوار فقد ذهب في هذا الوقت إلى عمان نحو قصر بسمان ظاناً أن أنصاره يطوقون القصر وعلى وشك دخوله، فجلس في غرفة ينتظر قدوم الملك، ولكنه عندما علم بأن هؤلاء الجنود والضباط في القصر ليسوا من جماعته أسقط في يده. وسأله الملك: مـاذا تنتظر مني؟ فأجاب بأنه يريد من الملك أن يحميه. فكر الملك بالأمر قليلاً مع شـدة تعبـه وإرهاقه وخيبة أمله. وقال في نفسه لا أستطيع أن أطاوع نفسي وأحكم عليه بالإعـدام. وهنا تظهر بوضوح حكمة الملك وشجاعته وبعد نظره. فنراه يقول لا أستطيع أن أعرف ماذا كان سيعني اسم علي أبو نوار في السنين المقبلة لو تم إعدامه، وليس لدي رغبة في أن أجعل منه بطلاً يميز فترة من تاريخ الأردن.

بعد ذلك غادر أبو نوار وأسرته إلى دمشق وغاب عن البلاد لسنوات ثم عاد بتسامح الحسين وسعة صدره وأفقه، وأمضى بقية حياته في وطنه معززاً مكرماً إلى أن توفاه الله قبل سنوات. بعد أبو نوار كان الحسين قد عين اللواء علي الحياري قائداً للجيش إلا أنه فر إلى دمشق في اليوم التالي. فتم تعيين المرحوم حابس المجالي قائداً للجـيش بعـد ذلـك، وتم تشكيل وزارة برئاسة إبراهيم هاشم، وأعلنت الأحكام العرفية في البلاد وعاد السلام إلى ربوع الأردن وعاد الهدوء والطمأنينة إلى نفس الحسين.

ولكن في العام التالي ١٩٥٨ واجه الحسين أزمة أخرى خطيرة في حياته، فمـا كـاد الأمن والأمان يعودان إلى الأردن وتستقر الأمور ويقوم الاتحاد العربي بين العراق والأردن حتى جاء يوم ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ حين أطيح بالنظام الملكي في العراق في انقـلاب

دموي ذهب ضحيته الملك فيصل الثاني ابن عم الحسين وجميع أفراد الأسرة المالكة بمن فيهم الأطفال والنساء. وكانت لحظات قاسية على الحسين فقد كان فيصل ابن عمه وصديقه وتوج معه في نفس اليوم ولم يُعرف عنه أنه قام بإيذاء أي كان في العراق، كان شاباً وديعاً مهذباً، وكان على وشك الزواج، كان يبلغ الرابعة والعشرين من العمر حينما قُتل، وفي باب آخر من هذا الكتاب تفاصيل وافية عن نهاية الأسرة المالكة في العراق.

أما الحسين وبحكمته المعروفة فإنه رفض التدخل العسكري في العراق بحكم ميثاق الاتحاد وقال لمن أشار عليه بذلك: ((نحن لسنا شعباً تواقاً إلى أن يفرض نفسه على الآخرين، فإذا كان شعب العراق قد صمم على اختيار أسلوب آخر لحياته، فله أن يتدبر أمره بنفسه، مهما كانت وجهة نظرنا إزاء ذلك، وربما بادرنا إلى العمل فيما بعد إذا طلب إلينا التدخل ولكن ليس قبل ذلك)). ويبدو أن الحسين كان يرى أن لا شيء يمكن إنقاذه فالملك وأسرته وأشخاص عديدون قد قتلوا، هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فنحن كما قال الحسين: ((لا نعرف كيف جرت الأمور حقيقة في العراق. وبالتالي فإننا لا نستطيع أن نعرف لمن نوجه ضرباتنا)).

تحمل الحسين كل ذلك بألم ولكن بألم رجل الدولة الذي يُفرق بين الأمور الشخصية والسياسة العامة، فنراه بعد حين ولضرورات الأمن والسياسة ومستقبل الأردن يعترف بالنظام الجديد في العراق ويقيم معه علاقات طبيعية.

ثم كان حادث اعتراض الطائرات السورية لطائرة الحسين لدى مرورها بالأجواء السورية في طريقها إلى أوربا. كانت لحظات عصيبة وتحتاج للجرأة والشجاعة اللتان لا يملكهما حتى الإنسان العادي في مثل هذا الظرف، طلبت السلطات السورية من طائرة الملك الهبوط في مطار دمشق، وعندما أبلغهم قائد الطائرة بأن هناك إذن بالتحليق فوق الأجواء السورية انطلقت طائرتا (ميغ ١٧) لتعترضا طائرة الملك وتجبراها على الهبوط أو إسقاطها بحجة عدم المعرفة بوجود شخصية كبيرة في الطائرة كما أعلنت سلطات الجمهورية العربية المتحدة فيما بعد. جرت مطاردات ومناورات عنيفة بين الطائرتين

الحربيتين وطائرة الملك التي كانت ترتفع وتهبط وتناور، حتى كادت أن تلامس الأرض في وقت من الأوقات إلى أن حطت بسلام على أرض مطار ماركا العسكري، ونزل الحسين وكأنه كان في رحلة استجمام بالطائرة لم يبدُ عليه أي أثر للحادثة، بقي قوياً متماسكاً شجاعاً كعادته في مثل هذه المواقف. وأخذ يستقبل بعدها الوفود الشعبية التي أمت قصر رغدان من كل مناطق الأردن للتهنئة بالسلامة.

أما أشد ما واجه الحسين من أخطار فكان انحراف بعض المنظمات الفلسطينية عن أهدافها في مقاومة العدوان الصهيوني، وتركيز معظم أعمالها وجهودها وتمركز أكثر رجالها في المدن الأردنية، حيث بدأوا بنشاطات معادية للنظام لا مبرر لها وأفقدوا السلطة والدولة الكثير من الهيبة وعمت الفوضى في الكثير من المدن الأردنية والتي أصبحت عبارة عن متاريس من الأسلحة والقواعد.

وأخذت بعض المنظمات إن لم تكن جميعها أو أغلبها تمارس سلطات الدولة في تناول قضايا المواطنين وادعاء حل مشاكلهم، وكان الحسين في هذه الظروف على علم بدقائق الأمور، ولكنه كان يقدر حراجة الموقف وحساسيته ويخشى الفتنة ويحاول جهده الحفاظ على أرواح أبناء شعبه وأمنهم، كان يتوجه بالنصائح المتتالية ويحذر من العواقب، زار عدة مخيمات وحاول إقناع رجال المنظمات بأنه معهم ويؤيد نضالهم ولكن ليس بالأسلوب الذي كان، كانوا يظنون أنهم أقوى من الدولة وأن لا سلطة في البلد إلا هم (كل السلطة للمقاومة) وصبر الحسين رغم تحذيرات رجال جيشه وإبدائهم عدم الرضى عما وصلت إليه أمور البلد.

كعادته كان يعالج الأوضاع بحكمته المعروفة وشجاعته، إلى أن وصلت الأمور حداً لا يمكن السكوت عليه لاسيما بعد اختطاف مجموعة من الطائرات وأخذ ركابها كرهائن وبعد التهديدات المتوالية للكثيرين من رجال الجيش ضباطاً وجنود بحجة أنهم عملاء للسلطة. فلم يجد الحسين بداً من التحرك، فكان تشكيل الحكومة العسكرية برئاسة محمد داود وما تبع ذلك من صدامات بين الجيش ورجال المنظمات والتي انتهت بخروج

المنظمات من المدن ثم من الأردن بعد ذلك، وعودة النظام وهيبة الدولة إلى البلد والتي كان من الممكن أن تتجنب الكثير من الأحداث التي جرت لو أنها تماشت مع نظرية الحسين في المقاومة بالابتعاد عن المدن والتمركز في قواعد خاصة هي الأنسب والأجدى في مقاومة العدو. خاصة وأن هذه المنظمات أصبحت تضم في صفوفها كل عاطل عن العمل وخارج على القانون ومتكسب ومأجور لبعض الأنظمة من كافة أو معظم الأقطار العربية.

هذا في الوقت الذي كانت ترفض فيه أنظمة عربية تدّعي الثورية وتتبنى المقاومة أن تنطلق المقاومة من أراضيها أو يتواجد فيها المقاتلون داخل مدنها حتى ولو دون سلاح، والغريب أن بعض هذه الأنظمة أدخلت قواتها لمساندة المنظمات في أحداث أيلول ١٩٧٠ بدل أن تصبح هي قاعدة للمقاومة التي تدعي الحرص عليها ومساندتها.

وقف الحسين أمام هذه العاصفة كالطود مدافعاً عما يرى أنه الحق، لم يجبن كعادته ولم يرتعد، تصرف بكل حكمة وشجاعة إلى أن عادت الأمور إلى نصابها وكان تسامحه كعادته دائماً، لم ينتقم ولم يعدم كما كان الحال شائعاً في أقطار عربية أخرى.

وأخيراً كان صراع الحسين مع المرض والذي واجهه بكل شجاعة وصلابة لم تخر منه العزيمة ولم تنهار النفسية وإن كان يرى جسده يضعف أمامه، كان يدير أمور البلد وكأن ليس هنالك ما يمنعه، لا بل والأغرب من ذلك أنه ومع اشتداد المرض عليه شارك في محادثات السلطة الفلسطينية مع اليهود بالرعاية الأمريكية في (واي بلانتيشن) وكان ذلك بدعوة من جميع الأطراف المشاركة لحل عقدة توقفت عندها المفاوضات، ورغم مرضه الشديد ذهب وشارك وتمت حلحلة الأمور بفضل رأيه وحكمته، كما أنه كان يُستشار وهو في مشفاه حول أمور كثيرة.

ومن الأمور التي لا يعلمها معظم أبناء الشعوب العربية ومنه شعب الأردن، أن الحسين شعر بحسه السياسي وبعد نظره أن هناك في الأجواء العربية أمراً خطيراً ربما كان على وشك الحدوث، فقد استنتج من خطب للرئيس العراقي المرحوم صدام حسين حول الكويت أن أموراً خطيرة ربما تحدث قريباً بين العراق والكويت، فقرر القيام سراً بوساطة

للمصالحة بين البلدين، وفعلاً قام في ٨ شباط (فبراير) **١٩٩٠** بزيارة قصيرة إلى بغـداد وحصل على الضوء الأخضر من صدام حسين، وعاد إلى عمـان وأرسـل رسـالة إلى الكويت، ولم يتأخر الرد الكويتي، ففي **١٩** شباط/ فبراير وصل وزير الخارجية الكـويتي إلى عمان حاملاً رد الأمير المرحوم جابر الأحمد الصباح، وزار الحسين الكويـت في **٢٦** شباط وبعد ذلك بخمسة أيام توجه إلى بغداد، وكان الأمر يتعلق باقتراح للتسوية يـنص على تأجير جزيرتي وربة وبوبيان إلى العراق وفي المقابل يصـدق العـراق علـى وثيقـة الاعتراف باستقلال الكويت وسيادتها في الأمم المتحدة، والتي وقعها عام **١٩٦٣** المرحوم اللواء أحمد حسن البكر رئيس وزراء العراق في ذلك الوقت والذي أصبح لاحقاً رئيسـاً للعراق، في حين لم تصادق بغداد على اتفاقية لترسيم الحدود استناداً إلى اتفاقية تعـود إلى عام **١٩٣٢**.

رفضت الكويت التنازل عن الجزيرتين، فألمح صدام للحسين بأنه مستعد للموافقة على استئجارهما لأنهما تمثلان قاعدتين استراتيجيتين وتتيحان توسيع الواجهة البحرية العراقية. عند هذه النقطة شعر الحسين أن وساطته محكومة بالفشل، وبعدها أخذت بغداد بتصـعيد الأمور مع الكويت وحتى باقي دول الخليج وأخذت وبلهجة قاسية توجه إليها اتهامـات متعددة حتى أن صدام قال في خطبة له في جلسة مغلقة لمؤتمر القمة العربي المنعقـد في **٢٨** أيار (مايو) **١٩٩٠** أن: ((أموال النفط ليست لكم وحدكم، إنها ملك للعرب جميعـاً)). وفي **١٧** تموز اتهم صدام بعض القادة الخليجيين بانتهاج سياسة نفطية وصفها بأنها لا تخدم المصالح العربية. وفي اليوم التالي اتهم العراق الكويت بسرقة نفطه، وهكذا خرجت الأزمة إلى العلن.

وفي **٢٢** تموز (يوليو) أرسل أمير الكويت الذي شعر بالقلق من التصريحات العراقيـة خطاباً إلى الحسين. إزاء هذه الأوضاع التي تنبئ بالخطر القادم انتاب الحسين شعور بالقلق فتوجه إلى بغداد في **٢٩** تموز ثم إلى الكويت في اليوم التالي. وفي الثاني من آب (أغسطس) اجتاح العراق الكويت، وكانت الكارثة التي ما زال العرب جميعاً يدفعون ثمنها.

الحسين – رحمه الله – إذن كان وبكل السبل يحاول إنقاذ الموقف وتجنيب أمة العـــرب كلها ما لا يحمد عقباه، كان يرى بعين الخبير المجرب أن غيوماً حالكة السواد تتلبـــد في سماء الوطن العربي وكان خوفه أن تمطر هذه الغيوم النار والـــدماء وتســـبب الكـــوارث والمآسي، فبذل جهوده محاولاً أن يصفي الأجواء العربية من تلك الغيوم الحارقة.

هذا الموقف الآنف الذكر للحسين ينفي نفياً قاطعاً تلك الاتهامات والتخرصات التي أطلقها الإعلام الحاقد المريض حول موقف الحسين من الأزمة وأنه كان على علم مســبق بالاجتيـــاح العراقي للكويت، وربما كانت حكومة الكويت وهي طرف بالنزاع وزارها الحسين أكثر من مرة أكثر الناس علماً بموقف الحسين من الأزمة، ولكنها المؤامرة التي دُبرت وحيكت بليل كانت تقتضي تقسيم أمة العرب وغرس بذور الفتنة بين الأقطار العربية لأن هناك وراء الأكمـــة مـــا وراءها.

هذا هو الحسين وهذه هي أفعاله طوال فترة حكمه. وقد بقي مصراً على خدمة هذه الأمـــة حتى الرمق الأخير من حياته وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى يوم الأحد السابع من شباط / فبراير سنة ١٩٩٩م. رحم الله الحسين وأسكنه فسيح جناته.

حكم المغفور له الحسين.. وجهة نظر

تولى الحسين بن طلال – رحمه الله – المسؤولية وعمره لم يتجاوز الثامنة عشرة عاماً، أي أنه في ريعان الشباب لذلك لم يكن من الغريب على الحسين وهو الإنسان برغباته وميوله ومشاعره وغرائزه قبل أن يكون أي شيء آخر أن يمارس حياته كإنسان ومراعياً في الوقت ذاته مكانتـــه كملك تتجه إليه الأنظار وترصد حركاته وسكناته صغيرة كانت أو كبـــيرة لاســـيما في ظـــل الظروف التي تولى فيها المسؤولية بداية سني حكمه.

كان جلالته يميل إلى قيادة السيارات والاشتراك في سباقاتها محلياً وعالمياً، كما كانت لجلالته هواية قيادة الطائرات بمختلف أنواعها وكذلك التمتع بالإجازات خارج الدولة، كمـــا كـــان لجلالته غراماً بالنساء الجميلات كما تقول السيدة رندة حبيب في كتابها ((الحسين أبا وابناً)).

الحسين تولى مسؤولية البلاد في ظروف استثنائية كانت تمر بها المنطقة العربية، فقد توالـــت الحركات الانقلابية والحركات المضادة وتعددت الشعارات والانتماءات والـــولاءات، فكـــان

الشارع العربي في كل مكان في حركة احتجاجات مستمرة منها ما هو على حق وأخرى بفعل توجيهات الإعلام والأيدي الخفية.

ووسط هذه الأجواء والرياح الهوجاء قاد الحسين السفينة إلى بر الأمان، وواجه الكثير من المصاعب والمتاعب والافتراءات وعمل بكل جهده على المحافظة على النظام وعلى أمن البلد وحمايته، وكان كل ذلك يتطلب الشجاعة والحكمة وبُعد النظر وهي الأمور التي عرفها القاصي والداني حول شخصية الحسين.

ولكن وللحقيقة نقول إن الظروف التي مر بها الحسين وأولويات الأمور جعلت الحسين في شغل شاغل عن إيلاء قضية التنمية الاهتمام الذي يجب أن يكون، فكان رؤساء الوزراء المتعاقبون والوزراء في تلك الحقبة يعتبرون أنفسهم موظفين إداريين مهمتهم الأولى والأخيرة إدارة شؤون البلاد كما هي وقضاء أوقات الدوام الرسمي كأي موظف ينتهي عمله الرسمي مع انتهاء دوام الموظفين، ولم نكن نشعر كشعب بأن من همومهم الأولى التنمية وتقدم البلد لاسيما في المجال الاقتصادي، بقيت البلد تتقدم ببطء شديد بحجة ضعف الموارد، علماً بأن (إسرائيل) تبلغ مساحة ما تغتصبه من أرض فلسطين أقل من ربع مساحة الأردن، ومع ذلك نجدها في مقدمة دول العالم صناعياً وزراعياً وعلمياً، بينما لا ينفك المسؤولون في بلدنا يشكون ضعف الموارد ومحدودية الإمكانات. وهنا لابد لنا من الاعتراف بأن الانقلابات العسكرية في الدول المجاورة ولاسيما ثورة مصر وشعاراتها وإنجازاتها حفزت الكثير من الأقطار العربية على تدارك الأمور وتحسين خدماتها لشعوبها ومحاولة العمل على إنجاز مشاريع تنموية مختلفة لاسيما في مجالي التعليم والصحة.

ربما كان المرحوم وصفي التل أول رئيس وزراء فكر بقضايا التنمية وزيادة الإنتاج ومجانية الخدمات الصحية والتعليمية ولكنه لم يكن مبدعاً بما فيه الكفاية فقد كان محكوماً بالظروف السياسية التي تمر بها البلاد إلى جانب ضعف الإمكانات ومحدودية الموارد، وبقيت إنجازاته محدودة وإن تكن واضحة كإنشاء الجامعة الأردنية ومحاولة محاربة الفساد والإثراء غير المشروع.

الظروف التي مر بها الحسين وشدة خطورة الأحداث جعلته يتعاون مع طبقات معينة من أبناء الشعب الأردني معروف عنها الولاء المطلق للنظام، وكانت المناصب العليا تتداول بين طبقة

معينة وغالباً ما تكون وراثية وهنا مكمن الخطورة حيث غالباً ما يسير الابن على خطى والده أو قريبه من باب الإعجاب وللدلالة على أن خطى الأب أو ابن العم كانت صائبة ولا مانع من السير على نفس الخطى، وبالتالي عدم الكشف عن أية أخطاء أو فساد كان قد حصل.

حاول الحسين التعاون مع رجال آخرين ولكنه لم يجد منهم الإخلاص ربما أو كانت لهم وجهات نظر أخرى مخالفة فكان أن عاد إلى الوجوه القديمة إياها، لذلك لم تنطلق المسيرة كما يريدها لا الحسين ولا السواد الأعظم من أبناء شعبه. وكل الأمل الآن معقود على جلالة الملك عبد الله الثاني لتصحيح المسيرة وتلافي الأخطاء والنهوض بالبلد كما يلمس كل أبناء الأردن المخلصين حيث أن جلالته لا هم له سوى نهضة البلد وتقدمها وتأمين الرفاه لمختلف طبقات الشعب ورفع الحيف والظلم عن كل مظلوم. آملين أن يحقق الله على يدي عبد الله كل ما يتمناه أبناء الأردن من عزة وتقدم وإكمال مسيرة والده الحسين والذي بدأ مشوار البناء والتقدم وكان يحلم بالمزيد دائماً رغم الظروف الصعبة التي واجهته معظم سنوات حكمه الرشيد. والله الموفق.

الملك فيصل الأول
مقاتلاً ومفاوضاً

كان يوماً ربيعياً من أيام ١٨٨٥م حينما جاءت البشائر بسلامة الأم، وبالولد الثالث للشريف حسين بن علي من زوجته عابدية ابنة عمه الشريف عبد الله، إنه الطفل الأمير فيصل، والذي حُمل في يومه الثامن إلى عرب عتيبة خارج الطائف للرضاع، عملاً بتقليد هاشمي قديم. درج فيصل من الخيام وترعرع في حضن البادية، فعدا حافياً مكشوف الرأس والصدر في الشمس المحرقة، وفي الليالي المقمرة وتبارى في العدو مع صبيان العشيرة وكذلك في القفز وركوب الخيل ورمي السهام.

وفي هذه الأثناء كان الحسين يلعب لعبة سياسية حول الدولة العثمانية لما آلت إليه أمورها، فما كان من السلطان إلا أن استدعاه إلى الأستانة للإقامة فيها، ولبى الشريف الدعوة مصطحباً أهله وعياله وأقاموا في الأستانة ضيوف السلطان وربما أسراه ولمدة سبعة عشر عاماً. ولحرص الشريف الحسين وغيرته على اللغة العربية وآدابها استخدم شاباً سورياً من دمشق معلماً خاصاً لأولاده. إنه المعلم صفوت العوا والذي جاء يوماً يشكو للشريف من أن فيصلاً ليس مجتهداً في دروسه وقد هدده بالعصا إذا كان لا يجتهد مثل أخيه عبد الله. فقال الحسين: ((إضربه يا بني ولا تخف)) ثم استدعى فيصلاً وقال له: ((يا فيصل إن كنت لا تجتهد في التحصيل اليوم، فسوف تندم غداً، ولا تظن أنك شريف، وأن هذا يكفي، الشريف يا بني بعلمه وعمله، شريف بأدبه وأخلاقه)).

كان الشريف فيصل في النصف الأول من العقد الثالث من عمره عندما عاد إلى الحجاز مع أبيه، الذي تقلد منصب الإمارة في مكة، وعينه مديراً لشؤون البدو فكانت وظيفته تستوجب الحملات التأديبية من حين إلى آخر، فيخرج وأخاه عبد الله بحملة على الغزاة والمتجاوزين.

وفي سنة ١٩٠٢ ثارت عسير على الدولة واحتل رجال ألمع أبها باسم الإدريسي، وهموا بالزحف على الحجاز، وجهز الشريف حملة بلغ عددها سبعة آلاف، وسيرها على

الإدريسي بقيادة الشريف فيصل، ومشت الحملة في صيف ذاك العام إلى تهامة واستولت على القنفذة. ولكن أهم عدو جابهته تلك الحملة كان يتكون من الحر والعطش والملاريا. بعد أن زال الحر استولى جيش فيصل على أبها وأخرج الإدريسي منها، ثم عاد الأدارسة فاستولوا عليها، فقد أصيب فيصل نفسه بالملاريا وعاد محمولاً على كرسي إلى مكة، وقد لزمه إثر هذه الحمى طويلاً فأضعفه وهدّ قواه، حتى أن إشاعة سرت في الحجاز بأن فيصلاً قد توفي أثناء الحملة من الملاريا، وبلغت الإشاعة بيته، فذعرت ابنته الصغيرة ووقعت على رأسها وأورثتها الصدمة شللاً أقعدها، وما نجح فيه علاج الأطباء.

وفي السنة التالية انتخب فيصل نائباً عن جده في مجلس المبعوثان فعاد إلى الأستانة، وكان ذلك أول عهده بالسياسة، وفي الأستانة انتمى فيصل إلى الحزب العربي، وظل من الموالين للدولة لا بل كان ينادي بالتفاهم بين الترك والعرب وبالحكم اللامركزي. وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ودخلتها الدولة العثمانية كان فيصل في سوريا مع جمال باشا، وكان رسولاً بين والده وجمال وهو الذي بلّغه احتجاج الحسين على إعدام زعماء العرب.

في عام ١٩١٦ قام أنور باشا يرافقه جمال باشا والي سوريا بزيارة إلى المدينة المنورة، وقدم معهما من سوريا الأمير فيصل ووفد من العلماء يرأسهم الشيخ أسعد الشقيري – والد المرحوم أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية قبل عام ١٩٦٧ – وكان أسعد الشقيري مفتي الجيش الرابع العثماني الذي كان يقوده جمال باشا. وكان الإنكليز في هذه الأثناء باشروا بمفاوضة أمير مكة الشريف حسين للعمل على استقلال البلاد العربية. وبعث الحسين يعتذر لأنور على عدم تمكنه من زيارته في المدينة المنورة، وأرسل سيفين مرصعين بالحجارة الكريمة هدية منه إليه وإلى رفيقه جمال باشا. وقد أظهر الوزيران في هذه الزيارة للمدينة المقدسة من الورع ما يعجز عنه الوصف، وفي هذه الأثناء كان الأمير فيصل ملازماً لهما مشاركاً في كل مظهر من مظاهر الحفاوة والإكرام.

ولم يكن يخطر ببال الوزيرين بأن هذا الشاب الهاشمي الذي يرافقهما سيكون بعد قليل من أنشط العاملين لمطاردة جيوشهما، وأن البداية ستكون من هذا البلد الطيب الذي هم

فيه، ويبدو أن فيصلاً لم يكن يعلم ما يدبره والده وإلا لما كان عاد مع الوزيرين إلى سوريا وهناك كاد أن يقع في قبضة جمال باشا لولا حيلة دبرها والده.

وعاد الأمير فيصل صيف ذلك العام من سوريا بأربعة آلاف بندقية وعشرة آلاف ليرة ليجهز حملة من العرب تشترك مع الترك والألمان في الزحف على ترعة السويس. ولما وصل إلى المدينة سمع النفير يستنفر من ظلال الكعبة القبائل لمحاربة الأتراك، فما كان منه إلا إطاعة أبيه الذي كان بدأ بتأليف جيش من القبائل تحت قيادة نجله الأمير عبد الله فانتظم فيصل في هذا الجيش، ثم أسندت إليه قيادة جيش الشمال المشهور، فباشر عمله في حصار المدينة وتخريب قسم من سكة الحديد قرب العلا ليؤخر وصول النجدات العثمانية من الشام.

ثم حاول فيصل متابعة الهجوم، وخرج الأتراك من حصونهم في شهر آب وحدث قتال شديد بينهم وبين العرب، وعاد الأتراك بعده إلى المدينة واتخذ فيصل مقراً له بين العلا وينبع، وأخذ يعمل وينتظر إنشاء جيش نظامي يدير جيوش البدو، إذ أن الإنكليز كانوا قد أسروا مجموعة من الضباط العرب الذين كانوا يحاربون مع الأتراك وجاءوا بهم إلى مصر، وكان معظمهم من العراق وسوريا وفلسطين، وبدأ التجنيد لجيش العرب الشمالي فلبى الضباط العرب دعوة الشريف حسين وشاركوا في ميادين القتال مثل جعفر العسكري وجودت البغدادي ونوري السعيد ثم عزيز المصري وغيرهم. جاء هؤلاء من مصر وكان يقود قسم منهم أمير اللواء علي باشا وانضموا لجيش الأمير فيصل الذي شرع يزحف شمالاً في شتاء ١٩١٧ حتى وصل حدود بادية التيه.

وكان الأمير علي مشتغلاً بضرب مراكز الأتراك على جانبي سكة الحديد وحمى بذلك مؤخرة جيش أخيه، وكان أعظم انتصار حققه هذا الجيش دخول مدينة العقبة ٦ تموز ١٩١٧. ثم دخل جيش فيصل معان والكرك ووادي موسى والطفيلة واستمر في زحفه حتى وصل البحر الميت. وكان الجنرال النبي قد استولى على أريحا وعبر بجنوده الأردن

وتقدم نحو عمان. واستمرت المعارك بين كر وفر إلى أن دخل فيصل بقواتـه دمشـق في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٨ ودخلت سرايا من الجيش البريطاني إلى بيروت.

وكانت فرنسا أرادت أن تثبت وجودها في هذه المنطقة، فأرسلت ثلاثة طـوابير مـن جنود الجزائر وتونس والمستعمرات لتشترك في الدفاع عن ترعة السويس وفي الهجوم على فلسطين. وكانت قد باشرت أوائل ١٩١٧ إنشاء الفرقة الشرقية من متطوعي الأرمـن والسوريين. وكانت فرنسا أثناء مفاوضات الشريف حسين مع الإنجليز قد أرسلت وفـداً من مسلمي الجزائر إلى الحجاز يحمل هدية إلى الشريف عبارة عن ساعة ربما كانت ترمـز إلى هدية مثلها من خليفة عربي إلى ملك الفرنجة في سالف الأزمان، ثم أرسلت بعض المواد والمعدات الحربية وبعض الضباط إلى جدة ليشاركوا في تنظيم الجيش الحجازي ويظهر أن ثلاثة منهم رافقوا بعدئذٍ جيش الشمال إلى دمشق.

انتهت الحرب الأولى عام ١٩١٨ ولم يبق في البلاد السورية أحد من الجنود الأتراك أو الألمان، وما كادت البلاد تخرج من مظالم حكومة الاتحاد والترقي حتى دخلت في ظلمات أشد من الفوضى والانقسام وغياب أي سلطة حاكمة، أما بريطانيا وفرنسـا فتضـاربت مصالحهما وكانت كل قوة منهما تكيد للأخرى وتعمل ضدها سراً.

دخل فيصل دمشق دخول البطل الظافر والمنقذ المحبوب فاحتلت جيوشـه العربيـة ومعها بعض الجنود الإنكليز البلدان التي فتحت لهم أبوابها وقلوبها مهللة مرحبة، ورفـع العلم العربي الرباعي الألوان فوق دور الحكومة من السويداء إلى حلب ومن دمشـق إلى بيروت. فاضطربت على السواحل وفي لبنان أقوام وطربت أقوام. غير أن العلم العـربي سرعان ما أنزل من سماء بيروت حينما وصلتها القوات الفرنسـية. وخرجـت حينهـا السياسة من طورها العربي إلى أطوارها الدولية والمذهبية المتعددة.

وتبعة ذلك كله لا شك تعود إلى خيانة الحلفاء لوعودهم ومطامعهم وكذبهم الصراح والمكشوف أمام العالم. ففي خلال شهر واحد من الزمان صدر منشوران، الأول نشر في أيلول قبل احتلال البلاد السورية، والثاني في الشهر التالي، أي بعد الاحتلال وفيه نقض لما

جاء في المنشور الأول. منشور ما قبل الاحتلال يقول: ((إن الغاية التي من أجلها تحارب بريطانيا وفرنسا في الشرق هي تحرير الشعوب الرازحة منذ زمن طويل تحت ظلم الأتراك تحريراً تاماً وناجزاً، وإنشاء حكومات وطنية تستمد قوتها من أهالي البلاد عملاً بإرادتهم ووفقاً لاختيارهم الحر)).

أما البلاغ الثاني الذي أصدره الجنرال بُلس المتعلق (بإدارة أراضي العدو المحتلة) والمؤرخ ٢٢ تشرين الأول (أكتوبر) فهو يقسم البلاد السورية فيما يشبه الطريقة التي قسمت بها سابقاً في معاهدة سايكس – بيكو وهي المعاهدة المعروفة والتي قسمت بلاد الشام إلى مناطق نفوذ بريطانية فرنسية، ولكن بلاغ الجنرال بُلس كان يقضي بوضع المنطقة الشرقية من حلب إلى دمشق تحت إدارة عربية.

هذا البلاغ لم يرض أحداً لا العرب الطامحين إلى السيادة والاستقلال ولا الإنكليز الذين لا يريدون أن تكون فرنسا في سوريا، ولا فرنسا التي تطمع بكامل الغنيمة، فاتفاقية سايكس – بيكو كانت تضمن لهم أضعاف هذه المنطقة مساحة. حيث تم إرضاءهم بعد ذلك بضم المنطقة العربية من حلب إلى دمشق لنفوذهم. وأخيراً اتفق على أن يذهب فيصل ليمثل العرب في مؤتمر فرساي للسلام.

وفعلاً ذهب الملك فيصل من دمشق إلى بيروت فدخلها مثلما دخل دمشق زعيماً محبوباً، وكان له فيها استقبال فاق استقبال الدمشقيين رونقاً وبهاءاً، في بيروت نزل فيصل ضيفاً على الجنرال بلغين قائد الفرقة البريطانية (٢١) وأقام في المدينة ثلاثة أيام، وصرح قبل مغادرته أنه ذاهب للمطالبة باستقلال البلاد العربية. وفي ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ أبحر من بيروت فاستقبل في مرسيليا استقبالاً رسمياً، وما كاد يصل إلى باريس حتى استحالت شهرته العربية إلى شهرة أوربية بل إلى شهرة حملها البرق على أجنحة الصحافة إلى أقطار العالم المتمدن كافة.

كان الأمير في باريس قطب دائرة باهرة من دوائر السياسة ولا غرو فهو لطيف في مقابلته، مؤنس في مجلسه، مقنع في حديثه، أدهش الصحفيين. وقد أعجب بالأمير كثيرون

من السوريين واللبنانيين الذين كانوا يقاومون سياسته العربية بسياسة لبنانية – فرنسية، وجاء باريس وفود من سوريي أمريكا ليعلنوا رسمياً أنهم من أنصاره.

وفي باريس صرح وزير خارجيتها بيشون في ٢٩ كانون الأول بأن لفرنسا حقوقاً تاريخية وشرعية وثقافية في سوريا لا تتنازل عنها قطعاً. ورد الأمير فيصل ببيان عرض فيه مطالبه ومطالب العرب مراعياً في الوقت ذاته مصالح بريطانيا وفرنسا في المنطقة، ففي بيانه لم يذكر لبنان، واعترف بوجود مستشارين ومشرفين إنكليز في البلاد، مع ما هو معترف به من استقلال الحجاز واليمن، وقبول نوع من الوصاية الأجنبية على كل من العراق وفلسطين. حاول الأمير في هذه العريضة أن يوفق بين سياسة بريطانيا وسياسة والده ولم يغفل فرنسا تماماً.

ربما يأخذ البعض على فيصل بعض المواقف، ولكن فيصل ما كان يقف مثل مواقفه إلا لأنه كان يعلم تماماً حال العرب من التخلف والضعف، وما كان يسود البلاد من جهل وفقر وعدم دراية بأساليب الحياة الحديثة، في الوقت ذاته فإنه يقف أمام مطامع دول هي قمة التقدم العالمي آنذاك فهو يدرك تماماً أن لا حول له ولا قوة لمواجهة أطماع تلك الدول، فهو يريد إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وربما كان يعمل وفق سياسة خذ وطالب في ذلك الوقت. فإذا كان العرب هذا حالهم مع دولة الكيان الصهيوني بعد أكثر من تسعين عاماً على مواقف الملك فيصل، حيث العرب في حال تحرر ونوع من التقدم والتعامل مع إنجازات العصر وإن كان محدوداً فكيف الحال مع الملك فيصل في ذلك الوقت وهو يواجه ويعاند أعظم دول العالم وبواقع عربي سبق ذكره، الحقيقة أنه عندما نريد تقييم مواقف تاريخية فإن علينا أن نضع أنفسنا في الحقبة التي نقيمها وندرسها من كافة وجوهها ثم نصدر أحكامنا، أما أن نصدر أحكامنا الآن على أحداث مر عليها عشرات أو مئات السنين وبمفهومنا الذي نعيش فإن الأمور لا تستقيم ولا يمكن أن يكون الحكم واقعياً وصحيحاً.

نعود إلى المؤتمر لنقول إن الحكومة الفرنسية لم تقبل أن يحضر فيصل الجلسات إلا بكونه قائداً من قواد جيش الحلفاء، فدخل بهذه الصفة وارتقى في مطالبه إلى الوحدة العربية التي تشمل الأقطار العربية كلها من جبال طوروس إلى اليمن ومن الموصل إلى حضرموت.

أما في سوريا فكانت الأوضاع مضطربة والصراع مستمراً، فقد احتل العرب إنطاكية فجاء الفرنسيون يخرجونهم منها، فرفع فيها العلمان الفرنسي والعربي، احتل الجيش البريطاني الاسكندرون فجاء الفرنسيون من البحر يحتجون عليهم، فرفع فيها العلمان، وتخاصم أسفلهما الفريقان، وكانت كذلك الدسائس العربية على الفرنسيين والتجسس لهم أيضاً، وبدأت رؤوس الطائفية بالظهور مؤيدة للفرنسيين على العرب، وكانت احتجاجات الفرنسيين وصيحاتهم المتواصلة على الإنجليز وعلى العرب وعلى الجيش الشريفي والقيادة العامة وعلى كل من قاومهم سراً وعلناً أو رفض أن يعترف بحقوقهم الثقافية والتاريخية والشرعية المزعومة في البلاد. ومن أسباب الاضطرابات أيضاً تعدد الحكومات في البلاد، فكان فيها القيادة البريطانية العامة، ثم سلطة الانتداب الفرنسي، ومجلس إدارة لبنان، والحكومة العربية، ورجال الدين والأعيان، وبعض الحكومات المحلية. ومن تلك الأسباب جهل أولياء الأمر من العرب بالسياسة الدولية وجهلهم بطباع الأوربيين، وجهلهم حتى خطة البريطانيين في أطماعهم، الأطماع التي قيدتها أحياناً وعودهم في الحرب مما اضطرهم للمراوغة والكذب والسياسة السرية في تنشيط العرب تارة وتثبيطهم طوراً.

أثناء تواجده في فرنسا عرض أحد أساطينها المسيو كليمنصو على الأمير فيصل بعض مقترحات تضمن فرنسا استقلال سوريا تحت إمارته وبمشاركتها في بعض الأمور الاختصاصية والاقتصادية وتضمن كذلك استقلالاً نوعياً للبنان إلى أن يتم الاتفاق بينه وبين سوريا. ولكن الأمير رفض ما عرضه عليه الوزير وعاد إلى سوريا ليستشير الأمة،

وربما بدأ يدرك عدم جدية الفرنسيين والإنجليز في عروضهم وأنهم يريدون كسب المزيد من الوقت لتثبيت أقدامهم.

ولعل من الأمور التي جعلت الأمير يرفض؛ ما سمعه من وعود الرئيس الأمريكي ولسون حول تقرير المصير للشعوب. وعاد إلى سوريا وهو يمني النفس بالتخلص من الحكومتين البريطانية والفرنسية وبمساعدة الحكومة الأمريكية هذه المرة. ووصل بيروت في ٣٠ نيسان (إبريل) والأمة كانت بانتظاره وهي تواقة لأخباره وتصريحاته بعد غياب دام خمسة أشهر. هذا وقد استقبله في بيروت القائدان البريطاني والفرنسي استقبالاً ملكياً.

وخطب في الناس وأدهشها ما قال حيث جاء في خطابه: ((الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى، حرية الأمة بيدها، لنسع متحدين فنحيا حياة عزيزة، الاستقلال التام في الاتحاد التام، ثم قال: إكراماً للفرنسيين والبريطانيين لا أنكر أننا في حاجة إلى المساعدات المادية والاقتصادية والعلمية، ولكننا سنطلب هذه المساعدات بأجرتها، وستستخدم الحكومة الأخصائيين من الأجانب وتدفع رواتبهم من مال الأمة)).

وكان الأمير أشد لهجة في دمشق حيث قال: ((الأمة السورية تروم الاستقلال التام الناجز ولا تقبل بغيره بديلاً)).

وصل الأمير قبل اللجنة الاستفتائية الأميركية وبشر بقدومها وحث الشعب على أن يطالب بالاستقلال التام دون شرط ولا قيد ((برهنوا على أنكم لستم كأنعام تباع وتشترى، الاستقلال بدون حدود البتة والحرية بدون قيود أجنبية، من يطلب فرنسا أو انكلترا أو أمريكا أو إيطاليا فهو ليس منا)) ثم زار المجلس التشريعي في ٧ أيار (مايو) فرحب به أعضاؤه ونادوا به زعيماً – الزعيم الأكبر – لك الأمر وعليك بعد الله الاتكال، وفي هذا الشهر تنازل الأمير عن الخطة السياسية التي كان من شأنها أن تربط سوريا بالحجاز، بل تجعلها تابعة لحكومة والده، فقبل الشريف الحسين ذلك حباً بما بدأ يتبلور من الآمال، وأرسل فيصل رسالة إلى مؤتمر الصلح يبلغه بذلك.

أما في ما يختص بسوريا فقد كان لفيصل رأي في تقسيم البلاد إلى مقاطعات، وفقاً لحالاتها الطبيعية والاجتماعية، صرح بذلك خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء إلى دمشق ليهنئه بعودته سالماً من باريس، وليؤكد له أن فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام إلى سوريا. رحب الأمير بهم وخطب فيهم خطبة بليغة من ضمنها قال: ((أقول بكل حرية إن لبنان مستقل داخلياً وإدارياً، ويلزم أن يبقى ما يلحق به مستقلاً وممتازاً، مع المحافظة على الارتباط بالوحدة السورية. ولكن هذا الانضمام لا يكون إجباراً بل اختياراً، وإني مستعد أن أعطي الضمانة الخطية لكل ما أقول. وما كان عندنا ولا يكون أدنى فرق بين لبناني ودمشقي أو مسلم ونصراني ودرزي)).

وصل الملك فيصل في شهر أيار عام ١٩١٩ إلى ذروة القوة والنفوذ، وكان عاملاً بمبادئه، واثقاً من نفسه ذا رأي يسمع ويطاع، ولكن الفرنسيين لم يثقوا كل الثقة به خصوصاً المندوب السامي وكبار الضباط.

اجتمع فيصل مع جورج بيكو في ١٧ أيار وعرض عليه شروطه بصراحة لا غبار عليها. وقال إنه يقبل بالانتداب الفرنسي إذا ألغيت اتفاقية سايكس – بيكو وإذا ألغي في المنطقتين الشرقية والغربية الحكم العسكري وسحبت فرنسا جنودها من البلاد وإذا انحصرت المساعدة الفرنسية بالأخصائيين الماليين والمدربين العسكريين والمهندسين والمستشارين في دوائر الحكومة. وقيل إنه طالب بأن تضم الموصل إلى سوريا، وأن تساعد فرنسا عرب العراق في استقلالهم. ولكن المسيحيين في المنطقة الغربية تآلبوا أثناء هذا الشهر على السياسة الفرنسية السورية وعقدوا الاجتماعات لتأييد استقلال لبنان وتوسيع حدوده لطلب الانتداب الفرنسي. ولأجل هذه الغاية أوعز بيكو لبعض أعيان لبنان ورؤساء طوائفه أن يرسلوا البطريرك الماروني إلى باريس ليمثل اللبنانيين لدى الحكومة الفرنسية ويطالب بحقوقهم. وقد انتدبت أكثر الطوائف غبطة البطريرك الياس الحويك لهذه الغاية. سافر إلى إيطاليا أولاً وأقام شهرين قابل خلالهما قداسة البابا، ثم سافر إلى باريس وقابل كليمنصو الذي أعطاه كتاباً يعد فيه بتحقيق ما يطالبون به من الاستقلال

والانتداب. فقفل غبطة البطريرك راجعاً يحمل هذا الكتاب إلى موكليه، فوصل إلى بيروت في ٢٥ كانون الأول ١٩١٩ وتكلم في الاحتفال الذي أقامته له حكومة لبنان فقال: ((قد كان اتحادكم من أسباب نجاحي، فأؤمل أن تثابروا على هذه الخطة، فيحيا لبنان بعد أن يكون قد نال استقلاله. . ولكم خيار ضمني باستدراجه إلى الحياة بمساعدة الدولة المحبوبة التي حرمت نفسها خدمات أحد أعظم أبنائها – الجنرال غورو – حتى تكلفه بمهمة دعوها مهمة إبداع وخلق)) ثم خاطب غورو باللغة الفرنسية قائلاً: ((إني أجهر على رؤوس الأشهاد أن فرنسا تحب لبنان وتساعد لبنان، وها نحن نفتخر بفرنسا ولاسيما بعد أن أوفدت إلينا الجنرال غورو)).

هكذا وبينما كان الأمير فيصل يدعو الناس إلى وحدة سورية قومية لا تفرق على أساس من الدين أو العرق أو الجهة قام اللبنانيون والاكليروس يستحثهم ويغريهم، يطالبون بوحدة لبنانية، فقلدوا البطريرك زمام أمرهم وجعلوا المسألة دينية مذهبية، وأبوا أن يكون لهم أدنى علاقة بالمسلمين وعندما وصلت لجنة الاستفتاء الأميركية إلى سوريا عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبيات الدينية والمذهبية، إلا أنها فضحت ألاعيب فرنسا وكشفت مزاعمها لأن أقلية لبنانية فقط طلبت الانتداب الفرنسي، ولم تشمل هذه المطالب الطوائف المسيحية جميعها، ثم وصلت اللجنة إلى دمشق فطلب فريق من أهلها الوحدة السورية وفيها لبنان وفلسطين بما في ذلك الأردن بالطبع مع المطالبة بالاستقلال التام الناجز، وأن تكون الحكومة ملكية دستورية لا مركزية، ويكون الأمير فيصل ملك البلاد، ثم طلبوا المساعدة الاقتصادية والفنية من أمريكا وإذا رفضت أمريكا فمن بريطانيا، كما طلبوا أن يكون العراق مستقلاً كل الاستقلال، وأن لا يكون حواجز اقتصادية بين البلدين. ثم استفتت اللجنة العلماء، فطلبوا الوحدة السورية المستقلة عن الحجاز، وحكومة دستورية لا مركزية على رأسها الأمير فيصل، ومساعدة دولة غنية قوية لا مطامع استعمارية لها. وكان هناك فريق يدعو للوحدة العربية الحجازية الإسلامية.

ظلوا متشبثين بآرائهم عاملين سراً وجهراً في نشرها وتعزيزها. وبينما كانت هذه أحلام العرب وتطلعاتهم المستقبلية كان الإنجليز والفرنسيين يواصلون التآمر فيما بينهم لتقسيم البلاد قطعاً وتوزيعها بين الدولتين مع ضمان إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وعندما بدأت المؤامرة تتوضح احتج سكان البلاد، وكان الأمير في مقدمة المحتجين وأعاد تصريحه بالوحدة العربية وأبرق إلى مؤتمر الصلح أن البلاد في اضطراب عظيم وأن الشعب يقاوم أي خطة تجعله قيد المساومات.

ثم سافر أواخر أيلول ١٩١٩ إلى لندن لمحاولة تحقيق أهداف الأمة. وصرح للصحف بأنه يسعى لتأسيس دولة عربية تشتمل في الأقل على العراق وسوريا وفلسطين، وأنه يعتبر فلسطين جزءاً من سوريا وأنها في نظر العرب ولاية لا بلاد مستقلة.

خابت آمال الأمير في لندن، فقد أُعلم رسمياً أن الحكومة تحافظ على العهد الأخير الذي عقدته مع فرنسا، وأن المساعدة الفنية والاقتصادية المطلوبة ستكون من فرنسا لا من بريطانيا، لذلك أشير عليه بالسفر إلى باريس للاتفاق مع كليمنصو. وفعلاً سافر الأمير إلى باريس واتفق مع كليمنصو على لائحة تضمنت حل المشكل على طريقة تكفل له الحكم في سوريا ولفرنسا حق المساعدة، وللبنان توسيع الحدود والامتيازات التي يطلبها.

تردد الأمير ثم لجأ إلى المساومة، فطلب أن يكون نصف المستشارين فرنسيين والنصف الآخر من سواهم، أن لا يكون للمستشار الرأي الفاصل في الأمور، أن لا يكون في سوريا ولبنان عسكر فرنسي، وقبل أن يكون العسكر الوطني تحت إدارة فرنسية. رفض كليمنصو شروط الأمير الثلاثة واستشار الأمير من هم في معيته وكانوا بين مؤيد للوزير الفرنسي ولائحته ومعارض لها.

بعد ذلك عاد الأمير إلى سوريا وهو يعلم أن الحكومة البريطانية لا يمكن أن تخاصم فرنسا من أجله، وأن فرنسا لا تتنازل عن سوريا مهما كان من أمرها في المفاوضات وأن الحكومة الأمريكية غير مهتمة بالموضوع. ثم كان اليوم الثامن من آذار ١٩٢٠ يوم انتخب المؤتمر السوري العام فيصلاً بن الحسين ملكاً دستورياً على البلاد السورية. وحملت الأنباء البرقية خبر التتويج إلى عواصم العالم.

واجه مؤتمر فرساي النبأ بغضب وغرور، مؤتمر يتوج ومؤتمر يعترض ويحتج، وطُلب من فيصل الحضور إلى باريس ولكن الملك فيصل لم يهتم بغير أمره وأمر بلاده ولم يلب دعوة مؤتمر الصلح. وباشر بتأسيس حكومة جديدة وتنظيم الجيش.

وكانت الوزارة الأولى برياسة السيد رضا الركابي، وكان نص كتاب التكليف ما يلي:

وزيري السيد رضا الركابي:

نظراً لما عرفناه عن أخلاقكم وأهليتكم فقد عهدنا إليكم بمنصب رئاسة الوزارة لتؤلفوا هيئتها توصلاً للغاية المقدسة التي ينتظرها كل وطني بفارغ الصبر من إسعاد الوطن ورقيه سياسياً وعمرانياً والله نسأل أن يتولانا بتوفيقه لخير الأمة والبلاد. والسلام عليكم

في ١٨/١٩ جمادى الثانية ١٣٣٨هـ وفي ٨/٩ آذار ١٩٢٠

فيصل

هذا ومن الجدير ذكره أن الحكومة العربية التي تأسست في سوريا عقب دخول جيوش الثورة اجتازت ثلاثة أدوار أساسية:

١-الدور الأول كان دور الحكومة العسكرية البحتة من ٥ تشرين الأول ١٩١٨ بعد دخول جيوش الثورة وانتهى ٤ آب ١٩١٩ بتأليف مجلس المديرين وكان زمام الحكم والسياسة في هذا الدور مودعاً في يد الحاكم العسكري العام والذي كان يعمل تحت إشراف الأمير.

٢-الدور الثاني كان دور مجلس المديرين ٤ آب ١٩١٩ – ٨ آذار ١٩٢٠ بإعلان الاستقلال. المدراء العامون كانوا يقومون بدور الوزراء في هذه المرحلة.

٣-الدور الثالث وكان دور الاستقلال الرسمي وحكم مجلس الوزراء، وبدأ ٨ آذار ١٩٢٠ بإعلان الاستقلال، وانتهى ٢٥ تموز ١٩٢٠ بالاحتلال الفرنسي. وكان الحكم بيد حكومة دستورية مسؤولة أمام المؤتمر السوري العام، وكانت هذه الحكومة تتألف من سبعة وزراء تحت رئاسة رئيس وزراء يعينه الملك.

أما وزارة الركابي التي أشرنا إليها في كتاب التكليف فضمت كلاً من: علاء الــدين الدروبي رئيس مجلس الشورى، السيد رضا الصلح وزير داخلية، السيد سعيد الحسـيني وكيل لوزير الخارجية، على أن يديرها السيد عوني عبد الهادي ريثما يحضر، اللواء السيد عبد الحميد وكيل وزير الحربية على أن يديرها رئيس أركان الحـرب السـيد يوسـف العظمة، السيد فارس الخوري وكيل وزير المالية، السيد جلال الدين وكيل وزير الحقانية، السيد ساطع الحصري وزير المعارف، السيد يوسف الحكيم وكيل وزارة التجارة والزراعة والنافعة.

ثم كانت الوزارة الثانية في عهد الاستقلال برئاسة السيد هاشم الأتاسي، وضمت كلاً من السادة رضا الصلح وعبد الرحمن الشهبندر ويوسف العظمة وفارس الخوري وجـلال الدين وساطع الحصري وجورج رزق الله.

هكذا كان الملك فيصل يدبر أمر البلاد السورية ويضع الأسس لقيـام المؤسسـات وإنشاء الدولة العربية العصرية وكان يظن بأنه يطبق سياسة الأمر الواقع محلياً وعالمياً وان من الصعب على أية قوة أن تسلب هذه المكاسب وبأية ذريعة أو حجة، لاسيما وأن دول الحلفاء كانت تدعي بأنها تدافع عن حق الشعوب في الحرية والسيادة والتقدم لا بل إنهـا تمدُّ يد المساعدة والعون من أجل أن تحقق الأمم أهدافها ومطالبها. ولم يكن وهو العـربي الأصيل والذي يقدر قيمة الوعود والتعهدات، وأن نقضها وعدم الوفاء بهـا والكـذب المستمر على الآخرين إنما هو نقيصة في الرجولة وعار ما بعده عار.

كان الملك فيصل لا يخطر بباله وهو مع والده وأشقائه وشطراً كبيراً من أبناء شـعبه العربي قد وقفوا بالأمس مع هذه القوى الطامعة المراوغة ونصروها على أبناء دينهم طلباً للحرية والاستقلال، وعندما رأوا ظلم أشقائهم في العقيدة وانحرافهم عن مبادئها السمحة السامية لاسيما بعد تسلم زمام أمور دولة بني عثمان جماعة الاتحاد والترقـي الطورانيـة المتعصبة.

لم يتوقع فيصل أن تصل الأمور بفرنسا وبريطانيا إلى هذا الحد من الخيانة ونكث العهود، فما كاد رحمه الله يبدأ بإرساء قواعد دولته العربية المعاصرة حتى جاءه إنذار الجنرال الفرنسي غورو والذي يتضمن شروطاً ظنها تعجيزية ولا قدرة لحاكم على القبول بها. ولكن فيصل الذي كان يعرف مدى إمكاناته وإمكانات دولته الفتية مقابل قوة فرنسا العظمى فاجأ غورو وحكومة فرنسا بقبوله للإنذار واستعداده لتنفيذ ما ورد به، مع أن مجموعة كبيرة من أعضاء المؤتمر السوري كانت تعارض قبول الإنذار، والملك عندما اتخذ قرار القبول اتخذه بالاتفاق مع وزرائه وفريق من أعيان المدينة، ولكن غورو كان بإرساله الإنذار يتذرع بحجج واهية ويتحايل بحيل مكشوفة بتحريض من حكومته، فقد ادعى بأن القبول بالإنذار جاء متأخراً وبعد انقضاء المدة المعينة في البلاغ (الإنذار) وكان المسؤولون الفرنسيون في لبنان وعلى رأسهم غورو يعلمون تماماً ما يجري في دمشق ومن قبول الملك للإنذار، إلا أنه زحف بجيشه وهو زهاء ستة آلاف من الجنود السنغاليين وأقطار المغرب العربي على دمشق متخذاً غير الطريق المعروفة.

وعندما أدرك الملك فيصل أن لا مفر من المواجهة نهض في يوم الجمعة ووقف في الجامع الأموي خطيباً وطفق يدعو الناس للجهاد ويعدهم بأنه سيكون في طليعة الجيش، وكان وزير حربيته يوسف العظمة سبقه إلى الجهاد فخرج بأربعمائة جندي ومئتين من الهجانة، يصحبهم ويتبعهم جيش من الأهالي والعربان يراوح عدده بين أربعة وخمسة آلاف رجل. ولكن العظمة وهو وزير الحربية كان يدرك أن ما يملكه من ذخائر لا يكفي لخوض معركة كبيرة ضد مثل هذا الجيش الزاحف، ولكنه أصر على القتال والشهادة، وفي **٢٥** تموز **١٩٢٠** نشب القتال بين الجيشين في واقعة دامية استمرت ست ساعات، استخدم فيها الفرنسيون الطائرات والدبابات، إنها واقعة ميسلون المعروفة والتي دخل الفرنسيون على إثرها دمشق والتي غادرها الملك فيصل ومعه بعض من يزالون في حاشيته. غادر الركب متوجهاً إلى الكسوة حيث تقرر أن تنتقل الوزارة هنالك بالقطار على أن يذهب الملك إليها بالسيارة. وقبل الخروج أعدت الوزارة بياناً تعلن فيه خروج الحكومة من العاصمة،

بغية مواصلة الدفاع عن حقوق البلاد واستقلالها. وسلم هذا البيان إلى وزير الداخلية علاء الدين الدروبي لإذاعته، ولكن الدروبي أهمل نشر البيان عن قصد.

بعد الوصول إلى الكسوة اتخذ أعضاء الوزارة عربات القطار كمساكن ومكاتب، أما الأمير وحاشيته فقد وصلوا مساء، وكان يبدو على الملك التردد والقلق، وبدا وكأنه مشغول اللب بشيء أخفاه عن مرافقيه، وربما كان ما يزال يأمل بالتفاهم مع الفرنسيين وينتظر ورود أخبار بهذا الشأن، وقد تبين بعد قليل بأنه قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين، وأرجأ جميع قراراته لحين وصول نتائج هذه المقابلة.

وإثر برقية تسلمها من موفده نوري السعيد قرر أن يكلف علاء الدين الدروبي بتشكيل وزارة جديدة، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن الدروبي كان متفاهماً مع الفرنسيين، وأن تخلفه في دمشق عند خروج الوزارة كان ناتجاً عن هذا التفاهم، لذلك ظن الملك فيصل أن الدروبي يستطيع تأليف وزارة تضمن التفاهم مع الفرنسيين. وفعلاً ألف الدروبي الوزارة وأبقى بها ثلاثة وزراء من الوزارة القديمة وزارة هاشم الأتاسي وهم فارس الخوري، وجلال الدين، ويوسف الحكيم، وأدخل أربعة وزراء جدد هم: جميل الالشي، عطا الأيوبي، عبد الرحمن يوسف، بديع المؤيد، وفي هذه الأثناء قابل كبير الأمناء السيد إحسان الجابري قنصل إيطاليا العام بدمشق والذي أعلمه بأن الفرنسيين قرروا إنهاء العهد الفيصلي، وأنهم يريدون أن يدعموا قرارهم هذا بمضبطة يتولى فيها أذنابهم ويقولون فيها: ((إن البيعة للملك فيصل قد سقطت بناء على تركه العاصمة وفراره منها)).

وأخبره كذلك بأن من الأفضل أن يعود الملك فيصل إلى دمشق لإفساد هذه الدسائس، وفعلاً عاد الملك فيصل بالقطار من الكسوة إلى دمشق. ولكن الأحداث توالت بعد ذلك بسرعة كبيرة، فقد جمع الجنرال الفرنسي غوابه قائد الحملة العسكرية التي احتلت دمشق أعضاء الوزارة الجديدة وقرأ عليهم بياناً يحمل فيه الملك فيصل مسؤولية كل ما حدث من اضطرابات دموية على مسرح سوريا في الأشهر الأخيرة واحتج الملك فيصل على هذه التصريحات وأبرق إلى الجنرال غورو محتجاً. ولكن لم يمضِ وقت طويل

حتى جاء الكولونيل تولا وسلم الملك كتاباً رسمياً باسم الحكومة الفرنسية، يدعوه إلى مغادرة البلاد، وهذا نص الكتاب: ((أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية أنها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم. وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً ٢٨ يوليو الساعة الخامسة صباحاً)).

أما الملك فيصل والذي لا حول له ولا قوة فقد احتج على القرار الظالم وأرسل صوراً من هذا الاحتجاج المطول إلى جميع الدول، ولكنه أدرك أن لا مناص من الإذعان ومغادرة دمشق، ووصل الملك وأفراد حاشيته إلى مدينة درعا واتخذوا من القاطرات مقراً لهم في الكسوة، ولكن المقام لم يطل في درعا ففي يوم ٢٩ تموز أي في اليوم الثاني لوصول الملك إلى درعا تلقى رسالة أو إنذاراً من رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي يطلب منه باسم السلطات الفرنسية مغادرة درعا.

وكان أمام الملك إما الذهاب إلى عمان جنوباً حيث يبقى على اتصال بجزء من البلاد التي بايعته ويبقيه متصلاً مع سوريا من جهة والحجاز من جهة أخرى، ولكن يبعد عن أوربا وتصعب اتصالاته بالدول صاحبة القرار.

وأما الطريق الثاني فكان غرباً إلى حيفا حيث طريق العمل السياسي والكفاح السلمي بعد أن أدرك صعوبة مواجهة القوى الكبرى المتجبرة. واختار طريق حيفا، وقد رحب الإنجليز بفكرة ذهاب الملك إلى حيفا لأن ذلك يخفف عنهم شدة الأزمة، فالإنجليز يخططون لأن يكون الأردن تحت انتدابهم وبالتالي سيكون في مأمن من اعتداءات الفرنسيين لأن الملك في حال سفره خارج الأردن يستطيع أن يواصل عمله دون أن يخشى ملاحقة الفرنسيين.

ولمعلومات القارئ فإن مصير علاء الدين الدروبي المتعاون مع الفرنسيين كان تفجير عربة القطار التي كان يستقلها في خربة غزالة مما أدى إلى مصرعه على الفور مع بعض أعوانه.

عندما توجه الملك فيصل إلى حيفا كان يقصد السفر إلى سويسرا عن طريق إيطاليا. وقد علم مرافقوه أن هناك باخرة إنجليزية كبيرة قادمة من استراليا وكان من ضمن الموانئ

التي ستمر بها السويس والاسكندرية ونابولي، وأن موعد وصولها إلى بور سعيد سيكون يوم العشرين من شهر آب، وبقي الملك ومعاونوه في حيفا حتى يوم ١٨ آب حيث كانوا يستقصون أخبار دمشق والحالة السائدة فيها، وما يتعرض له السكان في سوريا من مظالم على يد الفرنسيين، وقد تمكنت مجموعات من السوريين من الهرب والقدوم إلى حيفا، وفي صباح اليوم الثامن عشر من شهر آب (أغسطس) غادر الملك وحاشيته متوجهين إلى بورسعيد، وعند المرور باللد حضر هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين لاستقبال الملك استقبالاً رسمياً واختلى معه مدة من الزمن.

وفي بورسعيد اتخذ الملك قراره النهائي بشأن من سيصحبه في رحلته إلى أوربا، وكان العدد قليلاً وهم كل من: نوري السعيد وإحسان الجابري وساطع الحصري، والأمير زيد، مع مرافقيه صبيح وراسم، وكان الملك ومن معه يحملون جوازات سفر جديدة باسم الحكومة العربية الهاشمية تزودوا بها في بورسعيد على يد عبد الملك الخطيب معتمد الحكومة في مصر، والذي كان استقبل الملك ومرافقيه في القنطرة. وبقي الملك ومرافقوه في الباخرة حتى يوم ٢٥ آب (أغسطس) ١٩٢٠ حيث تم الوصول إلى نابولي، وأثناء الرحلة كان الملك يبحث مع مرافقيه شؤون المستقبل ويتكلم عن الخطط التي يجب السير عليها لتلافي ما فات.

هذا وقد أقام الملك فيصل في إيطاليا فترة من الوقت وكان يقيم في فيلا ده سته قرب ميلانو. وكلف ساطع الحصري بالسفر إلى روما للإقامة بها والاتصال برجال الكماليين الأتراك (أي جماعة مصطفى كمال أتاتورك).

أما النتائج النهائية لوجود الملك وحاشيته في أوربا فكانت أن لا مجال لخروج الفرنسيين من سوريا فقد اتفق كل من الانكليز والفرنسيين على أن تكون سوريا من حصة فرنسا وأن الإنكليز عليهم أن يتركوا الفرنسيين أحراراً في سوريا بعد أن تقرر انتدابهم عليها بصورة رسمية، وبعد أن سويت مسألة الموصل ونفط الموصل بين الدولتين بصورة نهائية.

وأخذ الإنكليز يعملون على تحويل أنظار الملك فيصل إلى العراق، وقد صارحوه بذلك ووعدوه بتأييد ترشيحه لعرش العراق، وبقي الملك حائراً ومتردداً تجاه هذه التصريحات والوعود في بادئ الأمر، ثم قال لهم بأنه لا يستطيع أن يتولى زمام الأمور في العراق إلا تحت شرطين أساسيين:

١- إنه لا يعترف بالانتداب، ولكنه يعقد معهم معاهدة تضمن لهم مصالحهم الأساسية، دون أن تمس سيادة البلاد وكرامتها.

٢- إنه لا يذهب إلى العراق إلا إذا طلبه العراقيون، ولا يتولى عرش العراق إلا إذا جرى تصويت عام يظهر اتفاق رأي الشعب على ملكيته.

ويبدو أن الإنجليز بدأوا يفكرون بانتقال فيصل إلى العراق غداة يوم ميسلون. وكان نوري السعيد قد ذكر هذا الاحتمال حينما التحق بالملك فيصل في درعا قادماً من دمشق، وكانت جريدة التايمز الإنكليزية قد نشرت مقالة اقترحت فيها ذلك على الحكومة قبل أن تمضي عشرة أيام على واقعة ميسلون.

أما بواعث هذه السياسة البريطانية فكانت عديدة منها ذلك الثناء العطر الذي أفضى به (لويد جورج)على فيصل في مجلس العموم البريطاني والذي قال فيه: ((لا يمكن لأحد أن يجد رجلاً أكثر استقامة وإخلاصاً وأشد رغبة في التعاون مع الحلفاء في وقت السلم كما في وقت الحرب مثل فيصل بن الحسين. كما أن رجال الجيش البريطاني الذين تعاونوا مع العرب في الحجاز وفلسطين كانوا يذكرون في كل مناسبة الخدمات العظيمة التي أدتها الثورة العربية إلى قضية الحلفاء، وكانوا يشيدون بوجه خاص بروح الإقدام والبسالة التي أظهرها فيصل في أمر تنظيم الثورة وقيادة الجيوش خلال الحرب. كما أن مفكري الإنجليز كانوا يقدرون الروح الكامنة في الفكرة العربية ووجوب مراعاتها لإمكانية التوفيق بين فكرة العروبة ومصالح الحلفاء في المستقبل. إضافة إلى ذلك كان هنالك عامل آخر هو الاتجاه الجديد الذي تكون عند الرأي العام البريطاني حيال قضية العراق)).

فالحكم العسكري في العراق جابه مشكلات عديدة، اضطرت الإنكليز إلى حشد قوى كبيرة وتكبد نفقات طائلة. وقد بدأت الصحف الإنجليزية وكثيرون من رجال السياسة الإنجليز تروج لفكرة تولي فيصل لعرش العراق والفوائد التي تعود على بريطانيا من وراء ذلك ومنها استرضاء العرب وتخليص بريطانيا من أعباء إدارة العراق، وإرضاء الملك حسين وابنه فيصل اللذين كانا قدما لقضية الحلفاء مساعدات ثمينة خلال الحرب الأولى هذا إضافة لحفظ المصالح البريطانية في العراق إذ من عادة العرب حفظ الجميل والوفاء بالوعود والعهود.

أما الملك فيصل فظل متمسكاً بقضية سوريا قبل كل شيء ولكنه عندما أحاط علماً بعد ذلك بخفايا السياسة الدولية أخذ يفكر في (ملكية العراق) بصورة جدية وصار يضع الخطط اللازمة لتحقيقها بصورة تضمن للعراق الاستقلال والتقدم، لذلك غادر فيصل إيطاليا متوجهاً إلى لندن، وبعد أن انتهت مفاوضاته مع الإنجليز في شهر آذار ١٩٢١ غادر إنجلترا في اليوم الأخير من الشهر المذكور، فوصل إلى القاهرة في الرابع عشر من نيسان ثم غادرها إلى الحجاز لملاقاة والده، وبعد ذلك سافر من هناك إلى العراق عن طريق البصرة فبلغها في ٢١ حزيران ١٩٢١. وجال في مختلف أنحاء العراق يلقي الخطب ويذيع الخطط التي سيطبقها إلى أن تم انتخابه ملكاً على العراق، وجرى تتويجه في حفلة رسمية أقيمت في بغداد في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب ١٩٢١. وهكذا انتقل الملك فيصل من سوريا إلى العراق بصورة نهائية.

جهاد الملك فيصل

ما قدر لملك من ملوك العرب في ذلك الزمان ولا حتى بعده اجتياز ما اجتازه الملك فيصل من غمرات المشاكل الوطنية والدولية، ولا قدر لسياسي من ساسة الدول الصغيرة أن يوفق مثله بين شتى العناصر المتضاربة التي اكتنفت المفاوضات لعقد معاهدة كانت تبدو دائماً طور التكوين. فلم يكن الوضع ليثبت على حال من الأحوال، وضع ذو أنوار وظلال مضطربة متقلقلة، وضع مقيد بعوامل من التبدل والتغير كانت تنبعث من لندن وجنيف ومن أنقرة وطهران والرياض، فأين من تضارب المنافع والأغراض طريق الثقة والاطمئنان، أين تلك الطريق التي كان يتلمسها الملك فيصل ويتحسسها، وقلما يجدها

سليمة أمينة، ولا غرو فقد كثر فيها لمع السراب وتعددت بها الحفر والأخاديد، فاشتد بالملك الحذر وازداد الاحتياط.

إنها لحرب سلمية، حرب في الظلام، وقد تخللتها سحب من الغازات السامة، فجعلت التقنع، التستر والمخادعة من لزوم الدفاع. وقد كانت القضية ومعضلاتها في منزلة من الأهمية تصغر عندها الشخصيات وإن كانت ملكية، وتضؤل المطامح الخاصة وإن كانت لأكبر السياسيين، فمن أهم الواجبات إذن أن تُحل المعضلات وتسوى القضايا على مبدأ العدل الثابت والرضى الدائم فضلاً عن التأمينات الوطنية والدولية.

هذه حقائق كبرى ما غابت يوماً عن بال الملك فيصل، فقد كان والحق يقال أشد ملوك العرب شعوراً باشتراك المنافع، وأكبرهم تقديراً للوضعية الأوروبية في هذا الاشتراك. على أن همه الأول كان أن يصون حقوق البلاد من غوائل السياسة التي مر ذكرها سياسة المخاتلة واللين، وأن يحفظ المملكة الفتية من عوادي الشقاق والفوضى التي بدأت تفتك بها في السنة الأولى من حياتها لاسيما وأن ثورة عارمة كانت قد اجتاحت جميع أنحاء العراق قبل مجيء فيصل بعام واحد كبدت الإنجليز من الضحايا والأموال الكثير. ولكن الملك فيصل بحنكته وتجاربه التي مرَّ بها استطاع أن يستميل العشائر والأقليات الذين كانوا يتهيئون لمناوأته وقد كان لكل خطوة خطاها اتجاه، ولكل خطة ملابسات تختص بها وبقي الملك يجاهد ويختلق لكل موقف أسلوب التعامل معه وكان يسعى ويجاهد للوصول بالعراق إلى عصبة الأمم وهو ما كان له عام ١٩٣٢.

كما كان عليه الصبر وإظهار البراعة في التعامل مع الإنجليز ومناوراتهم المعروفة عنهم مع المراوغة خاصة عند إضرام المعاهدات مع الدول الأخرى، وكانت وقعت مع العراق معاهدة عام ١٩٢٤.

وهكذا كان فيصل رجلاً مفكراً، كان في حبه وجهاده من أجل السلم شجاعاً غير هياب وشهماً كريماً لا يذكر الحساب. رجل حكيم خبير بارع في معالجة الأمور المتوقدة وفي حل المشاكل المتعقدة، وهذا شأن الرجل العظيم في السياسة، قام بتوطيد العلاقات بين العراق والدول المحيطة وكذلك البعيدة وجنب العراق الدخول في صراعات إقليمية كانت ممكنة الحدوث وكان من صفاته أن لا يبدي رأياً واحداً في مسألة من المسائل بل كان يقلب الأمور ليتسع مجال التساؤل من نواحيها كلها، فيعطي هو نفسه رأيين أو ثلاثة آراء فيها.

هذا وقد توفي الملك فيصل رحمه الله في اليوم الثامن من شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٣٣ بسكتة قلبية أصابته في مدينة برن بسويسرا، ونقل الجثمان على متن طراد بريطاني إلى حيفا، وجرى الدفن في بغداد غداة وصول الجثمان إليها بالطائرة في ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٣.

بعد مرور تسعة عقود
على الثورة العربية الكبرى
أباطيل المشككين وحقائق التاريخ

من بدهيات دراسة الأحداث التاريخية والحكم عليها أن يضع الدارس نفسه قدر الإمكان وقت حدوث الحدث الذي يتناوله وأن لا يحكم عليه وفق معطيات الزمن والظروف التي يعيش بها، والتي قد يفصلها عن وقت وقوع الحدث عشرات أو مئات وربما آلاف السنين، وإلا فالحكم لا يمكن أن يتمتع ولو بنسبة ضئيلة من المصداقية أو الصحة وحسن التقييم. هذا إلى جانب ضرورة التجرد والحكم بموضوعية بعيداً عن الأهواء والمصالح الشخصية، إضافة للمؤثرات العقدية والمذهبية وغير ذلك من شروط يجب أن يتحلى بها دارس التاريخ والمتعامل مع الأحداث التاريخية، فالمصداقية وعدم الخضوع لشتى المؤثرات والمصالح الشخصية والبعد عن المطامع والأهواء الذاتية أو الفئوية أو غيرها من أهم شروط صحة الحكم على الحدث من قِبل من يتناوله.

والآن وبعد مرور ما يقارب التسعة عقود على قيام الثورة العربية الكبرى التي قادها المغفور له الشريف الحسين بن علي مع أنجاله والتف حولها شخصيات ومجموعات عربية كثيرة ومن أقطار عربية مختلفة، لابد من وقفة تقييمية جديدة قديمة، خاصة بعدما مر بالأمة من أحداث جسيمة وانتصارات وكوارث أظهرت مدى صوابية منطلقات الثورة وأهدافها، وحسن التعامل مع الظروف القائمة وقتذاك وعدم القدرة على القفز عليها وتجاوزها، فقادة الثورة كانوا يعرفون إمكانيات بلادهم العربية ومدى التخلف التي كانت تعيش به تلك البلدان وشعوبها، وبالوقت نفسه كانوا يقدرون مدى قدرات وإمكانات الدول التي يتعاملون معها وصاحبة الأطماع في ديارهم وممتلكاتهم وبالتالي عدم القدرة

على مقارعتهم بعد أن تكشفت نواياهم الحقيقية من وراء إسناد الثورة العربيــة ومــدها بالمال والسلاح، بينما كان قائد الثورة ومعاونوه يظنون أن العالم الغربي كما هم صادقاً في وعوده مؤيداً لحرية الشعوب واستقلالها كما كانوا يعلنون ويصرحون في مختلف المحافــل الدولية.

أما لماذا قامت الثورة على بقايا الدولة العثمانية، وهل الثورة هي التي قضت على هذه الدولة حقاً كما يعتقد معظم العرب جهلاً وخطأ، وهل لعبت الثــورة العربيــة دوراً في مجريات الحرب الأولى وبدلت نتائجها والتي كانت في غالبيتها ضد مصالح الأمة العربيــة وأقطارها وهو ما يعتقده أيضاً معظم أبناء الأمة نقلاً عن بعضهم الــبعض ودون دراســة وتمحيص للأحداث وقت وقوعها وما تبع ذلك.

الحقيقة أن الدولة العثمانية وقت قيام الثورة عام ١٩١٦ كانت في حال من الضــعف غير مسبوق، وسيطر على مقدراتها رجال الاتحاد والترقي ذوو الميول الطورانية والمتنكرون للإسلام، المتعصبون لقوميتهم الطورانية، هذا إضافة إلى أن الدولة العثمانية وقــت قيــام الثورة كانت قد فقدت معظم أملاكها العربية وغير العربية، فبريطانيا احتلت مصر عــام ١٨٨٢ وجنوب اليمن عام ١٨٣٩ وفرنسا احتلت الجزائر عام ١٨٣٠ وتونس ١٨٨١ واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١. وكذلك انسحب العثمانيون من منطقة البلقان في زمن سابق. هذا إضافة إلى ما كان يفرضه العثمانيون من تخلف على كافة الأقطار التي كــانوا يسيطرون عليها خاصة الأقطار العربية، فدولة بني عثمان لم تجارِ العالم الغربي المجــاور في تطوره وتقدمه على مختلف الصعد، وحتى التعليم أساس كل تقدم كان شــبه منعــدم في الأقطار العربية، فقد رحلت الدولة العثمانية وخلفت وراءها شعباً أكثر من (٩٨%) منه من الأميين.

والنشاط الاقتصادي بمختلف جوانبه بقي على الحال التي كان عليها قبــل دخــول العثمانيين بقرون فلا تقدم في المجال الصناعي أو الزراعي والتجاري، كان هنالك مجموعة من الإقطاعيين والملتزمين وزعماء العشائر والطوائف من يسيطر على مقــدرات الــبلاد

والشعوب، ومعظم أبناء الأمة تعيش حياة الفقر والجهل والمرض، وأكبر دليل على ذلــك قلة سكان الأقطار العربية في ذلك الزمن القريب.

أما بالنسبة لفلسطين فإن من الأمور التي تغيب عن علم معظم أبناء أمتنا أن مساحات كبيرة من الأرض وعدة مستعمرات صهيونية أقيمت في فلسطين أواخر الدولة العثمانيــة وبواسطة رشى كبيرة كان يدفعها اليهود لولاة الدولة المتأخرين وكبار موظفيها.

وعلى العموم يمكننا بالنسبة لمجريات الحرب ومدى أثر الثورة العربيــة في مجرياهــا ونتائجها أن نقول إن الدولة العثمانية ربطت مقدراهما ومقدرات البلاد الإسلامية الخاضعة لها بمقدرات ألمانيا، وبالتالي فإن مجموعات من العرب والأعراب لا يملكون إلا مــا تجــود عليهم به قوى الحلفاء الإنجليزية والفرنسية بما في ذلك تموينهم وتأمين تحركاهم، عرب لم يخوضوا حروباً حديثة ولا عرفوا الأسلحة الثقيلة فكيف لهم التأثير على نتائج حرب ناشبة بين قوى هائلة تصطدم في ميادين هذه الحرب العالمية، فهل يمكن أن يتغير اتجــاه الحــرب جراء نشوب الثورة في الحجاز أو عدم نشوبها، وهل يمكن أن يكون لهذه الثورة من القوة والتأثير ما يؤدي إلى انتصار ألمانيا أو عدم انتصارها.

الثورة العربية ما كان يمكن أن تؤثر تأثيراً يستطيع أن يغير مجرى الحرب فيترع النصر من أحد الطرفين ليأخذه الآخر. إن هزيمة الألمان واستسلامهم كان من الأمــور المحتمــة نظراً لسير الوقائع العالمية، سواء أقامت الثورة في الحجاز أو لم تقم وكذلك حال الدولــة العثمانية التي ربطت مصيرها بمصير ألمانيا، فمثل هذه الحروب تتقرر نتائجها في الميــادين الغربية حيث صراع القوى الكبرى والجيوش الحديثة.

وانتصار القوى الحليفة بريطانيا وفرنسا بوجه خاص كان سيؤدي حتمــاً لاحــتلال المناطق السورية سواء أقامت الثورة أو لم تقم فالدولتان تطمعان بهذه البلاد وغيرها مــن ممتلكات الدولة العثمانية لا بل الذي حدث هو أن قيام الثورة العربيــة أشــعل الــروح الوطنية والثورية عند سكان البلاد السورية فقاوموا القوات الغازية وأشعلوا ثورات ظلت مستمرة حتى تحقيق الاستقلال ورحيل القوات الأجنبية.

أما فلسطين فالمؤامرة عليها كانت دولية وتبنتها أعظم الدول في ذلك الوقت وحتى هذه الأيام، اجتمع المال والنفوذ اليهودي مع مخططات وإمكانيات الدول الكبرى، وهنا ظهرت الإمكانيات السياسية الباهرة للهاشميين وخاصة المغفور له عبد الله بن الحسين والذي عمل كل ما في وسعه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرض فلسطين وشعبها، فالعرب مجتمعون في تلك الأيام لم يكونوا قادرين على مواجهة مخططات الأعداء ومنع تحقيقها، فكيف بدول ناشئة حديثاً كالأردن والعراق وغيرها بإمكانيتها المحدودة عسكرياً واقتصادياً وبشرياً.

ولعل الأحداث التي تلت بعد ذلك وقيام الثورات العربية التقدمية في أكثر من قطر عربي وادعاءاتها المتكررة بالعمل على تحرير فلسطين، ولكن دون أن تقدم على أي خطوة بهذا الاتجاه بذريعة أن (إسرائيل) خلفها تقف أمريكا وكل الدول الامبريالية، وعندما كانت تقع الواقعة لم يكن يحصد العرب بمختلف أنظمتهم غير الهزائم وفقدان المزيد من الأراضي العربية كان هذا بعد قيام الثورة العربية الكبرى بعشرات السنين وتحقيق خطوات لا بأس بها من التقدم والتسلح. وهذا ما يدعو كل عربي مخلص للتساؤل كيف إذن كان يمكن لرجال الثورة الكبرى والأنظمة الوليدة التي نتجت عنها وكان حال الأمة ما أسلفنا من الضعف والجهل والتخلف أن تقف بوجه الدول العظمى ومخططاتها وأهدافها وهي الدول التي كانت تسيطر على معظم أجزاء الوطن العربي وتفعل به ما تريد!

المطلوب من أجيال الأمة العربية المزيد من إعمال الفكر والمزيد من الوعي والوقوف على الحقائق بإعمال العقل والتقيد بالروح العلمية في تناول الأمور. فهذا هو طريق الأمة للنهوض وتحقيق الآمال المرجوة.

دماء على ضفاف الفرات

إذا كنا كثيراً ما نكرر ونعيد ونستذكر بطولات أسلافنا الماضية والتي مر عليها مئات القرون، ونشعر بالزهو والفخر حين استذكارها وقراءها، فإننا يجب أن لا ننسى تضحيات وبطولات جماعات وطوائف معاصرة من رجال ونساء قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل مجد أمتهم وحريتها وتقدمها، أجيالنا المعاصرة والتي تجهل الكثير عن تلك التضحيات والبطولات التي عاشتها أجيال سبقتهم بأعوام قليلة في عمر التاريخ والأمم من حقها علينا نحن الذين عشنا أحداثاً لم يعيشوها أن يعرفوا الكثير عن رجال ونساء قدموا دماءهم رخيصة من أجل عزة هذه الأمة.

وفي الصفحات القليلة سوف نقدم للقارئ الكريم نماذج من بطولات وتضحيات نفر من ضباط جيش العراق العظيم والذي أصبح في عرف العجلاء والأقزام الجدد يسمى (بالجيش السابق) إنهم كوكبة من أولئك الضباط والجنود الذين قدموا أرواحهم رخيصة وهم يسعون للقضاء على الانحراف المريع الذي قام به عبد الكريم قاسم عن أهداف حركة تموز حينما فرض على العراق دكتاتورية الرعناء وازدهرت الشعوبية في عهده وسالت الدماء غزيرة على أرض الرافدين وتنكر لأهداف الحرية والوحدة وفرض على العراق العزلة باسم الوطنية العراقية.

وهذا ما دعا أحرار العراق من عسكريين ومدنيين للعمل على تصحيح المسيرة والقضاء على الحركة الشعوبية الجديدة حين قامت عدة حركات هدف للقضاء على حكم قاسم سواء أكان ذلك بمحاولة الاغتيال أو الانقلاب.

وكان من أشهر هذه الحركات تلك الثورة التي قام بها مجموعة من كبار ضباط الجيش العراقي بقيادة عبد الوهاب الشواف في مدينة الموصل والتي عرفت (بثورة الشواف) والتي حدثت في السابع من آذار عام ١٩٥٩م.

كانت الموصل في عهد قاسم تعتبر معقلاً للقوميين والإسلاميين لذلك اختار الشيوعيون هذه المدينة لعقد ما كانوا يسمونه مؤتمر أنصار السلام والذي كان يعقد دورياً في مختلف مدن العراق إسناداً لسلطة عبد الكريم قاسم، وفي يوم الجمعة ٥آذار ١٩٥٩ وبإسناد من عبد الكريم قاسم قرر الشيوعيون وتحدياً لمشاعر الفئات القومية عقد مؤتمرهم في الموصل. أوجس المسؤولون العسكريون والمدنيون في الموصل خيفة من نتائج هذا المؤتمر وطالبوا السلطة بإلغائه أو نقله إلى مدينة أخرى إلا أن قاسم أصر على عقد المؤتمر في الموصل، وكان أيد تلك المخاوف العميد الركن ناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانية وفعلاً تم عقد المؤتمر، ولكن هطول المطر الغزير عجل في فض الاجتماع.

تحديد موعد إعلان الثورة:

للتخلص من حكم قاسم كانت الخطط تعد للقيام بثورة لإسقاطه وكان هناك خطتان للثورة: الأولى أن يقوم العقيد رفقت الحاج سري مدير الاستخبارات العسكرية وأنصاره بتطويق اجتماع لمجلس السيادة ومجلس الوزراء وإجبار المجتمعين على إصدار بيانات تتضمن بقاء مجلس السيادة وتشكيل مجلس قيادة ثورة وتعديل وزاري يتم بموجبه تنحية عبد الكريم قاسم من مناصبه وإبقائه بمنصب رئيس وزراء فقط، وفي حالة ممانعته يتم اغتياله، وتؤيد تلك البيانات فور إذاعتها من قبل القطعات العسكرية في كل من الموصل وأربيل وكركوك والديوانية والحلة والمسيب.

أما الخطة الثانية فتنفذ في حال فشل الأولى أو في حال عدم سنوح الفرصة لتنفيذها وتتم بالقوة وذلك بإعلان الثورة في الموصل على أن تؤيدها القطعات العسكرية في المدن الآنفة الذكر، كما يقوم العقيد رفعت الحاج سري فور إعلان الثورة بقيادة مجموعة من الضباط التابعين له لاغتيال عبد الكريم قاسم في دائرته بوزارة الدفاع، ومن ثم يجري

اعتقال الوزراء والشيوعيين البارزين، ويتم السيطرة على إذاعة بغداد لإذاعة بيانات الثورة.

وعندما تأجلت الخطة الأولى لسبب أو لآخر اتجهت الأنظار إلى الخطة الثانية وهي إعلان الثورة في الموصل.

وفعلاً وبعد رسائل ومشاورات متبادلة بين مجموعة من الضباط الذين تعهدوا للانخراط في الحركة أو الثورة، وبعد مشاورات مع المسؤولين في الجمهورية العربية المتحدة ومدى استعدادها لمساندة الثورة وتقديم المساعدات اللازمة لها مثل بعض الأسلحة ومحطة إرسال إذاعية، حيث تم الاتفاق على أن توضع الأسلحة ومحطة الإرسال المطلوبة في نقطة قريبة من الحدود العراقية عن بلدة (تل كوجك السورية) لتكون تحت تصرف الثوار الفوري عند تحركهم.

إعلان الثورة في الموصل ٧/ ٨/ آذار ١٩٥٩:

بعد إنجاز الترتيبات اللازمة لإعلان الثورة وتوزيع المهام على الضباط المشاركين، تم جلب الإذاعة من تل كوجك من قبل النقيب شكري الحناوي بعد أن تم نقلها من دمشق بالطائرة ومن ثم جرى نقلها إلى الموصل فوصلت حوالي الساعة الحادية عشرة ليلة ٧ /٨ / آذار ١٩٥٩، وبدأ شخص سوري مرافق بنصبها وبمعاونة مهندس ميكانيكي هو النقيب محمد أمين عبد القادر من شركة نفط عين زالة، وبدأت تذيع على موجة قصيرة فقط طولها٥ ،٤٩ ميغاوات. والتحق الرائد المتقاعد محمد سعيد شهاب بمنصب مدير شرطة محافظة الموصل وجرد أفراد الشرطة من أسلحتهم وسيطر على مشاجبهم، إلا أنه في اليوم التالي أعيد إلى أفراد الشرطة أسلحتهم وتعاونوا مع الجيش في الثورة. وذهب الرائد يونس خليل إلى تل كوجك حيث أحضر الأسلحة المتفق عليها.

وبدأت الاعتقالات في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل إذ تم اعتقال الشيوعيين المدنيين والعسكريين وقام باعتقال المدنيين كل من النقيب إسماعيل القصاب والملازم الأول

غانم محمد العبد الله وعاونهم في ذلك النقبيب عبد الجواد حميد الصائغ، وتم ذلك بالتعاون مع مديرية أمن الموصل، وأودع المعتقلون الثكنة الحجرية.

أما الوحدات العسكرية في معسكر الغزلاني فقد قامت كل وحدة باعتقال الضـــباط وضباط الصف الشيوعيين المنتسبين إليها وأرسلتهم مخفورين إلى الثكنة الحجرية بإشراف النقيب زكريا طه، إلا أن كتائب المدفعية وسرية النقليات الموجودين في المعسكر ادعـــى آمروها بأنه لا يوجد شيوعيين ضمن وحداتهم وإنهم مسؤولون عن ذلك، حيث ظهر فيما بعد أنهم اتخذوا هذا الموقف للحفاظ على خط الرجعة في حال فشل الثورة.

فقد تبين فيما بعد بأن تلك المعلومات والتعهدات كانت غير صـــحيحة وأن هنـــاك تنظيمات شيوعية نشيطة في تلك الوحدات طعنت الثورة من الخلف وكان لها دور مـــؤثر وفعال في فشل الثورة.

هذا وقد طلب العقيد الشواف من أمر القاعدة الجوية في الموصل العقيد الطيار عبد الله ناجي إرسال أربع طائرات بقيادة النقيب الطيار قاسم محمد العزاوي إلى بغداد صباح يوم ٨/ ٣/ على أن يصلوها قبل الساعة السابعة صباحاً، اثنتان لقصف مرسلات إذاعة بغداد والأخريتان بواجب قصف غرفة نوم عبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع، وقـــام العقيـــد الشواف برسم مخطط توضيحي لوزارة الدفاع وغرفة نوم قاسم، وبُلغت الأوامر للطياريين وحددت واجباتهم ووافقوا عليها.

ولكن العقيد عبد الله ناجي وعندما سمع إذاعة بغداد تذيع برامجها كالمعتاد فكر بأخـــذ خط رجعة له، لذلك أبلغ الطيارين بأن الشواف أجل الخطة. وعنـــدما اتصـــل العقيـــد الشواف بالطيار عبد الله مستفسراًعن عدم تنفيذ ما اتفق عليه أخبره العقيد الطيار بـــأن بعض الأعتدة الخاصة بالطائرات سبق وأن غرقت بالماء وأصبحت غير صالحة للرمي.

إعلان الثورة من إذاعة الموصل:

في الساعة السابعة من صباح يوم الأحد ٨ آذار ١٩٥٩ بدأت إذاعة الثورة المحلية في الموصل تبث برامجها على موجة قصيرة وأذاعت بيانها الأول إلى المواطنين القـــادة الرائـــد

الركن المتقاعد محمود الدرة وكان مما جاء في هذا البيان:"أيها المواطنون الأعزاء لم يـــدر بخلد شعبنا الأبي وجيشنا الباسل بأن يحل طاغية مستبد مجنون محل طاغية مستبد، وتـــزول طبقة استغلالية جشعة لتحل محلها فئة غوغائية تعبث بالبلاد وبالنظام وبالقانون فســـاداً، وليستبدل مسؤولون وطنيون بآخرين يعتنقون مذهباً سياسياً لا يمت لهذه البلاد العربية الإسلامية العراقية بمصلحة بلادكم الوفيرة الخيرات لم تعد إلا مسرحاً للفوضى والبطالـــة فتحطم اقتصادها الوطني وتعطلت مشاريعها العمرانية وانتزعت الثقة من النفوس واختفى النقد من الأسواق وتعبث بالبلاد مقابل ذلك كله فئة ضالة لا دين لها ولا ضمير، تخلق لها صنماً به لوثة في عقله وتعبده ولا الله وتنادي به رباً للعالمين وتسخر الدولـــة ومواردهـــا لتخلق منه زعيماً أوحداً ومنقذاً أعظم.

لقد أطلق للإذاعة والصحف عنان الفوضى لتخاصم جميع الدول، وتشنها حرباً علـــى الجمهورية العربية المتحدة رائدة مسيرة التحرر العربي، واستهتر بدستور جمهوريتنا المؤقت وسلب مجلس السيادة المؤقت كل مسؤولياته الدستورية واحتكرها لنفسه وأعلن الحـــرب على العناصر القومية المخلصة، ومنفذاً لأوامر الجهات الغوغائية نراه وقد انحـــرف عـــن أغلى وأثمن ما يعتز به العراقيون عرباً وأكراداً ألا وهو السير بسفينة البلاد إلى التضـــامن مع سائر البلاد العربية المتحررة، وأعلنها حرباً شعواء على الأمة العربية لدرجة أن صـــار الهتاف بسقوط القومية العربية شعاراً له ولزمرته الباغية الفاجرة.

لهذه الأسباب وغيرها أيها المواطنون الأباة في شتى أنحاء جمهوريتنا الخالدة عزمنا باسم الله العلي القدير وبعد اتفاقنا مع أخينا الزعيم الركن ناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانيـــة ومع كافة الضباط الأحرار في جيشكم الباسل، وبعد مشاورتنا مع سائر العناصر السياسية المخلصة، عزمنا على تحرير وطننا الحبيب من الاستعباد والاستبداد وتخليصه من الفوضى. ونطالب بعزم وإصرار تنحي الطاغية المجنون وزمرته الانتهازية الرعناء عن الحكم فـــوراً والقضاء على السياسة الغوغائية التي أخذت تمارسها فئة ضالة من شعبنا لكي يسود النظام وحكم القانون في أرجاء وطننا الحبيب. إننا إلى أن يستجيب قاسم وينصاع للحق ويتنحى

عن الحكم فوراً وإلى أن يمارس مجلس السيادة سلطاته ليؤلف وزارة بالتعاون مع مجلس الثورة، قد أخذنا على عاتقنا بعد الاتكال على الله مسؤولية إدارة البلاد، طالبين من إخواننا الكرام شد أزرنا وعوننا فيخلدون إلى الهدوء والسكينة دون أن يلزمونا إلى اتخاذ تدابير من شأنها الإضرار بالممتلكات أو سفك الدماء.

والله ولي التوفيق

العقيد الركن قائد الثورة عبد الوهاب الشواف

وأعقب إذاعة البيان الأول بعض التعليقات السياسية والأناشيد الوطنية القومية التي اشتاق العراقيون لسماعها، وطبعت آلاف النسخ من بيان الثورة الأول ووزعت على أهالي الموصل، فقد كان يعتقد أن الإذاعة ضعيفة ولا يصل إرسالها حتى داخل مدينة الموصل فكيف ببقية أنحاء العراق ولكن من الغريب أننا هنا في عمان استمعنا إلى تلك الإذاعة ليلاً وبشكل يغلب عليه الوضوح. توقع أغلب ضباط اللواء الخامس أن يستيقظوا صباح يوم ٨ آذار على صوت إذاعة بغداد وهي تذيع بيانات الثورة في الموصل إلا أن ذلك لم يحصل ولكن معنويات الضباط بقيت مرتفعة على أمل قيام قطعات بغداد بالعمل في اليوم التالي على حسب وعد قائد الثورة رفعت الحاج سري

أما أهالي الموصل فقد استقبلوا نبأ إعلان الثورة بالفرح الغامر وخرجت التظاهرات القومية تعلن تأييدها لها رغم إعلان حظر التجول وقام الأهالي بإرسال برقيات التأييد للثورة فراد وجماعات.

وكما توافد أغلب الضباط المجازيين إلى مقر اللواء للتهنئة بالثورة ووضع أنفسهم تحت تصرفها.

أما موقف بغداد يوم ٨ آذار فقد استمرت إذاعة بغداد على بث برامجها بصورة اعتيادية وغادر قاسم صباح ذلك اليوم مقر وزارة الدفاع وحضر احتفالات (عيد الأم) وبعد عودته من الاحتفال تمت مقابلة بينه وبين رفعت الحاج سري لا يعلم ما دار بينهما

من حديث خلالها ،إلا أن رفعت عاد بعدها إلى دائرته مكفهر الوجه وأمر بعدم السماح لأحد بمقابلته.

هذا وقد حاول عبد الكريم قاسم بعد عودته من الاحتفالات الاتصال بالشواف عدة مرات إلا أن الشواف لم يوافق على التحدث معه وحاول الاتصال بضباط اللواء الواحد تلو الآخر إلا أنه لم يفلح في ذلك.

كما اتصل الحاكم العسكري العام للعراق أحمد صباح العبدي بالرائد محمود عزيز وطلب منه الوقوف ضد الشواف وحذره وتوعده في حالة عدم تنفيذ هذا الأمر وكان جواب محمود عزيز له "إنني ربطت مصيري مع زعيم الثورة الشواف وطلباتنا موضحة في البيان الأول بالثورة "وتلقى العبدي نفس الجواب من ضباط آخرين منهم المقدم خضر محمد مدير إدارة اللواء.

أما القطعات المؤيدة للثورة في بغداد فإن ضباطهم انتظروا صدور أوامر التحرك من العقيد رفعت الحاج سري إلا أن ذلك لم يحصل ،كما أن الفوج المسؤول عن حماية الإذاعة لم يتحرك بسبب تخاذل المسؤول عن حماية الإذاعة وأمره المقدم سعدون حسين والذي كان عليه إستعداد ه للسيطرة على الإذاعة فور اغتيال عبد الكريم قاسم.

وكان موقف ضباط الغرفة الثانية في كركوك مع الثورة ولكن كانوا يعلنون عكس ذلك بسبب حرصهم من تحرك العناصر الشعوبية والفوضوية وخوفا على السكان من تهديدها وإرهابها.

أما الطبقجلي فكان تحت المراقبة الشديدة من قبل الشيوعيين وكانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض عليه بسبب معارضته لهم وعدم إعطائهم الفرصة للعبث بأمن المواطنين ووقوفه بحزم ضد التيار الشعوبي ،ولكن ونتيجة إعلان اسم الطبقجلي كأحد قواد الثورة لا بل قائدها عمت حالة من الذعر والفوضى والإرهاب مدينة كركوك بسبب تصرفات المقاومة الشعبية ،وقامت العناصر الفوضوية والشعوبية من عسكريين ومدنيين بالسيطرة على الموقف في المدينة بتوجيه من بغداد. لهذا كله لم يستطع هناك يقوم الطبقجلي بقيادة

الثورة إلا أن الطبقجلي لم يؤيد الفكرة رغم مكانته وسمعته الطيبة بين المواطنين من عسكريين ومدنيين في الموصل ومحافظات العراق الأخرى.

وهكذا بدأ موقف الثوار بالضعف وتم اعتقال عدد كبير من الضباط القوميين من منتسبي وزارة الدفاع بأمر من الحاكم العسكري العام أحمد صالح العبدي وقام بتنفيذ الأوامر قائد الانضباط العسكري وأقرب المقربين إلى قاسم العميد عبد الكريم الجدة. وهكذا حوصرت الثورة في الموصل وأصبح فشلها أمرا مؤكداً ومسألة وقت لا أكثر.

وفي الساعة الثالثة عصر يوم ٨ آذار أعلنت إذاعة بغداد خبر إقالة العقيد الشواف إلى التقاعد وتعيين العميد يونس محمد طاهر قائد اللواء الخامس بدلا منه،كما أعلنت الإذاعة بيانا يطالب الضباط والجنود والأهالي بالقبض على الشواف ،وبدأت إذاعة بغداد برقيات التأييد لقاسم.

وجاء يوم التاسع من آذار وإذاعة بغداد تبث برامجها كالمعتاد لم يتحرك العقيد رفعت الحاج سري في اليوم التالي أي ٩ آذار كما وعد. وكان الشواف وبعض أنصاره يستمعون إلى إذاعة بغداد في مقر اللواء فالتفت إلى من حوله وقال (جماعة كركوك خانتنا،وجماعة بغداد جبنت ،وسأستمر بالثورة إلى النهاية)

في هذا اليوم أرسل قاسم أربع طائرات لقصف مقر اللواء الخامس (مقر الثورة)وكان الشواف على علم بتحركها ،وكان مقتنعاً بأنها سوف تهبط في مطار الموصل، في الساعة السابعة صباحاً اتجهت الطائرات الأربع إلى مقر اللواء وصوبت صواريخها نحوه ولكن ثلاثة من هذه الطائرات رمت صواريخها خارج الهدف كي لا يلحقوا الضرر بإخوان لهم. ولكن أحد الطيارين الانتهازيين رمى الهدف وأصابه بصواريخه، ثم عادت الطائرات إلى بغداد. قصف مقر اللواء أدى لإصابة الشواف في عينيه وأماكن أخرى من جسده، أما النقيب نافع داود والذي كان يقف على النافذة خلف الشواف فقد أدى تناثر زجاج النافذة إلى فقدانه لبصره تماماً، كما استشهد أحد الجنود الكتبة في مقر اللواء.

وهنا تفرق جنود فصيل الدفاع والواجبات لمقر اللواء، وفقدت السيطرة وتشجع أعداء الثورة وهاجموا مقر اللواء الذي غادره كل من الشواف ومحمود عزيز ونافع داود كل على انفراد للمعالجة، وكذلك تركه البقية الباقية من الضباط.

الشواف استقل سيارة جيب يقودها المظلي منعم حميد وذهب إلى وحدة الميدان الطبية، وأخذ القائمون على الوحدة من أطباء وممرضين بتضميد جروحه، وأثناء ذلك بدأ الجنود يتجمعون بكثرة حول الغرفة ويهتفون هتافات مضادة وحاول بعض الضباط إبعادهم من أمام باب الغرفة ولكنهم لم يفلحوا وهنا خرج إليهم الشواف بكل رباطة جأش وشجاعة وشعر أن الموقف قد تأزم فأخرج مسدسه وأطلق عدد من الطلقات فوق رؤوسهم ثم أطلق النار على رأسه وسقط، وهنا سحبه الغوغاء بجمع كثيف وبسرعة إلى شارع المطار.

وفي رواية أخرى بأن الشواف كان قد استلقى على السرير للمعاينة والعلاج فقام أحد الممرضين بسحب مسدسه وإطلاق النار عليه وقتله أما النقيب نافع داود فقد أخذه بعض منتسبي اللواء إلى المستشفى للمعالجة. وسيطر أعداء الثورة على المعسكر بقيادة المقدم إبراهيم قسطو، وكان المقدم صديق زين العابدين أول من جرى إعدامه من قبل الغوغاء.

أما الطائرتان اللتان أغارتا على مرسلات الإذاعة ومقر قاسم فقد عادتا إلى قاعدة الموصل الجوية، ونزل الطيار فاضل ناصر بطائرته على المدرج وأحاط به جنود القاعدة الجوية وجنود وحدات أخرى واعتقلوه فور نزوله من الطائرة وبعد أن أعلنوا تمردهم على الثورة. وعندما هبط الطيار الآخر صائب الصافي وعلم ما حدث لزميله عاود الطيران متجهاً إلى دمشق إلا أن وقود طائرته نفد قبل وصوله الحدود السورية مما اضطره للنزول قرب أحد الخيام وعندما شعر بالخطر يحدق به آثر الانتحار بإطلاق رصاصة من مسدسه على أن لا يقع في قبضة زبانية قاسم. هذا وقد وصلت طائرات من سورية (الإقليم الشمالي آنذاك)لمساندة الثورة إلا أنها وصلت متأخرة وعادت أدراجها بناءاً على تعليمات من بعض أنصار الثورة لاسيما العقيد عبد الله ناجي أما أسباب فشل الثورة فيعود البعض

منها إلى قيادة الثورة في الموصل وليس في بغداد والبعض الآخر أن الذين تعهدوا بمساندة الثورة في بغداد وغيرها لم يتحركوا واعتقدوا بأنهم بذلك قد حفظوا خط الرجعة.

وهنا استغل الشيوعيون فشل الثورة فعملوا على التنكيل ومحاولة القضاء على الفئات القومية والوطنية، واستباحوا المدينة لمدة ثلاثة أيام بإيعاز وتشجيع من قاسم وزبانيته، حيث ضربت البيوت الآمنة بالمدرعات، وروعت النساء والأطفال والشيوخ، ونهبت الدور، واستخدموا أبشع الصور وتفننوا في قتل المواطنين الأبرياء وسحلهم في شوارع الموصل وهم أحياء حتى الموت ومن ثم تعليق جثثهم المشوهة على أعمدة الكهرباء زيادة في التنكيل والتشفي، وأظهروا حقدهم الدفين على العروبة والإسلام، وفعلوا في ثلاثة أيام من المآسي والجرائم ما يندي له جبين الإنسانية، وأعادوا مجازر هولاكو إلى الأذهان. وشكل الشيوعيون المحكمة المعروفة لدى أهل العراق والتي بدأت أعمالها في مديرية شرطة محافظة الموصل بعلم المسؤولين وتشجيعهم، وبدأت بمحاكمة أعداد كبيرة من الأبرياء وحكمت عليهم بالإعدام ونفذ الحكم فوراً في بناية مديرية الشرطة.

وكان من شهداء هذه المحكمة الشيخ الجليل الإمام هاشم عبد السلام إمام وخطيب جامع عجيل الياور بتهمة إلقاء خطبة الجمعة وتعرضه فيها للفئات الغوغائية، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم فوراً في القاعة التي حوكم فيها أمام أعين الذين حاكموه.

وبعد أن فاضت روحه إلى بارئها تشكو ظلم الفئة الباغية الحاقدة على الإسلام والعروبة، قام أحد حكام تلك المحكمة (المهزلة)وداس بحذائه على لحية العالم الجليل منادياً إياه بأعلى صوته الأجش المتكبر(خلي كان محمد يخلصك).

وأخذ بعض ضباط الثورة بمحاولة الهروب إلى سوريا ولكن أغلبهم فشل في ذلك وألقي عليهم القبض على مقربة من الحدود من قبل فئات المقاومة الشعبية والتي أرسلت إلى تلك المناطق خصيصاً للقبض على من يريد الفرار إلى سوريا، والتي وصلها ضابط جريح بقي ينزف طوال الطريق وهو النقيب محمد سعيد شهاب والذي أسلم روحه للباري بعد وصوله دمشق مباشرة حيث أقيمت له جنازة مهيبة وتم دفنه بمقبرة الدحداح

في دمشق. أما من قبض عليهم من الضباط الآخرين فقد أعيدوا إلى الموصل وحشروا بمعتقلات عسكرية وسط تهديد وبذاءة الغوغاء والذين كانوا يرفعون الحبال في وجوههم مهددين بالسحل. ثم أرسلوا إلى بغداد وكانوا مجموعة من الضباط الشرفاء المخلصين أمثال الرائد مجيد الجلبي والنقيب محمد رجب والنقيب الصيدلي أمين كركجي والنقيب يحيى مصطفى والملازم الطبيب سيد يحيى وغيرهم. وعند وصولهم إلى بغداد قبل المغرب بقليل كانت الفئات الغوغائية باستقبالهم، ونقلوا إلى السيارات والضرب والشتم والحجارة تنهال عليهم من كل حدب وصوب.

وواجهوا نفس الاستقبال لدى نقلهم إلى معسكر كتيبة الدبابات الثانية ثم توافد المعتقلون من عسكريين ومدنيين وامتلأت بهم السجون والمعتقلات وسط الإهانات والمسبات والتلويح بالحبال وكانت تهمة الجميع الأولى "أنهم أعداء الشعب " وكان يؤتى ببعض الشيوعيين لإلقاء المحاضرات والتهديد للمعتقلين. وكان من ضمن ما لديهم من إبداعات أن العراق بدل سبعة ملايين نسمة يكفيه ثلاثة ملايين مخلصين ومناضلين أما التحقيق مع المتهمين فكان يجري بصور لا يمكن وصفها من البشاعة وإهدار الكرامة الإنسانية. وكانت عداوة المحققين مع رجال الدين وأئمة المساجد العسكرية واضحة وكانوا موضع سخرية واستهزاء المحققين.

بدء المحاكمات

كان الطيارون الذين شاركوا في الثورة وقصفوا بعض المرافق في بغداد أول من قُدم لمحكمة المهداوي الشهيرة وكانوا كلاً من العقيد عبد الله ناجي والنقيب الطيار قاسم محمد العزاوي والملازم الطيار أحمد عاشور والطيار فاضل ناصر وكان مدعي عام المحكمة المقدم ماجد محمد أمين وكان تركيز الإدعاء العام على دور الجمهورية المتحدة في مساندة ثورة الشواف ومهاجمة رئيسها جمال عبد الناصر.

وفي يوم ٢٨ /٣/ ١٩٥٩ صدر قرار الحكم على الطيارين الأربعة ويوصي بإعدامهم رمياً بالرصاص حتى الموت.

وأمام باب المعتقل السياسي كان بانتظارهم مجموعات من الشيوعيين والغوغاء لتستقبلهم بالمسبات والإهانات والضرب عند مغادرتهم السيارات إلى داخل السجن، ووضع الحديد في أيديهم وأرجلهم وألبسوا ملابس الإعدام، وجيء بالحلاق ليحلق لهم على الصفر لتهيئتهم لتنفيذ حكم الإعدام بهم وخلال ذلك كانوا يتعرضون للشتم والضرب.

وجاء يوم الأحد **٢٩** آذار **١٩٥٩** حيث صدر بيان الحاكم العسكري العام معلناً بأنه سيتم تنفيذ حكم الإعدام بحق الطيارين غداً الساعة الثامنة صباحاً.

وجاء يوم **٣٠** آذار وكان يوافق **٢٠** رمضان أي قبل عيد الفطر بعشرة أيام لينفذ حكم الإعدام بصفوة من الشباب الطيارين المؤمنين بإسلامهم وعروبتهم.

ثم كانت محكمة ضباط الفوج الأول اللواء الخامس وعددهم ثمانية عشر ضابطاً. حيث كانت تتكرر نفس المشاهد من رئيس المحكمة المهداوي والمدعي العام ماجد محمد أمين، وجمهور الغوغاء الذين كانت تعج بهم المقاعد في المحكمة للهتاف للزعيم الأوحد وضد القومية العربية والجمهورية المتحدة، كل من عاش تلك الفترة واستمع إلى المحاكمات لعله يتذكر المهازل التي كانت تشهدها والخطب والهتافات التي كانت تأخذ معظم وقت الجلسات لاسيما خطب المهداوي الشهيرة. ومن عجائب تلك المحكمة أنه وبعد انتهاء المتهمين من إلقاء دفوعهم ومناقشتهم، بدأت المحامية راسمة زينل بدفاعها عن سبعة عشر متهماً والذي استغرق سبع دقائق منها دقيقتان لمدح المهداوي ومثلها لتمجيد المدعي العام ووصفه بالبطل العظيم ودقيقتان لسب الجمهورية المتحدة ورئيسها، ودقيقة واحدة للدفاع عن المتهمين حيث قالت إن المواد القانونية لا تنطبق على أفعال المتهمين وطلبت عطف المحكمة. وتم تأجيل الجلسة إلى **٣٠** نيسان وفي يوم الخميس من ذلك اليوم **٣٠** نيسان نقل المتهمون مع عفشهم بالسيارات إلى المحكمة وسط مظاهرات وهتافات الشيوعيين التي كانت تلوح بالحبال لسحلهم، وهجموا على السيارات لتنفيذ غرضهم إلا أن جنود الانضباط المكلفين بالحراسة منعوهم من ذلك.

وبعد الوصول إلى المحكمة وانعقاد الجلسة صدر الحكم بإعدام ستة ضباط وبالأشغال الشاقة المؤبدة على ثمانية آخرين وبرئت ساحة ضابط واحد.

وتم نقل المتهمين إلى السجن السياسي وهو جناح معزول عن سجن بغداد المركـــزي. أما نزلاء السجن فكانوا أقساماً مختلفة منهم بعض رجالات العهد الملكي، وآخرون جماعة السيد رشيد عالي الكيلاني، ثم موقوفين من حزب البعث العربي الاشتراكي.

الدار التي وضع فيها الضباط المحكومون بالإعدام كانت عبارة عن فناء واسع فيه ستة غرف مختلفة الأحجام، يشغلها المحكومون بالإعدام فقط. كان من ضمن نـــزلاء تلـــك الغرف رشيد عالي الكيلاني وابن أخيه منذر الكيلاني وشخص فرنسي، وغرفة بها المحامي عبد الرحيم الداوي المحكوم بقضية رشيد عالي الكيلاني. وغرفة واسعة يشغلها المحكوم عليهم من رجالات العهد الملكي ومنهم اللواء عمر العلي واللواء غـــازي الداغســـتاني والفريق رفيق عارف رئيس أركان الجيش والسيد سعيد القزاز وزيـــر داخليـــة ســـابق والسيد بهجت العطية مدير الأمن العام، والسيد فاضل الجمالي رئيس وزراء سابق والسيد برهان الدين باشا أعيان وزير خارجية سابق والسيد أحمد مختار بابان وزير سابق والسيد عبد الجبار فهمي متصرف لواء بغداد وعبد الجبار أيوب مدير سجن سابق.

ثم قُدم فوج آخر من ضباط ثورة الشواف إلى محكمة المهداوي وكان يضم أحد عشر ضابطاً حكم على ستة منهم بالإعدام هم المقدم اسماعيل هرمز والمقدم كامـــل الـــدبوني والرائد مجيد حميد الجلبي والنقيب حازم حسن العلي والنقيب صديق إسماعيل والنقيـــب زكريا طه. وحكم على الخمسة الآخرون بالأشغال الشاقة المؤبدة.

طعام السجن كان يؤمن للمحكومين من قبل متعهد الأرزاق بأوقاته الثلاثـــة مقابـــل أربعمائة فلس تدفعها الدولة للمتعهد عن كل محكوم وكان المتعهد يؤمن الطعـــام الجيـــد بذلك المبلغ.

مؤامرة الشيوعيين على قاسم

أخبر أحد ضباط كتيبة الدبابات قاسم بأن قائد الكتيبة فاضل البياتي ومجموعة من أنصاره يتآمرون عليه ويعملون على قلب حكمه. وهنا ذهب قاسم وبعض مرافقيه وفي منتصف الليل إلى الكتيبة وجمع الضباط وضباط الصف ووجه الإهانات الشديدة إلى الضابط المسيطر على الكتيبة وصفعه على وجهه وبصق عليه أمام زملائه وأمر بنقل معظم ضباط الكتيبة إلى أماكن نائية بعد هذه الحادثة بدأ التغيير في التعامل مع المعتقلين واستبدال الأشخاص المسؤولين في كافة المعتقلات وانتهت حفلات الإهانات والتعذيب وفتحت أبواب غرف السجون من الصباح حتى المساء.

وفي يوم ٢٧ آذار ١٩٥٩ بدأت وجبة أخرى من ضباط ثورة الشواف يبلغ عددها تسعة ضباط حكم على أربعة منهم بالإعدام وهم: العقيد خليل سلمان والمقدم عبد الله الجبوري والرائد توفيق يحيى آغا والنقيب يحيى حسين الحماوي.

وهكذا أصبح عدد المحكومين بالإعدام يبلغ ستة عشر ضابطاً. وفي ١٤ حزيران (يونيو) بدأت محاكمات مجموعة جديدة من ضباط ثورة الشواف وتتألف من تسعة عشر ضابطاً ومدنيين على رأسهم العقيد جميل مهدي الخشالي. وأثناء جلسات المحكمة وبعد أن شهدت البلاد بعض الانفراج بعد تقلص سطوة الشيوعيين وبعد أن استطاع القوميون إثبات وجودهم في الشارع وبعض دوائر الحكومة، بعد كل هذا شهدت جلسات المحكمة روايات لم تقل من قبل وهي وصف أساليب وطرق التعذيب التي تعرض لها المتهمون. وأجل النطق بالحكم لهذه المجموعة، وأعلن عن استئناف المحكمة أعمالها في ١٢ آب (أغسطس) ١٩٥٩ لمحاكمة ناظم الطبقجلي ورفاقه وفعلاً انعقدت الجلسة الأولى للمحاكمة الساعة السادسة والنصف من مساء يوم ١٢ آب ١٩٥٩ لمحاكمة كل من: العميد ناظم الطبقجلي والعميد عبد العزيز العقيلي والعقيد محمد سعيد الشيخ والعقيد منير فهمي والعقيد رفعت الحاج سري والعقيد نوري الراوي والمقدم ذياب العلكاوي والنقيب داود سيد خليل واللواء المتقاعد حسين العمري والتاجر عبد الرحمن محمود. وفي الجلسة الأولى للمحكمة وعندما نودي على الطبقجلي ليدخل قفص الاتهام وكانت

المحاكمات تنقل على التلفزة كان هناك مجموعة من الضباط يجلسون في النادي العسكري وعندما ظهر الطبقجلي أخذ الضباط بالتصفيق الحار، حيث كان الطبقجلي يتمتع بشعبية واسعة بين العسكريين والمدنيين. كذلك أنكر الشهود إفاداتهم في التحقيق وقد تم التفاوض مع بعض الشهود لإثبات أقوالهم أمام لجان تحقيق خاصة المقدم عزيز أحمد شهاب والعقيد إبراهيم الكيلاني والمقدم يونس عطار باشي وقابلهم قاسم بنفسه ووعدهم بإعادتهم إلى الجيش برتبهم السابقة إلا أنهم رفضوا تماماً فتم تحويلهم من شهود إلى متهمين.

مساء الأربعاء ١٩ آب (أغسطس) عقدت المحكمة جلسة لإصدار الحكم على المجموعة التي سبق ذكرها قبل مجموعة الطبقجلي وهي المجموعة التي عرفت باسم (زمرة الخشالي) وحكم على خمسة منهم بالإعدام على رأسهم النقيب نافع داود والذي كان يقف خلف الشواف حينما قصف مقره وفقد بصره كما أسلفنا. كما حكم على ثلاثة بالمؤبد على رأسهم العقيد جميل مهدي الخشالي. وبالإعدام شنقاً على التاجر فاضل جمادي الشكرة. وبرئت ساحة اثني عشر ضابطاً.

وفي ٢٢ آب (أغسطس) عادت المحكمة للانعقاد لمواصلة قضية الطبقجلي ورفاقه، وكان قاسم قبل بدء جلسات ٢٢ آب قد أرسل على الطبقجلي ليلاً لمقابلته ومساومته على بعض الأمور. وقبل ذهابه أخبر الطبقجلي زملاءه بأنه سوف يقوم بالإجهاز على قاسم في هذه المقابلة، وكان مشهوراً عنه القوة البدنية وكان بطلاً للملاكمة في وزنه. إلا أنه عكس كل من قابلهم قاسم دخل الطبقجلي عليه وهو مكبل اليدين. لذلك فشلت خطته ولكن قاسم أخبره بأن لا يتكلم في المحكمة وسيعامله كما عامل عبد السلام عارف، أي يحكم بالإعدام ولكن يبقى في السجن دون تنفيذ الحكم.

أجاب الطبقجلي: ((أنا كتبت دفاعي وسألقيه في المحكمة ولن أغير منه شيئاً، وسأحملك ما جرى في كركوك من مذابح)) ركز الطبقجلي في دفاعه على انحراف أهداف حركة تموز والصراع بين القوميين والشيوعيين، ثم ما شهدته كركوك من مجازر رهيبة وأسباب هذه المجازر.

مساء يوم الإثنين ٢٤ آب جيء بعوائل الضباط نافع داود وجماعته لمقابلتهم المقابلة الأخيرة، حيث خرجوا لهم وهم يلبسون ملابس الإعدام الحمراء. وقد تعمدت السلطة ورتبت على أن يكون توقيت المواجهة مع خروج الطبقجلي وجماعته للمحاكمة وذلك للإرهاب، وفي صباح يوم الثلاثاء تم تنفيذ حكم الإعدام رمياً بالرصاص في ميدان الرمي في أم الطبول بالضباط الخمسة وعلى رأسهم النقيب فاقد البصر نافع داود. ونفذ حكم الإعدام شنقاً بالسيد فاضل الشكرة في سجن بغداد المركزي. هذا ونقلت أربع من جثث الشهداء إلى الموصل حيث تم مواراقم الثرى وسط جموع المشيعين الحاشدة.

وفي مساء الأربعاء ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ صدرت الأحكام بحق الطبقجلي ومجموعته. ولأول مرة خالف عضوان من أعضاء المحكمة قرار الأحكام بعكس القرارات الأخرى التي كانت تصدر بالإجماع. وحكم بالإعدام رمياً بالرصاص على كل من العميد ناظم الطبقجلي، العقيد رفعت الحاج سري، المقدم عزيز أحمد شهاب، النقيب داود سيد خليل. كما حكم كل من العقيد محمد سعيد الشيخ والعقيد منير فهمي الجراح والعقيد إبراهيم الكيلاني والمقدم يونس عطار باشي بالمؤبد. كما حُكم ببراءة آخرون.

وكان يوم ١٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ هو آخر يوم في حياة الطبقجلي ورفاقه، وقد احتفل بهم زملاء لهم كانوا من المحكوم عليهم قبلهم وأقاموا لهم مأدبة غداء رغم توتر الأجواء حولهم، ومع ذلك كانوا يتسامرون وكأن شيئاً سوف لن يحدث في اليوم التالي. ووجهت نداءات ووساطات من كبار المسؤولين في الدولة ورجال الدين ورؤساء بعض الدول الإسلامية لعدم تنفيذ الإعدام بالطبقجلي ولكن دون جدوى.

تنفيذ أحكام الإعدام بالطبقجلي ورفاقه

في الساعة السادسة من صباح يوم الأحد ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ خرج الطبقجلي وزملاؤه من السجن إلى ميدان رمي أم الطبول رافعي الرؤوس متحدين الموت الذي ينتظرهم وهم يرددون الهتافات المدوية الله أكبر – الله أكبر نموت وتحيا العروبة

والإسلام، فاهتزت أرجاء السجن لهذا الموقف الرهيب، واحتشد بعض أنصار السلطة أمام باب السجن يهتفون ضد الشهداء.

ووصل موكب الشهداء إلى ميدان الرمي الساعة السادسة والدقيقة الأربعين صباحاً، وهنا أكمل وصف كل ما حدث الأستاذ أحمد الواعظ إمام الفرقة الخامسة، والذي جرى تبليغه بالحضور إلى ميدان أم الطبول منتصف ليلة ١٩ – ٢٠ أيلول صباحاً. ووقف ينتظر أداء الواجب الديني الذي أوكل إليه في تلاوة الشهادات أمام الشهداء قبل تنفيذ الحكم. وكان حوله مجموعات من أعداء الشهداء تهتف وتلوح بالعصي والحبال.

وفي الساعة السادسة والدقيقة الأربعين وصلت ساحة أم الطبول ثلاث سيارات مغلقة سوداء من سيارات السجون تحرسها مدرعتان من الأمام والخلف، وطلب الضابط المسؤول من الإمام الدخول إلى كل سيارة ليقرأ الشهادة أمام المحكومين. صعد الإمام إلى السيارة الأولى وكان بها العقيد الطبقجلي، ورفعت الحاج سري، والعقيد خليل سلمان، والمقدم علي توفيق، والمقدم عزيز أحمد شهاب.

يقول الإمام بأنه سلم عليهم فردوا السلام الاعتيادي بكل رباطة جأش وعزيمة واستقبلوه استقبال الصديق الوفي. وبعد أن تلا عليهم بعض الأوراد التي تقال في مثل هذه المناسبة، أجاب الشهداء بصوت واحد: ((آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر)). وقال الطبقجلي: ((إننا قمنا بواجبنا نحو ديننا وعروبتنا ووطننا ولله الحمد)). وتم نفس المشهد في السيارتين الأخريين.

وبعد الانتهاء من المهمة أنزل الشهداء من السيارات وقرأ عليهم حسين خضر الدوري أحد أعضاء المحكمة قرار الحكم، ثم عُصبت عيونهم واقتاد كل شهيد أحد الجنود متوجهين إلى أعمدة الإعدام، وفيما هم متجهين إلى ساحة الإعدام هتف الشهيد حازم خطاب: ((الله أكبر والعزة للإسلام، الله أكبر والعزة للعرب)) فردد بقية الشهداء هذا الهتاف الجليل، واستمروا على هذا الهتاف إلى أن شُد وثاقهم على الأعمدة. وأثناء هتافات أخرى رددها الشهداء أطلقت البنادق رصاصها على صدور الشهداء، واختلط صوت الرصاص بصوت الشهداء.

وأطلقت على كل شهيد أربعون طلقة من ثمانية جنود. وبعد إعدامهم نقلت الجثث إلى مستشفى الرشيد العسكري، وذهب قاسم وتأكد من وفاة الشهداء، وأمر بعدم تسليم الجثث إلى ذويهم خوفاً من نقمة الشعب، لذلك دفنت الجثث في مقبرة الغزالي بصورة مجتمعة ووضعت مع كل جثة زجاجة فارغة بداخلها ورقة مكتوب عليها اسم الشهيد. وفي نفس يوم تنفيذ هذه الأحكام أصدر الحاكم العسكري بياناً يعلن فيه تنفيذ حكم الإعدام في سجن بغداد المركزي بكل من سعيد القزاز وبهجت العطية وعبد الجبار فهمي وعبد الجبار أيوب من رجالات العهد الملكي.

هذا وقد أقيم جامع أم الطبول (جامع الشهداء) على الأرض التي نفذ بها حكم الإعدام بشهداء ثورة الشواف. أما الجلاوزة الذين قاموا بهذه الجرائم البشعة فلم تطل بهم الحياة بعدها ففي الثامن من شباط (فبراير) **١٩٦٣** قامت ثورة أطاحت بقاسم وزبانيته جميعاً، وكما بينا في موضوع سابق فقد نُفذ حكم الإعدام بقاسم والمهداوي لدى القبض عليهما ثاني أيام الثورة وفي استديوهات إذاعة بغداد، كما أعدم وصفي طاهر وجميع أعضاء محكمة المهداوي إلى جانب مئات وربما آلاف الشيوعيين الذي ارتكبوا جرائم ضد أبناء شعب العراق الأبي.

وهكذا كانت العراق دائماً حصناً للعروبة والإسلام أما ما نراه هذه الأيام من تحكم العصابات وشذاذ الآفاق وأعداء العروبة والإسلام من مأجورين وعملاء قاموا بالسمسرة على العراق شعباً وأرضاً وهدموا وساهموا في هديم حضارة عربية إسلامية عريقة عمرها آلاف السنين، هؤلاء سوف يلاقون مصيرهم المحتوم إن عاجلاً أو آجلاً. والله يمهل ولا يهمل. وشعب قدم كل هذه التضحيات سوف لن يبخل بمواصلة البذل والعطاء ليعود العراق عربياً مسلماً كما هو عهده دائماً. . ولا نامت أعين الجبناء. .

الحسن الثاني وعائلة أوفقير
قسوة ملك

محمد أوفقير الشخصية التي ذاع صيتها في المغرب في العقد الخامس والسادس من القرن الماضي كأقوى رجل من رجالات النظام والعامل الأول على حمايته، والأقرب إلى الملك الحسن الثاني من بين كل رجالات المغرب، كان مديراً لقوى الأمن في المغرب ورجل القصر الأول.

ولد أوفقير في قرية عيد شعير من منطقة تفيلاليت معقل البربر في الأطلس الأعلى المغربي. كانت طفولته منعزلة وحزينة إلى حد ما، درس في الكلية البربرية في أزرو قرب مكناس، ثم كان الجيش بمثابة عائلة له. فقد دخل وهو في التاسعة عشرة إلى مدرسة الدار البيضاء العسكرية، وفي الحادية والعشرين من عمره تطوع ملازماً احتياطياً في الجيش الفرنسي، وجُرح في إيطاليا، وقضى فترة نقاهته في فرنسا، ثم ارتقى إلى رتبة نقيب في الهند الصينية، وأصبح مرافقا عسكريا للجنرال دوفال قائد القوات الفرنسية في المغرب، كان معتادا في شبابه المبكر على ارتياد المواخير وأندية القمار.

عقد قران محمد أوفقير وفاطمة شنا تلك الفتاة الرائعة الجمال في ٢٩-حزيران ١٩٥٢ وأقاما في شقة بسيطة جدا تتناسب مع راتب النقيب أوفقير. وبعد عدة سنوات أصبح أوفقير وزيراً للداخلية في عهد الملك الحسن الثاني، وقبل ذلك وبعد أن ترك الخدمة في الجيش الفرنسي برتبة مقدم سمي رئيساً لمرافقي الملك محمد الخامس عام ١٩٥٥ ثم أصبح قائدا للشرطة قبل وفاة الملك محمد الخامس بستة أشهر.

كانت عائلة أوفقير مقربة جدا من العائلة المالكة، وكانت العائلة الوحيدة المسموح لها بالدخول إلى القصر والتنزه في كل مكان منه؛ فقد كان أوفقير محل ثقة محمد الخامس المطلقة، كما كانت زوجته فاطمة صديقة زوجتي الملك واللتين طالبتا برؤيتها يومياً.

كانت تشتري لهما الملابس وأدوات الزينة، وتقص عليهما أنباء الأحداث التي تجري في الخارج.

تقول إحدى بنات أوفقير والتي أمضت سنوات طفولتها في القصر الملكي مع إحدى بنات الملك محمد الخامس والذي اختارها لتكون صديقة لابنته، ثم عادت إلى متزل والدها بعد سنوات، تقول في متزلنا لم نكن نحس بالعظمة، إنما بالسلطة المطلقة لأبي، وكنت اكتشفت بشكل مبهم في القصر مدى أهميته، فالملكة الوالدة تظهر له المودة بشكل خاص، والمتملقون يبجلونه، والملك يقضي أوقاتاً طويلة معه. والمتزلفون والمتملقون كنا نراهم يجتمعون يومياً في البيت، وقليلاً ما كنا نتناول طعام الغداء منفردين في جو عائلي. كان أوفقير سهار ليال، هاويا لأغاني الغرام ورقصات الفجر يتناول المشروبات الكحولية يومياً في متزله ولكن باعتدال.

قامت ابنته مليكة بزيارة الولايات المتحدة، ذهبت إلى نيويورك وهوليوود حيث قضت أعياد الميلاد كما تقول، وغدت صديقة لمارفن دايان ابن أخ موشيه دايان وهذا ما سُر له والدها عند عودهّا وإبلاغه بذلك ولكنه أثار استنكار بعض الوزراء ومن الغريب والملفت للنظر أن بنات أوفقير كن يشتكين من مراقبته لهن مع أنه كان يسمح لأي واحدة منهن بالسهر والسفر ومصادقة من تشاء، أما التزمت الذي يقصدنه فلا أحد غير الله يعلم طبيعته.

انقلاب الصخيرات

في العاشر من تموز ١٩٧١ قامت دورتان من طلاب المدرسة العسكرية الملكية بمهاجمة قصر الصخيرات أثناء احتفال الملك بعيد ميلاده وقتلوا مئات من المدعوين والضباط وموظفي القصر وشخصيات مشهورة من أنحاء العالم، فقد كان ذلك اليوم مخصصاً للرجال واختبأ الملك في غرفة المغاسل، وقام متمردون آخرون بمحاولة الاستيلاء على الإذاعة، وقصف قصر الصخيرات ولكن الملك تمكن بعد وقت قصير من السيطرة على الموقف.

وكان محرك هذه المؤامرة الأول هو الجنرال مدبوح ويقال عنه بأنه ضابط صارم ومستقيم أثاره الفساد الذي عم في البلاد وقد قتل في الصخيرات على يد العقيد عبايو

المتواطئ معه. هذا وقد أعدم عشرة ضباط بينهم أربعة جنرالات بعد محاكمتهم في مجلس عرفي، ودافع أوفقير من أجل العفو عن ١٠٨١ من الطلاب الضباط المتمردين وإخـــلاء سبيلهم، وتم له ذلك. ولم يتضح دوره في هذا الانقلاب الأول، لكن طريقة تنظيمه والرأفة التي أظهرها على المتمردين أثارت الريبة والشك، ومنذ ذلك التاريخ بدأ الجفاء والـــبرود يسودان علاقته مع الملك الحسن الثاني.

محاولة ثانية للاطاحة بالملك الحسن:

في ١٦ آب (آغسطس)وأثناء عودة الطائرة الملكية من باريس لوحقت وقذفت بدفعة من الرصاص والصواريخ وعلى دفعتين فوق مدينة تطوان من قبل طائرات تابعة لســـلاح الجو المغربي. يقودها العقيد أموقران والمقدم قويرة (الذي قذف نفسه بالمظلة وأوقف)ولكن الطائرة الملكية نجحت بالهبوط بسلام ودون عائق في مطار الرباط سلا، والملـــك ســـليم معافى. فقد كان أخبر قائد طائرته أن يخبر المهاجمين بأن الملك قد قتل وهو ما تريدون أمـــا أموقران فقد استقل بعد هبوطه بالمظلة طائرة هليكوبتر مع أربعة من أعوانه المتواطئين معه وانتقلوا إلى جبل طارق حيث طلبوا اللجوء السياسي. وقد وشـــى أمـــوقران صـــراحة بالجنرال أوفقير بعد أن سلمته سلطات جبل طارق إلى المغرب.

استدعي أوفقير من قبل الملك إلى قصر الصخيرات، وتوجه إليه نحو الساعة العاشـــرة مساء فوجد نفسه في مواجهة معاونه السابق أحمد الدليمي وحفيد العلوي مدير المراســـم وبعد قليل أعلن بيان رسمي انتحار أوفقير بخمس رصاصات كانت القاتلة منها في عنقـــه. وهذا يدل على أنه قذف بهذه الرصاصات من أطراف أخرى.

تقول ابنة أوفقير، في مساء يوم ١٦آب وفي الساعة السابعة مساء رن جرس الهـــاتف وكان المتكلم أوفقير والدها وبدا صوته باهتاً لا رنة فيه، صوت رجل قرر أن يموت وهو يوجه هنا بلاغه الأخير. وقال لها: أطلب منك أن تبقي هادئة مهما حصل، لا تتركي المترل قبل أن يأتي الحرس ليرافقك.

وتقول الابنة أحببت أن يطمئنني، أن يقول أنه ليس مدبر المؤامرة، ولكن منذ بداية محادثتنا أدركت أنه متورط فيها وأنه قد خسر. وهكذا أعدم أوفقير ونقلت جثته إلى مترله، وفي اليوم الثالث لمقتله حمل نعش أوفقير مع الفجر حيث أمر الملك الحسن بدفنه في صحراء تفيلاليت موطنه، وكانت زوجته تريد أن يدفن في الرباط لتتمكن من زيارة قبره، ولكن أوفقير نفسه كان أوصى بأن يدفن في قرية مولده.

وفي ٢٠ آب (أغسطس) وهو اليوم التالي لدفنه، فرضت على عائلة أوفقير الإقامة الجبرية في المترل، وطرد الخدم منه. وتعرضت زوجة أوفقير لتحقيق عسير أجراه المفوض يوسفي وبعد زهاء أربعة أشهر جاء مدير الشرطة وأمر عائلة أوفقير بأن تحضر لوازم إقامة لمدة خمسة عشر يوماً ينقلون فيها إلى جنوب المغرب. وهكذا تم ترحيل ثلاث نساء وستة أولاد عشية عيد الميلاد والتي كانت العائلة تستعد للاحتفال به رغم كل ما حدث لهم وبحجة تغير جو الحزن.

ومع فجر ٢٥ كانون الأول (ديسمبر)وصلت السيارات التي تقلهم إلى قرية على مشارف الصحراء حيث نزلوا ضيوفا على عمدها الذي احتفى بهم، وبعد قضاء نهار وليلة عند العمدة، تابعت القافلة المسير حتى الصحراء. ووصلت ليلاً وأنزلوا من السيارة في أرض قفر وطلب منهم الوقوف صفا واحدا، والشرطة في مواجهتهم يهددون برشاشاتهم. وهنا اقتربت زوجة أوفقير من إحدى بناتها قائلة لها: إنها النهاية، ولكن الحقيقة إنها كانت البداية. صعدت العائلة بعد ذلك مجدداً إلى السيارات التي جرت بهم الساعات، وكانت رحلة شاقة جداً وخاصة على الأولاد فهنالك بنتان في التاسعة والعاشرة من العمر، وأخرى في ريعان الصبا، وغلام في الثانية والنصف من العمر، والحر شديد، والكل يعاني من الظمأ والجوع والخوف، وليس هناك من مؤنس أو مطمئن.

وفي النهاية وصلت القافلة إلى قرية صغيرة ودخلت السيارات إلى ثكنة عسكرية في مكان معزول في عمق الصحراء قريب من الحدود الجزائرية، كانت أيام الاستعمار

الفرنسي مكاناً ينفى إليه المعارضون والمطالبون بالاستقلال، وهو بناء قديم متهدم تتساقط أحجاره من بعض الأمكنة المتداعية.

وقد أمر رجال الشرطة والذين جيء بهم من أماكن مختلفة من المغرب بمعاملة هذه العائلة معاملة السجناء، وكان أمر هذه الثكنة يدعى (أبو عَزَّة).

وتصف ابنة أوفقير إحدى نزيلات هذا المكان قائلة: هذا المكان يعد مقذرة، كل شيء فيه يثير الاشمئزاز، والأغطية العسكرية الرمادية، الخشنة والوسخة والملقاة على أفرشة من الإسفنج والجدران الرهيبة والجبص المقشر والرمل المغطى لأرضية هذا البيت الصغير الذي حشرنا فيه بعد أن أنزلت أمتعتنا، لا يوجد خزائن فوضعت الأمتعة على الأرض وعلى شراشف شبه مهترئة، لا يوجد ماء بل بعض دلاء للاغتسال والشرب وغسل الأواني، والحرس موجودون في كل مكان من الثكنة. والى هذا المكان حمل أفراد عائلة أوفقير ما يملكون من ثياب فاخرة من أشهر دور الأزياء الباريسية والايطالية ومن مخازن لندن وجنيف.

ولقضاء الوقت كانت الأسرة تنصرف لإعداد الطعام والذي يوزع تقنينا كل ثلاثة أسابيع بسبب بعد المكان ووعورة الدروب المغطية إليه. وكان الطعام يتكون عادة من الخبز والزيت ونوع من العسل ولحم الماعز، كانت الأم تقوم بعملية الطهي، والبنات يقمن بغسل الأواني بواسطة طشت في الهواء الطلق.

في ٢٨ نيسان (إيبرل) ١٩٧٣ تم ترحيل العائلة إلى قرية آغدر في الصحراء القريبة من ناكورا وورزازات. وضعوا في شاحنات صغيرة مُوّه زجاج نوافذها بالقطران، وسارت الشاحنات ثماني عشرة ساعة دون توقف ولم يسمح فيها لأي كان بالنزول حتى للتبول. إلى أن وصلت القافلة أخيراً إلى قرية صغيرة بائسة ووضع أفراد العائلة في منزل مختارها حيث قضت فترة قصيرة من الزمن، ففي شهر أيار أعيدوا إلى (أسا) فقد أعدت لهم خارج الثكنة بيوت جاهزة الصنع كان لكل فرد فيها غرفته، ولكن لا يجدون حولهم وفوقهم سوى السماء والجبال والحراس.

في الصيف بدأ الكابوس فالحرارة ترتفع إلى ٦٠ درجة في الظل وأشعة الشمس تلهب سقف الصفيح وتنعكس ليلاً بحيث تكاد لا تختلف درجات الحرارة. لذلك كانت الأسرة تقضي معظم الأمسيات خارج هذه البيوت. هذا عدا الرياح الصحراوية التي هب صيفاً فتكسر الزجاج وتغطي الوجوه والأجسام ولا تستطيع منها هرباً، هذا إلى جانب العقارب التي تملأ الأرض والجدران، وكان أمر هذا المكان هو بو عزة نفسه الذي استقبل العائلة للمرة الأولى، وكان على وشك التقاعد فحاول تحسين المعاملة مع العائلة.

وفي ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) نقلت الأسرة من (أسا) إلى تاماتاجت، وبعد مسيرة طويلة وشاقة وصلت القافلة إلى قلعة صغيرة تشرف على الصحراء وهي قصر قديم خرب تحول أسواره العالية دون رؤية السماء. وقد خصص للعائلة فيها غرفتان من الطابق الأول والعائلة كما أسلفنا تتكون من تسعة أفراد، في الأسفل كان هنالك كهف استخدم مطبخاً ووضعت المؤن والمقتنيات في حجرة ضيقة أخرى. كان النوم في مهجع واحد على أفرشة من قش وضعت على الأرض، كان الشتاء قاسياً، أما الصيف فالحر فيه لاهب لا يُطاق. أما أشهر الزوار فكانت الجرذان البرية الجائعة.

كان أفراد الأسرة يقضون أوقاتهم بتعليم الكبار منهم للصغار بعض اللغات لاسيما الفرنسية والإنجليزية والعربية، بينما تقوم الأم بإعداد الطعام للأسرة. أما في المساء فتخرج الأسرة في فسحة للتنفس يُسمح لهم فيها في باحة قاتمة محاطة بالأسوار العالية، وفي هذا المكان وبتدخل من الأمير عبد الله شقيق الملك الحسن الثاني والذي أخبره والد زوجة أوفقير بأوضاع الأسرة، وصلتهم بعد مدة مجموعات من الكتب والرسائل، ولكن ضيق الخناق على الأسرة بعد أن قام العقيد بن عايش بزيارة لهم، فقد كان شقيقه الطبيب الخاص للملك قد قُتل أثناء محاولة انقلاب الصخيرات، واعتبر أوفقير هو المسؤول عن ذلك. وأخيراً وجهت الأسرة عريضة إلى الملك موقعة بدمائها عن طريق مدير السجن، عريضة أو رسالة تستنجد بشهامة العاهل المغربي، كُتب له فيها أن من غير اللائق به أن يتغاضى عن اضطهاد امرأة وأولاد.

الانتقال إلى سجن الأشغال الشاقة في بير – جديد

٢٦ شباط (فبراير) ١٩٧٧ – ١٩ نيسان ١٩٨٧ عند الانتقال من تاماتاجت إلى بير جديد أراد رجال الشرطة نقل كل اثنين من أفراد الأسرة في شاحنة مصفحة ذات نوافذ عالية، واستعملوا منتهى الخشونة والفظاظة ودون مراعاة للصغار أو الكبار، ولكن الأم بكت وتضرعت وصرخت ورجت فلانوا أمام توسلها، ولم يكن أحد يميز شيئاً أثناء الطريق. ودامت الرحلة أربعاً وعشرين ساعة، كانت المراقبة شديدة من قبل الشرطة عند النزول للاستراحة أو لأي غرض آخر، وعند سماع نقيق الضفادع أدرك أفراد العائلة بأنهم أصبحوا قرب البحر. كانت السيول تجتاح المنطقة فتم نقل الأسرى إلى عربات أخرى، وأخيراً وصلت الأسرة إلى المكان المقصود، أدخلوا وأعينهم معصوبة، وعند إغلاق الأبواب رفعت العصائب، كان المكان عبارة عن مبنى يعود لأيام الاستعمار، وقامت على جوانب الفناء أربعة أبواب يؤدي كل منها إلى زنزانة، والجدران التي تحيط بالمكان سميكة حتى أنها تحجب السماء. وتم الفصل بين أفراد الأسرة خلال الليل، ولكن يحق لهم الاجتماع وتناول الطعام معاً أثناء النهار.

الأم وابنها الصغير معاً، والأخوات الثلاث معاً، والأخ الأكبر بمفرده، وهناك سيدتان تطوعتا لربط مصيرهما بعائلة أوفقير – في الأصل كانتا تعملان في منزل أوفقير كخادمات، وسجنتا معاً ورافقتا الأسرة في كل مكان وجدت به في هذا المكان الرطوبة عالية وقطرات الماء تتساقط من السقف إلى الأرض، والكهرباء لا تعمل سوى ساعتين مساء، والفرش رقاقات اسفنج مغطاة بملاءات تميل إلى القذارة. أما الحمام فكان عبارة عن حفرة في الأرض.

في كل سنة وبمناسبة ذكرى ميلاد الملك كانت الأسرة توجه إليه التماساً للعفو، ولكن دون جدوى لا بل كانت المعاملة تزداد قسوة بعد كل التماس. وبعد الالتماس الأخير من بير جديد قام مدير السجن وأعوانه بجمع معظم ما يملك أفراد الأسرة في السجن من كتب ومؤن زائدة وملابس وحلي الوالدة وألبوم الصور وأضرموا فيها النيران.

كان يحق لأفراد الأسرة كما أسلفنا الاجتماع نهاراً، ولكن مع بداية عام ١٩٧٨ وعندما بلغ الابن الأكبر العشرين من عمره عُزل في زنزانته وحُرم من الخروج ومن رؤية بقية أعضاء الأسرة. ثم طبق الحظر على الجميع باستثناء السيدتين المرافقتين.

حتى في ما يسمى بتنفس السجناء كانت الأم تخرج منفردة ثم يأتي دور البقية، ومُنع أفراد الحرس من الكلام معهم بلطف أو إظهار أي اهتمام بهم، لا بل إذلالهم قدر المستطاع، وكان العقيد بن عايش والذي سبق ذكره أكثر من يتشدد في معاملتهم.

كان يحق للأسرة حمولة عربة حطب كل شهر وقوداً للطبخ، كان الحطب يُلقى عند بوابة السجن وتقوم بنات الأسرة بنقله. كان أفراد الأسرة حفاة وفي أسبال بالية يعانون البرد شتاءاً والحر صيفاً، فلا ممرض ولا أدوية، وصودرت الساعات والكتب والأوراق والأقلام وحتى دمى الصغار التي أحضروها معهم، وكان التوقيت يُعرف من مهام الحراس الذين يأتون بالطعام في ساعات معينة.

وفي أثناء فترة السجن والتي استمرت أحد عشر عاماً لغاية الآن تعرض أفراد الأسرة لأمراض خطيرة ومتعددة الأنواع من حميات مرتفعة وإسهالات والتهاب لوزتين وقصبات وصداع وآلام أسنان وبواسير والتهابات رئوية. هذا إلى جانب وجود الصراصير الكبيرة السوداء والضفادع، أما البعوض فإنه قصة أخرى لاسيما وأن الزنازين كان فوقها خزانات ماء والجدران ترشح رطوبة في الصيف والشتاء، هذا عدا البراغيث التي كانت تتسرب إلى الأجسام فتدميها وتسبب الحكة الدائمة، والفئران كانت تجري في كل مكان تخرج ليلاً من جحورها وتتسلق الأسرّة، وكثيراً ما كانت تسطو على ما يحفظ من مؤن لوقت الحاجة، وكانت هذه الجرذان الأشد إزعاجاً والأكثر إثارة للذعر والاشمئزاز.

وتقول ابنة أوفقير الكبرى (مليكة) إن أحد الحراس الذين كانت طلبت منه إحضار راديو لها ظل يماطل ولا يجيب بنعم أو لا، إلى أن اقتحم عليها زنزانتها يوماً وحاول الاعتداء عليها ولكنها قاومته كما تقول دون أن يحقق رغبته النهائية وإن قالت له أحضر الراديو أولاً ثم يكون لك ما تطلب. ولكن الأمور انتهت بسلام وأصاب الفزع ذلك

الحارس، ومع طول مدة الاعتقال أصبح الكلام في الجنس وأشياء أخرى أمراً عادياً فقد سقطت مع الزمن حواجز الحياء الطبيعي القائمة بين الأهل والأبناء. وصار الحديث يدور دون أي محظور، والقيم الأخلاقية وحدها من صانت أفراد الأسرة وجنبتهم الممارسة العملية كما تقول ابنة أوفقير.

محاولة انتحار

منتصف ليلة ٢٦ تشرين الثاني(نوفمبر) **١٩٨٦** قامت زوجة أوفقير (فاطمة) بقطع أوردها بالمقص الصغير. وقبل هذه العملية أخبرت ابنتها الكبرى بأنها تعهد إليها بأخواتها. والغريب أن هذه الإبنة تقول إنه في البداية لم تصدر عنها أي ردة فعل، فإذا اختارت الموت فهذا حقها المطلق، لكن القلق بدأ يساورها بعد ذلك. ونحو الساعة الرابعة صباحاً سألت أخاها عبر الحائط ما إذا كانت والدها توفيت أو أنها ما تزال على قيد الحياة، أجابها بأن قلبها ما زال يخفق بشكل ضعيف جداً. وبعد صراخ طويل حضر بعض السجانون إلى زنزانة الوالدة ثم خرجوا دون أن يفعلوا شيئاً. وبدأ أفراد الأسرة بالتفكير كيف يمكن إعداد ضماد ضاغط بواسطة قطع من ملاءة السرير لإيقاف النزف، وكانت الأم قد استعادت تنفسها لكنها فقدت الكثير من الدم بسبب النزف.

وفي هذا الحال أصاب القنوط وكره الحياة جميع أفراد العائلة وقرروا أن يقتل كل واحد منهم الآخر فأجروا قرعة فيما بينهم وكانت القرعة من نصيب الابنة (سكينة) والتي تمددت على السرير وأختها مليكة جالسة أمامها تحاول قطع عروق يديها بطرف علبة سردين وبإبرة حياكة، ولكنها استفاقت بعد إغماءة استمرت ربع ساعة.

وفي صباح اليوم التالي سمعت خطوات الحراس تتجه مسرعة إلى زنزانة الابن الأكبر (رؤوف) والذي اختار بدوره أن يقطع أوردة معصمية وكاد أن ينجح، وفي المساء ألقي به في باحة السجن حيث يسود البرد القارص وترك دون عناية لمدة أربعة أيام. كان خلالها غائباً عن الوعي، ثم بدأ يستفيق شيئاً فشيئاً ثم عاد إلى زنزانته.

الهروب

أمام الحال الذي كانت الأسرة تعاني منه قرَّ رأي أفرادها على استكشاف المناطق الرخوة والضعيفة في الأرض والجدران لمحاولة حفر نفق للهروب، وكان لوقع خطوات الجنود عند تبديل الحراس أثر في معرفة نوعية التربة وأماكن الجفاف وتلك المتجاوبة مع صدى الصوت، واتخذ القرار ببدء حفر نفق أرضي في القسم المغلق من زنزانة الأخت الكبرى، وهو مكان يشرف على حقل مهجور أي نوع من الحياة فيه معدومة، وتم البدء برفع بعض البلاط لمعرفة كيفية الوصول إلى ما تحت الأساس. وكان بداية العمل في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧ تم تكسير الإسمنت ورفعت مجموعة بلاطات واستعمل في هذه العملية أغطية علب سردين وقبضات سكاكين وقضيب من الحديد انتزع من أحد الأسرّة. وبقي العمل مستمراً بإحداث نفق للهروب مدة لا بأس بها، فقد تم حفر النفق بعد معاناة طويلة تأثرت بها الأطراف وبلغ الإنهاك مداه في الأجسام المتعبة أصلاً، تم العمل يوم الأحد ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٨٧.

ووضع أفراد الأسرة عدة سيناريوهات لما بعد الهرب وكيف سيتم التصرف في كل الأحوال، وكان الهدف النهائي الوصول إلى سفارة فرنسا وطلب اللجوء السياسي بعد أن أعدوا مجموعة أوراق صغيرة كانت تستخدم لتغليف بعض الأشياء. هذه الأوراق كتب عليها عشرات الرسائل الناقدة لما يجري للعائلة، وقد أرادوا إيداعها سفارة فرنسا، وهي موجهة لشخصيات عديدة سياسية وفنية وأضيفت إلى هذه الرسائل بعض العبارات المؤثرة. أما من تقرر هربهم فهم الأخوين رؤوف وعبد اللطيف مع أختيهما مليكة ومريم، وستبقى الأم وابنتها سكينة، وعندما خيم الظلام بدأ الذين صمموا على الخروج بمد أجسادهم من النفق إلى أن أصبحوا خارج أسوار السجن في الحقول المجاورة وبدلوا ملابسهم، واستمروا في السير وكانوا كلما اعترضهم أحد اخترعوا قصة لوجودهم في مثل هذا الحال، وعندما كانوا يستقلون السيارات كانت الأجرة التي تدفع عبارة عن بعض حلقات ذهبية من أسورة ساعة أوفقير والتي نجحت الأم في المحافظة عليها، ثم كان الوصول إلى الدار البيضاء حيث وجدت الابنة الكبرى مليكة وهي الوحيدة التي كانت

تعي صورة المدن قبل السجن أن أشياء كثيرة قد تغيرت في المدينة، وبدأت تطرق بعض البيوت التي تتذكر أنها تعرف سكانها، ولكن الجميع أنكر معرفته بها كذلك طرقوا أبواب أناس لم يعرفوهم من قبل إما لطلب الماء أو إجراء مكالمات تلفونية، وقد استقبلهم بعض من لا يعرفون، وقدموا لهم الأطعمة والقهوة، وأرشدهم صاحب منزل طرقوه ودخلوه إلى بيت صديق قديم لمليكة ولكنه عندما عرفهم سأل بصوت فظ ماذا يريدون، وأخبروه بأنه قد تم إطلاق سراحهم، ناولهم ثلاثمئة درهم وأخبرهم أن لا يتصلوا بشقيقه لأنه في وضع صحي ونفسي حرج. ولكنه أوصلهم بسيارته إلى محطة القطار الذاهب إلى الرباط. وبعد الوصول ذهبوا بسيارة أجرة إلى السفارة الفرنسية ولكنهم وجدوها مغلقة بسبب الاحتفال بعيد الفصح، ثم كان الذهاب إلى السفارة الأمريكية في اليوم التالي حيث عبأوا استمارات طلب الهجرة. ثم أخذوا في مدينة الرباط يبحثون عن منازل الأصدقاء القدماء، وقد استقبلهم في منزله شخص فرنسي وزوجته كانا من أصدقاء الطفولة لأحد الأبناء وباتوا عندهم ليلتهم وكان الرجل كثير الأسئلة ولا يصدق كلام هؤلاء الضيوف لم يحاولوا الذهاب إلى منزل الجد أو الاتصال به لأن هاتفه مراقب وكذلك المنزل.

ثم كان الذهاب إلى طنجة والنزول بفندق (أهلاً) نزلوا به بعد مكالمة من السيدة الفرنسية إلى صاحب الفندق. وفي هذا الفندق تمكنوا من الاتصال بإذاعة فرنسا العالمية وأخبروها بأننا نحن أبناء الجنرال أوفقير، هربنا من السجن بعد خمسة عشر عاماً من الاعتقال بعد أن تمكنا من حفر نفق، ونحن الآن في طنجة ونريد المساعدة والتحدث مع روبرت بادينتر لنطلب منه أن يكون محامياً لنا.

في البدء لم يصدق الصحفي ما يسمعه وكان يرد: ولكن هذا أمر هام جداً، هذا أمر رهيب، وطلب برهاناً على ما نقول مع رجائه ألا نخاف، ومن ثم عن كيفية الاتصال بنا، فأعطوه رقم هاتف الفندق، وبعد برهة اتصل الصحافي وأخبر بأن الرئيس ميتران في طريقه الآن إلى المغرب، وأن وزارة الخارجية الفرنسية علمت بالأمر وأخبرت الرئيس بدورها. ثم أخبرنا الصحفي أن موفداً من الخارجية الفرنسية سيأتي في المساء لمقابلتنا،

وحُدد له موعد في موقف السيارات ولكن هذا الزائر لم يكن إلا مراسل الإذاعة في طنجة. والذي أخبرهم بأن المحامي دارتفيل سيأتي خصيصاً لمقابلة أبناء الأسرة غداً.

وفعلاً وصل المحامي برنار عصر يوم ٢٣ نيسان (إبريل) يرافقه أحد الأشخاص وكان يحمل آلة تصوير، لم ينتبه أحد لسبب قدومه في المطار، ولكن عند المغادرة استجوب مرتين من قبل الشرطة. أعطاهم رسالة لإيصالها للرئيس ميتران، وطلب من أفراد الأسرة التوقيع على أوراق توكيل لمكتب كيجمن للدفاع عنهم، وأخذ لهم صورة. وهكذا بدأت قضية الأسرة بالانتشار عالمياً.

في هذه الأثناء كانت الشرطة تبحث عن الفارين الأربعة في كل مكان، وفي يوم الجمعة ٢٤ نيسان ١٩٨٧ أحاطت سيارات الشرطة بالفندق وتمكنوا من القبض على الهاربين وأخذت بصمات أصابعهم وأطوالهم واتصل ضابط الحملة بوزير الداخلية إدريس البصري ليعلمه بنبأ القبض على أبناء الأسرة. وكان الملك شخصياً يتابع القضية كما أخبرهم أحد الضباط وكانت الأم والأختين الأخريين نُقلن إلى الرباط بعد الهروب بثلاثة أيام. حيث تم لقاء جميع أفراد العائلة في مكان التوقيف الجديد في مفوضية شرطة بن شريف، وتغيرت المعاملة ووضع الجميع في مكان اعتقال واسع وهيئت لهم كل أسباب الراحة والرفاهية بعد أن أذيعت أخبارهم في معظم وكالات الأنباء العالمية.

وكتبت الأسرة التماساً إلى الملك بالسماح لها بالهجرة إلى كندا، نقلت العائلة بعد ذلك إلى منزل في مدينة مراكش تموز ١٩٨٧ خصصه لهم الملك نفسه وكانت تلبى جميع طلبات العائلة في هذا المنزل. وفي الثالث من تموز ١٩٨٧ جاء المحامي كيجمن لزيارة العائلة، وأخبر أفرادها بأنه قابل الملك قبل عدة أيام، وأن الملك أخبره عن تبنيه لأبناء الأسرة في الماضي وأنه يعتبرهم كأولاده. وطلب المحامي إطلاق سراح أفراد الأسرة، ووافق الملك ولكنه يرفض السماح لهم بالسفر إلى فرنسا، بحجة أنه يخشى الاعتداء عليهم من أبناء الجالية المغربية في فرنسا. وعرض الملك ترحيلهم إلى (إسرائيل) بحجة أن ذكرى والدهم محترمة هناك، لأنه سمح لليهود المغاربة بالهجرة إليها بالآلاف.

وفي النهاية نجح المحامي في الحصول على وعد من الملك بمنح أبناء الأسرة جـــوازات سفر وتأشيرات خروج إلى كندا وأخيراً سمح للجد والد الأم بالزيارة.

وتحدد يوم ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) لسفر العائلة، وجرى الاستعداد بشراء ملابس وحقائب ومعاطف وسترات سميكة وأحذية مبطنة، ومنحت لأفـــراد العائلـــة الهويـــات وجوازات السفر والتذاكر، ولكنها سُحبت منهم عشية موعد السفر، مما تسبب في إحباط أفراد العائلة، وإن كانت الابنة الكبرى تقول إنها لا تثق بصدق ما يعرضه الملك أو يعـــد به. وفعلاً وصباح يوم السفر وصل إلى مكان إقامة العائلة ثلاثة مـــن منـــدوبي الســـلطة وأخبروها بأن صاحب الجلالة يرى أن ينتظروا بعض الوقت فهو لم يتهيأ تمامـــاً لفكـــرة رحيلهم، وقالوا لهم أيضاً بأنه لا يمكنهم السفر دون رؤية جلالته. وقدمت الوالدة التماساً بمقابلة الملك لكن دون تحقيق ما كان يُنتظر. وتقول الابنة الكبرى إن من أسباب فشـــل السفر هو رفض الأم التوقيع على تعهد مكتوب بعدم إقامة دعوى على الدولة المغربيـــة، وكان المحامي كيجمن وعد الملك نيابة عن أفراد الأسرة بذلك. ولم يكن مـــن مصـــلحة السلطة مغادرة الأسرة البلاد ومعظم أفرادها ما يزالون يعانون من أمراض متعـــددة. ولا شك أنهم سيكونون حديث الصحافة في العالم.

كان من المقرر أن يكون الرحيل طي الكتمان، لكن الخبر تسرب وانتظر الأسرة ممثلون عن الجالية المغربية اليهودية في مطار مونتريال وهم يحملون لافتات الترحيب. وقبل إطلاق سراحها أمضت الأسرة أربع سنوات أخرى في سجن هو عبـــارة عـــن دارة في مدينـــة مراكش.

وفي عام ١٩٩١ صدر كتاب الفرنسي جيل بيرو (صديقنا الملـــك) والـــذي قوبـــل بالاستنكار الشديد في المغرب وأثار غضب الملك ففي هذا الكتاب يتكلم مؤلفـــه عـــن علاقات الملك بأسرة أوفقير لاسيما زوجته، ويقول بأن سكينة ابنة أوفقير هي ابنة للملك الحسن. وغير هذا من أقاويل كثيرة حول علاقة أسرة أوفقير بالملك والقصر.

وقد أحضر الكتاب وأعطي لأفراد الأسرة وأن الرد سوف ينتشر في جريدة (الفيفارو) الفرنسية، وهكذا وفي هذا العام **١٩٩١** وأثناء انشغال العالم بحرب الخليج الثانيــة أبلــغ أفراد أسرة أوفقير بأنهم أصبحوا أحرار، بعد أن مضى عشرون عاماً على سجنهم جراء ما اقترفه رب هذه الأسرة والذي تمت تصفيته قبل عشرين عاماً. وغادر جميع أفراد الأسرة المغرب حيث يقيمون في فرنسا.

خمس سنوات كانت يمكن أن تنقذ العائلة من المعاناة فكيف كان ذلك ؟.

بعد أن أتم القارئ ملخصاً لقصة هذه العائلة، بقي عليه أن يعرف أن فترة خمس سنوات كان يمكن أن تخلص العائلة من كل ما واجهتها وعانت في فترة سجنها الطويلة والتي لا مــبرر لهــا قانونياً وإنسانياً، فالتاريخ المعاصر لا يخبرنا أن نساء وأطفالاً أخذوا بجريرة جرم قام به والدهم أو رب أسرهم، وهي حادثة تكاد أن تكون فريدة في هذا العصر الذي نعيشه لاسيما مــن ملــك عرف بسعة ثقافته واطلاعه على تاريخ بلاده خاصة والعالم بشكل عام كما عرف عنه تبحره في علوم الدين وإلقائه دروس الوعظ والإرشاد في شهر رمضان خاصة وفي مساجد بعينه.

وبالعودة إلى قصة عائلة أو فقير ضمن المصادفات الغريبة أن زوجة أو فقير كانت على علاقة بضابط شاب يدعى حسن وأنها هربت وعاشت معه بضع سنوات دون زواج رسمي والغريب أن أوفقير الذي أرهب شعب المغرب لسنوات كان يبحث عنها في الربــاط والــدار البيضــاء لا ليعاقبها ولكن ليعيدها إلى عصمته وإن كان ارتبط بزوجة أخرى فترة غيابها.

ومن مصادفات القدر أنه استطاع أن يجدها ويعيدها إلى منزله قبل خمس سنوات من إلقــاء القبض عليه وإعدامه ولو لم يجدها أوفقير لاستطاعت أن تقول بأنها لم تعد زوجته وأنها أصبحت زوجة لإنسان آخر وأنها قطعت علاقتها به منذ سنوات، وكان الأبناء ربما تخلصوا مما واجهــوا بعد ذلك. أما ذلك الضابط الشاب فكان قد أبعد ملحقاً عسكرياً في إحدى الدول الإفريقية ثم تنقل في أكثر من دولة وغاب عن المغرب سنوات طويلة.

وحول قصة هروبها من منزل أوفقير لتنضم إلى عشيقها حسن تقول فاطمــة أوفقــير الزوجة: ((في الوقت الذي كانت قضية بن بركة تتفاعل عبر أمواج عارمة كنــت تحــت تأثير حسن، وحتى ذلك الحين لم يحاول أحد أن يكيف سلوكي، أو أن يسيرني أو يملي علي

إرادته، فأنا لا أقبل ذلك، غير أنني غدوت أداة بسيطة ين يدي رجل يقرر ما يجب علـــي تناوله من مأكل وما يجب ارتداؤه من ملبس وزوجي المرهوب الجانب في المغرب لم يلجأ لمثل هذا التصرف المتسلط والجائر، وكان يترك لي حرية ارتداء الملابـــس الـــتي أريـــد، وتعودت دائماً أن أفعل ما يحلو لي، لكن هذا كان مستحيلاً مع حسن. شعرت بشـــكل مبهم بأنني لا أستطيع التفاهم على الدوام معه، تراكمت تفاصيل تصرفات عديـــدة أدت إلى إزعاجي، فهو مثلاً يفضل أجزاء من جسمي على أخرى، فكيف يمكن تفكيك امرأةإلى قطع متناثرة، هذا جيد فيها وذاك أقل جودة، هذه صفة جميلة لديها وتلك أخرى ذميمة، فالمرأة كل متكامل روح وكيان وسلوك.

وكان هناك أوفقير تقول (فاطمة زوجته)الذي يضايقنا بمطارداته، وفي النهاية عندما علم زوجي السابق أن منافسه استقال من الجيش ليتزوجني صمم على القتال لاستعادتي وإعادتي إلى بيـــت العائلة، وكنت حائرة مترددة في اتخاذ القرار، يتنازعني غرام عشيق مشبوب العاطفة، وصـــلابة رجل لا أريد رؤيته يخرج من حياتي، لم أجد منفذاً للوضع فأنا مع هذا أو ذاك غير كاملة وممزقة، أردت في غمرة قنوطي أن أنتهي، ارتديت قميص نوم أبيض جميل من الحرير وابتلعـــت كميـــة هائلة من الحبوب المهدئة، نقلت إثر ذلك إلى المشفى وبقيت ثمانية أيـــام في غيبوبـــة. وعنـــدما خرجت من الغيبوبة وهذا الكابوس وجدت نفسي في غاية الهزال والسخف والحمق والتناقض، ثم كانت العودة إلى الحياة وبدأت أجد نفسي أكثر صفاء ووعياً، ودارت في رأســـي الأســـئلة التالية وتركت كل شيء لمن ولماذا ؟

اللقاء الأخير:

عدت لرؤية حسن وذات مرة أحسست في طويتي أنها الخاتمة واللقاء الأخير، استأجرنا غرفة حقيرة في سوق المزاد في قلب الدار البيضاء حيث لا يمكن لأحد العثور علينا، بقينا ثلاثة أيـــام منعزلين عن الدنيا، نعيش على الخبز والحليب فقط، وقد انصرف كل منا إلى الآخر في هـــوى جنوني أرعن. بعد ذلك قررنا أن نلجأ إلى ضيافة طبيب مشهور، امرأة جميلة جداً لا تخجل عن الحديث حول الأخلاق والضمير وهذا هو وضعها اتصلت بها هاتفياً قائلة _سأحضر مع حسن. أجابت بكل سرور، سأخصص لكما غرفة الاستقبال إستقبلتنا بقميص نـــوم

شفاف عاري الصدر بشكل فاضح وانحنت بإغراء وهي تقدم الشاي لحسن والذي شخصت عيناه على هذه المفاتن المعروضة، وهي لا تحجم عن شيء ودون أي وازع أخلاقي وهذا المنظر دفع الدم حاراً في عروقي ونهضت فجأة أريد الانصراف، لكن حسن استوقفني مقسماً على حبه السرمدي، وقضينا الليلة معاً، وفي الصباح الباكر حملت حقيبتي وتسللت من المترل هاربة.

لم أحتمل نظرات ذلك الشاب الشهوانية لتلك المرأة، نظرات شهوة لم يستطع التحكم بها، لم أغفر لأي منهما فكرامتي فوق حبي (وهي من يغفر لها ما فعلت وتركت خلفها أطفالاً من أجل نزوتها، حقيقة إنه كلام غريب ويكاد أن يكون لا سابقة له، فهي تتهم غيرها بأنهم يحملون نفس صفاتها من خيانة وتجرد من كل ما يمت للأخلاق والقيم بصلة) غدوت صارمة متشددة وبحق؛ من أجل حسن تخليت عن حياة حافلة (غاب عنها القول بأنها تركت أطفالها أيضاً من بنين وبنات)وهو يتجرأ على أن يتصرف حيالي بمثل هذه الوقاحة، هذا ما لا أطيقه. وعدت إلى المترل الصغير الحقير (حقارة من سكنه) وعندما اتصل بي حسن في اليوم التالي أجبته بفظاظة، لا تعد أبداً للاتصال بي. وقال إنني أهاتفك من مترلها، قاطعته بحدة أعرف أنك عندها ويمكن أن تبقى حتى ترتوي وداعاً وشكراً. وهكذا انتهت علاقتنا الغرامية، لم أر بعد ذلك حسنا لكنه أثر على حياتي وقلب جميع مبادئي (أية مبادئ هذه التي عندها)ومبرر وجودي وطريقة رؤيتي للأشياء.

بقيت عدة أشهر ممزقة بين هواي الطائش الأرعن وزوجي الذي أحبه باحترام وهل بقي زوجها بعد كل هذا ؟ عند خروجي من مترل تلك المرأة ذهبت لزيارة إحدى الصديقات التي أعلمتني أن زوجة أوفقير الجديدة كانت منذ وقت قصير في زيارة لها، وأعلمتني أن أوفقير لا يريد أن يستعيدني أبداً بعد كل الذي فعلته به، وهو ينبذك الآن ولا يريدك أبدا (كم هو غريب أن يقول ذلك في عرف هذه الزوجة اللعوب)وذهبت إلى مترلي (لم أتذكر أي مترل) وبعد فترة حضر أوفقير للقائي وليخبرني أن أقوم بالتحضير لزيارة سوف يقوم بها الملك للبلدة مسقط رأس أوفقير. وعندما حضر الملك ورآني توقف مندهشا وقال ماذا تفعلين هنا ؟ أستقبلكم بكل تواضع بعد أن طلب مني أوفقير الحضور. قطب الملك حاجبيه مستغرباً، فإذا كان أوفقير أراد

استعادة زوجته فلماذا لم يخبره ؟وذهب جلالته إلى مراكش، وعدت مع أوفقير إلى الرباط في المساء ذاته. وعندما أراد أوفقير النوم في غرفتي رفضت وقلت له أنا لست من النساء اللواتي يرضين العيش إلى جانب زوجة أخرى. ثم إننا مطلقين. فقام أوفقير باستدعاء القاضي الشرعي وأعاد زوجته الخائنة مرة أخرى. وكان ذلك عام ١٩٦٦ أي قبل السجن بخمس سنوات.

أوفقير لماذا حاول الانقلاب على ولي نعمته

الجنرال أوفقير كان من أعمدة السلطة في المغرب وربما كان الأقرب إلى الملك، ولم يعرف عنه يوماً أنه صاحب شعبية أو أنه منحاز إلى الطبقات الفقيرة وما أكثرها في المغرب، كما أنه لم يعرف عنه وهو البربري الذي يكاد يتكلم العربية أية ميول قومية أو وطنية، لا بل إنه كان اليد التي يتخلص بواسطتها النظام من معارضته، وهو المتهم الأول باختطاف وقتل المناضل المغربي المهدي ابن بركة. إلى جانب الآلاف الذين اختفوا أو تمت تصفيتهم داخل المغرب، وهذا ما كشف عنه مؤخرا وبأوامر من الملك محمد السادس والذي تقدم بالاعتذار من شعبه على تلك الأعمال.

أوفقير كان إنساناً لا يخدم إلا نفسه ونزواته وكان على استعداد لتنفيذ أي أوامر تصدر من الملك ودون نقاش. يتمتع بأخلاق عجيبة مريبة فكما أسلفنا فإنه كان يعلم عن علاقة زوجته بضابط شاب حتى وصلت هذه العلاقة لدرجة هروبها مع ذلك الشاب وإقامتها معه لمدة قاربت الخمسة أعوام وهي الأم لستة أبناء وبنات ومع كل ذلك بقي يبحث عنها وهو مدير الأمن إلى أن وجدها وأعادها إلى عصمته ومنزله رجل بهذه الأخلاق وهذه النفسية كيف يقوم بعمل انقلابي ضد سيده ومولى نعمته وماذا كان يريد من ذلك العمل ؟فهو ليس حزبيا ولا حريصا على مصلحة سواد الشعب المغربي وهو الذي عرفت أخلاقه وسيرته حتى أن ذلك الفرنسي الذي أسلفنا أنه ألف كتابا عنه يصفه بأنه كان يتعامى عن تصرفات زوجته وبناته ما دام يرى في ذلك مصلحته وبقائه في الوضع الذي هو فيه؛ مثل هذه الشخصية الانتهازية الفارغة من كل خلق ودين ما الذي دفعها لمحاولة الاستيلاء على الحكم ؟ أمثال هؤلاء عندما يقومون بمثل هذه الأعمال فلا بد أنهم مدفوعون من جهات خارجية تريد تحقيق أهداف معينة غالبا ما تخفى على العامة. ورجال أمثال أوفقير خير من يقوم بمثل هذه الأعمال. أوفقير لم يتورع عن تهجير آلاف اليهود المغاربة إلى فلسطين لذلك فلا غرابة أن تكون شعبيته بين اليهود. أما من شارك معه في

المحاولتين ربما جمعتهم الوسيلة ولكن أهدافهم كانت متباينة ومتضاربة وعلى أية حال فهذه هي الحقائق كما صرح بها العارفون. والله يدبر بما يشاء وعلى عباده التفكير والحكم.

الحاج أمين الحسيني
مسيرة رجل ومصير وطن

من هو الحاج أمين؟

ولد الحاج أمين الحسيني في القدس عام ١٨٩٥ وهو الابن الثالث لطاهر الحسيني مفتي القدس الذي انتقل إلى رحمته تعالى عام ١٩٠٨، ورزق طاهر الحسيني من زوجته محبوبة سبع بنات وطفلاً واحداً هو كامل الحسيني، وأصبح كامل مفتياً للقدس بعد وفاة والده. ورزق طاهر من زوجته الثانية زينب طفلين هما فخري وأمين. وقد رضع الحاج أمين من مرضعة عربية اسمها فاطمة القنبر من عائلة العباسي من قرية سلوان قرب القدس.

وتعود الحاج أمين على زيارتها باستمرار، وكان يحترمها مثل والدته ويقبل يديها كما يقبل يدي والديه. وعاش الحاج أمين أيام طفولته مع أبناء أخواته وهم أبناء جيل واحد، ومن أصدقائه في طفولته إسحق درويش، وراغب الإمام ورشدي الإمام.

وكان بيت طاهر الحسيني (والد الحاج أمين) يمتليء بالزوار من الشيوخ وغيرهم، وكان الطفل أمين يصلي معهم باستمرار ويستمع أثناء طفولته إلى الدروس الدينية التي كان يلقيها والده في هذا المجلس على الزوار، وكان في بيت طاهر غرفتان لاستقبال الضيوف غرفة لاستقبال الرجال وأخرى للنساء، وكان الزوار أحياناً يبيتون ليلتهم في تلك الغرفة، وكان أمين يرافق والده دوماً للصلاة في المسجد الأقصى، وكان يصطحب معه أطفالاً من أترابه وتعتبر طفولته في معظمها دينية، فوالده مفتي القدس وزوار والده معظمهم من شيوخ فلسطين، لذلك استطاع حفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، وتمتع بصيام شهر رمضان صغيراً ثم صلاة العيدين في المسجد الأقصى المبارك.

ومع أن والده كان من أبرز رجال الدين في القدس، إلا أنه عين الشيخ علي الريماوي من قرية بيت ريما قرب رام الله لتعليم أولاده كامل وفخري وأمين العلوم الدينية في البيت، وبالإضافة إلى هذا فقد درس أمين في مدارس خاصة كانت تسمى (الكتاب) وبعد

ذلك أكمل دراسته الابتدائية والإعدادية في المدارس الحكومية، كما درس لمدة سنتين اللغة الفرنسية في مدارس الفرير في القدس. وكان مركز أفراد العائلة الحسينية الذين توارثـــوا الإفتاء أباً عن جد مركزاً دينياً مرموقاً يحترمه سكان القدس خاصة وفلاحو فلسطين عامة، فأصبح بيت مفتي القدس معروفاً لعدة أجيال في القدس وما حولها، ويدعى بدار المفـــتي، وعندما توفي طاهر الحسيني والد الحاج أمين أصبح ابنه كامل مفتياً للقدس وقـــد اهـــتم بتربية أخيه أمين ولاسيما بعد وفاة زينب والدة الحاج أمين خلال الحرب الأولى.

وعندما بلغ الحاج أمين الثانية عشرة من عمره تعلم ركوب الخيل في أراضي العائلـــة الحسينية في قالونيا وأصبح فارساً، وقرب هذه القرية أقام اليهود مستعمرة تدعى (موتسا) وكان هرتزل قد زرع بها أول شجرة، فقام أمين ورفاقه باجتثاث تلـــك الشـــجرة وقـــد أخذت الصحف الصادرة في فلسطين ذلك الوقت تنبه إلى خطورة ما يخطط له اليهود في فلسطين.

هذا وقد سافر أمين عام ١٩١١ للالتحاق بجامعة الأزهر وكان أخوه كامل قد بعثه إلى الجامعة المذكورة للالتحاق بها بقصد إعداده ليصبح مفتياً للقدس من بعده، وكان يرســـل له خمسة جنيهات تركية كمصروف شهري. وفي القاهرة درس أمـــين في ثلاثـــة معاهـــد أكاديمية هي جامعة الأزهر، ودار الدعوة والإرشاد وهي المدرسة التي أنشأها رشيد رضا، وكلية الآداب بجامعة القاهرة. درس في المعهدين الأول والثاني دراسة إسلامية علـــى يـــد رشيد رضا الذي درسه الفلسفة والحركة الإسلامية والتي كان جمال الدين الأفغـــاني أول من درسها للتوعية بالوحدة الإسلامية وأهمية الوقوف بوجه الغزو الأوروبي.

وكانت قاعات الدرس في الأزهر مقسمة إلى عدة غرف، في كل غرفة يدرس جماعـــة من بلد واحد، يدرسهم شيخ، فهناك مثلاً رواق الهنود ورواق الشوام والمغـــرب وغـــير ذلك. وكان أمين يتنقل بين رواق وآخر للتعرف على المسلمين من مختلـــف الأمصـــار، والمتخرج من الأزهر كان يطلق عليه لقب شيخ ولكن الحاج أمين لم يطلق عليه لقب شيخ بل أطلق عليه لقب حاج لأنه أدى فريضة الحج مع والدته عام ١٩١٣.

حياة الحاج أمين العسكرية في تركيا

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ أخذت الدولة العثمانية تنشط بتجنيد الشباب من بلاد الشام ومختلف الأقطار التابعة لها وكانت إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء. وكان الحاج أمين من المجندين وكان الحاج أمين عسكرياً نشيطاً تنقل في مناطق كثيرة في تركيا أثناء العطل الرسمية، وكان يقوم دوماً بزيارة ابن عمه إبراهيم بك الحسيني وكذلك سعيد الحسيني الذي كان عضواً في البرلمان العثماني، كما قام بزيارة بعض أقاربه وأصدقائه مثل ابن عمه جميل الحسيني، وفيضي العلمي (صديقه من القدس) وكانت حياته صعبة في تركيا لاسيما في البداية بسبب ظروف الحرب، فكان كل شيء مرتفع الثمن في الدولة وكانت بعض الأشياء مفقودة والحاج أمين لم يتعود حياة التقشف والعسر فهو ابن عائلة ميسورة مرفهة كانت وما تزال تقريباً وإن تلاشت سطوة العائلات ونفوذها بحكم تغير الظروف والأحوال.

ووصف الحاج أمين في يومياته ظروف الحياة في تركيا بأنها كانت صعبة جداً عندما كان جندياً، وذكر أنه لم يستطع النوم ليال كثيرة بسبب كثرة القمل والبق في ملابسه وفراشه وأن كثيراً من أنواع المأكولات كانت صعبة المنال، والطقس البارد أثر على حياته وكاد يموت بسبب البرد لعدم توافر الغطاء الكافي، ولكن هذه الحياة تغيرت بعد أن رقي إلى رتبة ضابط (ملازم) بعد عام حيث انتقل بفرقته إلى أزمير وتقابل هناك مع ضباط مثل عبد الحميد الحص ومحمد صوفان وغيرهم. وكان المسؤول عن فرقته ضابط تركي تشاجر معه الحاج أمين لأنه لم يكن يوزع الأكل على الجنود بالعدل، وكان يميز الجنود الأتراك وطالبه الحاج أمين بان يكون عادلاً في التوزيع بين العرب والترك.

لذلك بدأ الجنود العرب ينظرون إليه بتقدير واحترام، ولاسيما عندما كان يصلي في الجنود إماماً، وكان يتقن اللغة التركية كاملها. واتخذ الحاج أمين ثلاثة أصدقاء من العراق كان لهم شأن فيما بعد فقد قاموا بالحركة التي عرفت بثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق

إبان النفوذ البريطاني وكان ذلك عام ١٩٤١ وهؤلاء هم فهمي سعيد، وصلاح الـدين الصباغ ومحمد سلمان.

النشاط السياسي

نستطيع القول بأن النشاط السياسي للحاج أمين الحسيني لم يبدأ بشكل فعلي وحقيقي إلا بعد صدور وعد بلفور ٢ نوفمبر ١٩١٧ وخاصة عندما بدأ اليهود يظهرون عداءهم للعرب.

وقد عاصر الحاج أمين سقوط مدينة القدس بيد الإنجليز في أيلول (سـبتمبر) ١٩١٧، وقد تم هذا السقوط بعد أن وقع متصرف المدينة التركي عزت باشا على وثيقة التسليم، وطلب من عمدة المدينة حسين بك الحسيني أن يسلم هذه الوثيقة إلى الإنجليز لكي يدخلوا القدس دون أن يدمروا أي معلم بها، وحضر مراسم التسليم أعيان القدس ومنهم، حسين بك سليم الحسيني وتوفيق صالح الحسيني، وجواد اسماعيل الحسيني، ورشدي المهتـدي، وأحمد شرف (رئيس الشرطة) وإبراهيم زعنون وحسين العسلي، وعبد القادر العلمـي، وحنا اسكندر اللحام الذي كان يحمل العلم الأبيض.

وكان متصرف القدس التركي قد بعث برسالة التسليم قبل سقوط المدينة بيوم واحد إلى الإنجليز وكان نص الوثيقة بالتركية، وترجمتها: ((آمل أن يتصف سلوك الجند البريطاني بالعدل تجاه السكان، وأرسل هذه الوثيقة مع حاكم القدس حسين سليم الحسيني)).

وانضم الحاج أمين وغيره من أبناء فلسطين قبل نهاية الحرب الأولى لمسـاعدة الأمـير فيصل الذي كان يقود جيش الثورة العربية الكبرى. وجمع الحاج أمين كثيراً من المتطوعين من أهالي فلسطين للانضمام إلى جيش الأمير فيصل، فقد جمع ثلاثة آلاف متطـوع مـن القدس والخليل وغيرهما من مدن فلسطين وسافر معهم إلى الأردن للانضمام لجيش فيصل الذي كان في العقبة.

وعند دخول الإنجليز كان الشيخ كامل لحسيني مفتياً للقدس كما كان رئيس البلدية من آل الحسيني أيضاً، وعمل كامل الحسيني على تهدئة الشعب في القدس وتشـجيعهم

على التفاهم مع المحتل الجديد وهم الإنجليز فمنحوه وسام التاج البريطاني، كما منحوه منصب رئاسة محكمة الاستئناف في القدس وأصبح المفتي كامل قاضياً للقدس ورئيساً للجنة الأوقاف. وقد لقبه الإنجليز (بالمفتي الأكبر) لإشرافه على هذه الوظائف كلها، وهذا اللقب أوجده الإنجليز ولم يكن معروفاً من قبل. وبينما كانت علاقة الحاج أمين سيئة بالإنجليز كانت علاقة شقيقه جيدة مع حاكم القدس الإنجليزي الجنرال رونالد ستورز، وقد استمرت هذه العلاقة الجيدة بين ستورز والعائلة الحسينية حتى وفاة الشيخ كامل الحسيني. وقد صرح ستورز يوماً بأنه لا يعرف أحداً في فلسطين إلا المفتي كامل وبعض العائلة الحسينية، وقال إن كامل لم يكن يصدر أمراً من دون الرجوع إلى الحاكم ستورز.

وقدم العرب في القدس مسلمون ومسيحيون وثيقة إلى ستورز وقعها أكثر من مئة شخص من ست منظمات عربية، وكانت هذه الوثيقة احتجاجاً على عزم اليهود إقامة احتفالات بمناسبة مرور عام واحد على صدور وعد بلفور.

ولكن ستورز أقام حفل استقبال للمنظمة الصهيونية في ٢٠ نيسان ١٩١٨ كان يحضره الشيخ كامل الذي انسحب من الحفل احتجاجاً على كلمات القادة الصهاينة والتي ركزت على أن مستقبل فلسطين سيكون مبنياً على وعد بلفور.

أما الحاج أمين فقد عينه الإنجليز كاتباً في مكتب جبريل حداد الذي كان يعمل مسؤولاً عن الشؤون العربية لدى الحاكم العسكري رونالد ستورز، ثم نُقل للعمل في مكتب الجمارك في قلقيلية. ولكن الحاج أمين بحث عن عمل آخر يناسبه فحصل على وظيفة مدرس في المدرسة الرشيدية بالقدس. ثم درس في مدرسة روضة المعارف والتي كانت بؤرة حركة النشاط الوطني الفلسطيني مع مدرسة النجاح في نابلس والتي تأسست عام ١٩١٨.

وأنشأ الحاج أمين النادي العربي وذلك بمساعدة أصدقائه وأقاربه مثل أخيه فخري وإسحاق درويش ابن أخته وعبد اللطيف ابن عمه، وشكري يوسف ياسين والشيخ حسن أبو السعود ومحمد العفيفي، وإبراهيم سعيد الحسيني، وأهداف هذا النادي تطابق أهداف

النادي العربي في دمشق، وأهمها الاستقلال والوحدة العربية. كذلك تشكل في فلسطين نواد وجمعيات أخرى مثل المنتدى الأدبي والجمعية الإسلامية المسيحية، وكان هدفها كلها هو الجهاد حتى يتم استقلال سوريا الكبرى والدفاع عن الوطن بمنع الهجرة الصهيونية ومنعها من تحقيق أهدافها، وترأس الحاج أمين النادي العربي، في حين ترأس المنتدى الأدبي حسن صدقي الدجاني، ويوسف الخطيب.

وكان هناك مجموعتان لعبتا دوراً سياسياً عربياً وإسلامياً في فترة الحكم الإنجليزي على فلسطين، مجموعة الشباب التابعة للحاج أمين وتضم أصدقاءه من النادي العربي مثل سعد الدين عبد اللطيف وكامل البديري وجميل الشهابي وغيرهم، والمجموعة الثانية هي الجمعية الإسلامية المسيحية وتضم مجموعات مختلفة.

وكان هدف مجموعة الحاج أمين أن تكون سوريا مستقلة، وأن تكون فلسطين من ضمن هذه الدولة المستقلة إضافة لهدف وقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، وأما المجموعة الثانية وهي الجمعية الإسلامية المسيحية فكان هدف بعض الأعضاء استقلال فلسطين وأن لا تكون متحدة مع سوريا.

وصمم الحاج أمين على تشجيع الشعب العربي الفلسطيني للمناداة بوحدة سوريا الكبرى، ففي ١٩١٩/٤/١٢ تجول الحاج أمين وإسحاق درويش في نابلس والقدس داعين أعيان البلاد للاجتماع لعقد مؤتمر فلسطيني لبحث آخر التطورات في فلسطين، ولاتخاذ قرار بوحدة سوريا الكبرى (فلسطين جزء منها) وفي الاجتماع الذي عقد في منزل إسماعيل الحسيني وافق الجميع على وحدة سوريا الكبرى وعدم تجزئتها، وقرروا محاربة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين بكل الوسائل المتاحة خاصة التضحية بالروح والدم.

وفي هذا الوقت قدم إلى القدس شخص يدعى حداد باشا بغرض إفشال هذا المؤتمر الفلسطيني، إلا أن الحاج أمين تصدى لحداد باشا ورفض وساطته، وقيل إن هذا الرجل كان يعمل في الجيش البريطاني السري، وكان في ذلك الوقت يعمل كرئيس لجهاز الشرطة في سوريا إبان الحكم الفيصلي، وجاء مبعوثاً من قبل الإدارة البريطانية لمنع الوفد من

تحقيق أهداف مؤتمر الشباب، وهي وحدة سوريا الكبرى (وفلسطين جزء منها) وأطلق المؤتمرون على فلسطين اسم سوريا الجنوبية.

وتصدى الحاج أمين كذلك لراغب النشاشيبي وعارف الدجاني لأنهم نادوا بفصل فلسطين عن سوريا، وطلبوا ذلك رسمياً من لجنة كينج كرين. وقد تدخل الإنجليز في شؤون الانتخابات حينما عينوا موظفي الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا، كما شجع الإنجليز بعض الشخصيات الفلسطينية للطلب من أعضاء لجنة كينج كرين قبول الانتداب البريطاني.

وقد ازداد نشاط الحاج أمين السياسي عندما علم بقرار مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩ الموافقة على وعد بلفور.

وقد سعى الحاج أمين وعمل على إبقاء الخلافة الإسلامية حيث أنها مسألة حساسة للمسلمين جميعاً (في ذلك الوقت) وأراد آل الحسيني أن يكون الشريف الحسين بن علي خليفة للمسلمين، أما الإنجليز فقد بينوا رأيهم وموقفهم من هذا الأمر في الرسالة التي بعث بها رونالد ستورز إلى وزارة خارجية بلاده في ١٩١٨/١١/١٩ بأن ((المسلمين طلبوا من المفتي الأكبر ذكر اسم شريف مكة خليفة للمسلمين في خطبة الجمعة ولكني أوقفت تحقيق هذه المطالب)) ثم دعا ستورز المفتي الأكبر وأقنعه بان لا يذكر اسم الشريف حسين كخليفة في المساجد ولكن الحاج أمين ومعه مجموعة من شخصيات فلسطين رغبوا أن تكون فلسطين والأراضي المقدسة تحت حكم الشريف حسين.

وبعد قيام الحكم الملكي في سوريا بتاريخ ١٩٢٠/٣/٨ وتتويج الملك فيصل بن الحسين ملكاً على سوريا الكبرى، كان سرور عرب فلسطين كبيراً بهذا الحدث، ولكن وزير الخارجية البريطاني صرح بعد عشرة أيام أي في ١٩٢٠/٣/١٨ في مجلس العموم البريطاني أن فلسطين لن تكون متحدة مع سوريا، وقد أغضب هذا التصريح أهل فلسطين، وهذا يدل على نوايا الإنجليز وخططهم لتهويد فلسطين مستقبلاً.

وفي عام ١٩٢٠ أعلن الجنرال الإنجليزي بولز أن مؤتمر الصلح في باريس قد وافق على إعطاء بريطانيا الانتداب على فلسطين، وأن وعد بلفور سيكون من بنود الانتداب. الأمر الذي أغضب أهل فلسطين وأبدوا احتجاجهم وكانوا ينادون (فيصل يا سلطان وتسقط الصهيونية) وقيل إن الحاج أمين الحسيني وعزة دروزة هما أول من بدأ هذا الهتاف.

وفي هذا العام حدثت اضطرابات واشتباكات بين العرب واليهود قتل فيها العديد من الطرفين وسميت حوادث ١٩٢٠، وعندما سمع الملك فيصل بهذه الأحداث بعث برسالة احتجاج إلى اللورد اللنبي مؤرخة بتاريخ ١٠/٤/١٩٢٠. واتهم اليهود الحاج أمين بأنه كان المحرض الأول لهذه الأحداث. وبعدها هاجم بعض اليهود منزل المفتي كامل الحسيني الأخ غير الشقيق للحاج أمين ولكنهم أطلقوا النار على الحاج أمين لا على المفتي، مما أثار غضب أهالي القدس واحتجاجهم، أما السلطات البريطانية فناصرت اليهود في هذه الأحداث وعزلت السيد موسى كاظم الحسيني عن رئاسة بلدية القدس وعينت بدلاً منه راغب النشاشيبي. كذلك حكمت المحكمة البريطانية العسكرية في القدس على الحاج أمين الحسيني، وعارف العارف – محرر جريدة سوريا الجنوبية – بالسجن غيابياً مدة (١٥) سنة، وكان الحاج أمين قد فر إلى الأردن ثم دمشق، وطلب من الشيخ رفيقان باشا حمايته.

ثم انتقل إلى دمشق وشكل هناك مع مجموعة من الشخصيات الفلسطينية (جمعية فتى فلسطين) وكان ممن شاركوا معه عارف العارف ورفيق التميمي وعزة دروزة، ومعين الماضي، وإبراهيم قاسم عبد الهادي وسليم عبد الرحمن، وانتخب الحاج أمين رئيساً للمنظمة، وعارف العارف سكرتيراً، وعزة دروزة للمالية.

عاد الحاج أمين إلى القدس نهاية ١٩٢٠ قادماً من الأردن بعد أن سمح له المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل بالعودة، وتم ذلك بعد توسط شيوخ الأردن. وفي هذا

العام كان أخوه المفتي كامل في الترع الأخير، وكاد أن يشغر منصب الإفتـاء، وحـاول الإنجليز تعيين شقيق كامل مفتياً ولكن العائلة رفضت كونه ليس رجل دين أصلاً.

وقد توفي الشيخ كامل الحسيني في ١٩٢١/٣/٢١ وأصبح منصب الإفتاء شـاغراً. وتنافس على المنصب أكثر من شخص، وكان آل النشاشيبي يريدون أن يكون منصـب (مفتي القدس) بيد مرشحهم وهو الشيخ حسام الدين جار الله، وفي هذا الحال يكونون قد احكموا سيطرهم على المدينة والتي يسيطر على رئاسة بلديتها راغب النشاشيبي وكان من المتنافسين الشيخ خالد الخالدي، وموسى البديري والحاج أمين الحسيني والشيخ سـعود العوري وأخيراً أمين العوري.

لم يوافق الإنجليز بداية على تعيين الحاج أمين مفتياً، وجرت انتخابات حصل بموجبهـا الشيخ حسام الدين جار الله على أعلى الأصوات (١٩) الحاج امين (٩) وبقيت الأمـور بين أخذ ورد وقبول ورفض وكان الإنجليز في هذه الأثناء يحاولون ضرب عائلة الحسـيني بعائلة النشاشيبي وعائلات فلسطينية بعضها ببعض وأخيراً استطاع كـل مـن سـتورز وريتشموند إقناع صموئيل بتعيين الحاج أمين الحسيني لهذا المنصب قائلين له بـأن تعيـين الحاج أمين بهذا المنصب سوف يبعده عن العمل السياسي وإحداث المشاكل كما حـدث عام ١٩٢٠. وبالفعل ظل الحاج أمين هادئاً طوال الفترة من ١٩٢١ – ١٩٢٨.

تحركات مفتي القدس لحماية فلسطين

وقف الحاج أمين بشدة ضد عقد المؤتمر التبشيري الدولي عام ١٩٢٨ علـى جبـل الزيتون بالقدس والذي حضره ٢٤٠ ممثلاً من (٥١) دولة في العالم، ولم يحضره مسيحيون عرب، فهذا المؤتمر كان من أهدافه التشكيك ومحاربة المذاهب غير البروتستانتية. إضـافة إلى أنه كان مدعوماً من السلطات البريطانية وخطوة على طريق تهويد فلسـطين، وقـد احتج العرب مسلمون ومسيحيون على عقد هذا المؤتمر حتى أن المسيحيين الفلسـطينيين نادوا في هتافاتهم (حاج أمين يا مفتينا) ورد الحاج أمين على هذا المؤتمر بعقـد مـؤتمرات إسلامية في جميع المدن الفلسطينية، وتشكيل نوادٍ إسلامية في مدن فلسطين كلها، وربـط

هذه النوادي بالنوادي الموجودة في مصر، وكان من الصدف أن المرحوم الشيخ حسن البنا كان قد شكل جماعة الإخوان المسلمين في هذه السنة نفسها وقد غضب المندوب السامي (بلدمر) بسبب اندلاع هذه المظاهرات وطلب مقابلة المفتي للمساعدة في إيقافها.

نشاط الحاج أمين الدولي

في عام **١٩٣٠** اشترك المفتي في الوفد الفلسطيني إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية بشأن قضية فلسطين وتحقيق مطالب الشعب الفلسطيني، ثم توجه إلى سويسرة واجتمع بالسير أريل روموند الأمين العام للجنة الانتدابات وبعدد من كبار رجال السياسة فيها وباحثهم بشأن القضية الفلسطينية.

عقد مؤتمر العالم الإسلامي وجعل قضية فلسطين قضية عالمية

في عام **١٩٣١** دعا المفتي إلى عقد مؤتمر إسلامي ليجعل من قضية فلسطين قضية عربية إسلامية لا بل عالمية، وقد حضر هذا المؤتمر مندوبون من كافة الأقطار الإسلامية للنظر فيما يهدد فلسطين ويهدد بتحويلها إلى دولة يهودية، وكان هذا المؤتمر أول مؤتمر من نوعه يجمع عدداً كبيراً من رجالات العالم الإسلامي من مختلف الأقطار.

ولما نشبت ثورة فلسطين عام **١٩٢٩** أثبت سماحته أمام لجنة التحقيق البريطانية برئاسة السير ((لترشو)) أن اليهود حاولوا رشوته بنصف مليون جنيه ليفرط لهم في حقوق ليست لهم في مكان البراق، وكان اليهود حينئذٍ قد طالبوا بمحاكمته واعتبروه مسؤولاً عن الثورات المتعاقبة في فلسطين ضدهم.

وفد الصلح بين السعودية واليمن

في عام **١٩٣٤** نشبت حرب بين السعودية واليمن فبادر سماحته بصفته رئيس مؤتمر العالم الإسلامي بتأليف وفد من السادة هاشم الأتاسي رئيس جمهورية سوريا الأسبق، والأمير شكيب أرسلان ومحمد علي علوبة باشا الوزير المصري والأمين العام السابق لحزب الأحرار الدستوريين، واشترك سماحته بنفسه في الوفد المذكور لوقف الحرب

وإصلاح ذات البين بين الدولتين الشقيقتين، وتوجه الوفد إلى السعودية ثم اليمن، وقد نجح في مسعاه وتم الصلح بين الطرفين وحقنت الدماء.

وعندما قامت ثورة ١٩٣٦ في فلسطين انتخب سماحته بإجماع أحزاب فلسطين لرئاسة اللجنة العربية العليا، التي أدارت دفة الثورة في البلاد في أكثر الأوقات خطورة واستمرت الثورة ستة أشهر كاملة وانتهت بتدخل ملوك العرب وأمرائهم كما هو معروف بنداء وجهوه إلى سماحته واعدين فيه بأن تعمل بريطانيا على إنصاف العرب.

قرار تقسيم فلسطين ونجاة المفتي من قبضة الإنجليز

بعد ثورة ١٩٣٦ قدمت إلى فلسطين اللجنة البريطانية المعروفة بلجنة (بيل) ووضعت هذه اللجنة تقريراً بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود، فتجددت الثورة عام ١٩٣٧، وحاولت السلطات البريطانية القبض على سماحته بقوة كبيرة من رجال الجيش والبوليس البريطاني ولكنها فشلت في ذلك وألقت القبض على بعض رجال اللجنة العربية العليا ونفتهم إلى جزر سيشل، أما المفتي فقد خرج خفية من فلسطين في زورق بحري صغير والتجأ إلى لبنان.

في الحرب العالمية الثانية

عندما نشبت الحرب الثانية عام ١٩٣٩ طلبت بريطانيا من فرنسا تسليمها المفتي، وشعر سماحته بذلك فغادر لبنان سراً إلى بغداد وأقام بها نحو عام ونصف (على رأس عدد كبير من المجاهدين الفلسطينيين الذين التجأوا إلى العراق) وفي أثناء إقامته وقعت حركة رشيد عالي الكيلاني، وكان الضباط الذين قاموا بها من أصدقائه حيث كانوا جميعاً يخدمون في الجيش العثماني في تركيا. وعندما فشلت الحركة اضطر للخروج إلى إيران مع القادة العراقيين وعدد من مجاهدي فلسطين وسوريا والعراق. ولكن عندما احتلت القوات البريطانية والروسية إيران تمكن سماحته من السفر متخفياً إلى أوروبا بعد أن رفضت تركيا قبوله لاجئاً سياسياً ممالاة منها للإنجليز في ذلك الحين.

وأقام سماحته في أوروبا طيلة أيام الحرب، وتمكن على الحصول من دول المحور على اعتراف باستقلال فلسطين والأقطار العربية الأخرى. إلى أن اعتقلته السلطات الفرنسية إثر خروجه من ألمانيا بعد هزيمتها.

وبعد الحرب طالب الصهاينة بمحاكمته في (محكمة نورمبرغ) التي حاكمت زعماء النازية واتهمته بأنه حرض السلطات النازية في ألمانيا خلال الحرب على إبادة اليهود. وكذلك حاولت الحكومة اليوغسلافية توجيه مثل هذه التهمة إلى سماحته، بحجة عمله على تأليف فرق عسكرية مسلحة من مسلمي البوسنة.

أما تشكيل الفرق البوسنية فقد ساعد المفتي بتأسيسها لتقف في وجه الهجمات الصربية التي كانت تفتك بمسلمي البوسنة دون مبرر وقتلت عشرات الألوف من رجالهم ونسائهم وأطفالهم قتلاً ذريعاً دون تمييز بسبب التعصب الديني وطمعاً في الاستيلاء على ممتلكاتهم وتأكيداً لضم البوسنة إلى بلاد الصرب نهائياً.

ومثل هذا الحدث البشع حدث أواخر القرن الماضي والكل سمع بمدى الفظائع التي ارتكبها الصرب ضد مسلمي البوسنة، حيث ما زالت تُنظر القضية أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي.

ولكن مساعي الصهاينة والصرب فشلت ضد المفتي بسبب استنكار زعماء المسلمين والرأي العام العربي والإسلامي لهذه المساعي الأثيمة.

العودة إلى فلسطين ورئاسة الهيئة العربية العليا

أخيراً تمكن سماحته من مغادرة فرنسا سراً إلى مصر صيف ١٩٤٦ وكان ذلك مفاجئاً عقب الحرب الثانية. وكانت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية قد اجتمعت في بلودان صيف ١٩٤٦ وتم الاتفاق مع المنظمات الفلسطينية على تأليف (الهيئة العربية العليا) لقيادة الحركة الوطنية، وقد احتفظت اللجنة السياسية للمفتي برئاسة الهيئة وهو كان ما يزال معتقلاً في فرنسا في ذلك الوقت. وفي مصر تم إطلاق يد المفتي ليقوم بالأنشطة التي يراها مناسبة وتخدم قضية بلاده، رغم ما قيل عن احتجاج بريطانيا على ذلك.

استئناف الجهاد

في العام ١٩٤٧ اشتد النزاع بين عرب فلسطين واليهود، وإثر ذلك صدر قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ورفض العرب بمن فيهم قـادة الشـعب الفلسطيني هذا القرار، وقام المفتي بتأليف (جيش الجهاد المقدس) بقيادة القائد الشهيد عبد القادر الحسيني، واتصل بعدد من الدول العربية لإمداد حركة الجهاد الفلسطيني بـبعض الضباط والفنيين.

ثم كان دخول الجيوش العربية أرض فلسطين يوم ١٥ أيـار (مـايو) ١٩٤٨م ومـا أسفرت عنه هذه الحرب قيام دولة (إسرائيل) واحتفاظ العرب بالضفة الغربية التي اتحدت مع الأردن، وقطاع غزة الذي وضع تحت الإدارة المصرية.

وبعد نتائج الحرب أخذ المفتي ينشط في المحافل الدولية لاسيما ضمن نطـاق العـالم الإسلامي، فقد حضر مؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقد في كراتشي ١٩٥١، ثم مـؤتمر كراتشي الإسلامي الثاني ١٩٥٢. وحضر مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ علـى رأس وفـد فلسطيني. ثم عاد إلى لبنان مرة أخرى على رأس الهيئة العربية العليا لفلسطين ومؤتمر العالم الإسلامي، عاملاً على إثارة قضية فلسطين في المحافل الدولية والأوساط الشعبية، وأرسل عدة وفود إلى الأمم المتحدة وإلى الأقطار الآسيوية والإفريقية ومختلف دول أوربا وأمريكا لخدمة قضية فلسطين، وزار الهند عام ١٩٦١ تلبية لدعوة سلطان البهرة طـاهر سـيف الدين لافتتاح الجامعة الإسلامية في سورات.

كذلك زار سماحته المغرب عام ١٩٦١، ورأس مؤتمر العـالم الإسـلامي في بغـداد ١٩٦٢، وفي نفس العام حضر في مكة المكرمة مؤتمر رابطة العالم الإسلامي، كـذلك زار الجزائر في نفس العام ١٩٦٢، ١٩٦٣ زار السعودية وسوريا، وفي فبراير ١٩٦٤ قـام بزيارة ماليزيا. في عام ١٩٦٤ – ١٩٦٥ رأس مؤتمر العالم الإسلامي الـذي انعقـد في (موقاديشو) عاصمة الصومال. وفي نيسان ١٩٦٥ رأس اجتماع المجلس التنفيذي لمؤتمر العالم الإسلامي في مكة المكرمة. وفي مستهل شـهر آذار (مـارس) ١٩٦٨ زار المفـتي

فلسطين بعد هجرة دامت ثلاثين عاماً. ثم استأنف نشاطه في حضور المؤتمرات الإسـلامية والشعبية العربية إلى أن توفاه الله بعد ظهر الخميس ٤/٧/١٩٧٤.

حول موقف هتلر والحركة النازية من اليهود

أورد الحاج أمين في مذكراته أن هتلر كان يقول بأنه لا فرق بين مسـيحي ويهـودي ألماني أو نمساوي، ولكن تبدل موقف اليهود بعد وعد بلفور، واندفعوا يعيشـون فسـاداً وتخريباً بألمانيا والجيش الألماني بشكل خاص. وفي البلدان الحليفة لألمانيا عامة، فقد أخذوا بنشر دعايات توهن من قوى الشعب والجيش، كما قاموا بأعمال تخريبية واسعة لقطـع المؤن وتدمير خطوط المواصلات، ونشروا الإشاعات بأن لا فائدة من الحـرب بسـبب مبادئ ولسون الرئيس الأمريكي والتي تساوي بين الغالب والمغلوب، وعملوا علـى زج الولايات المتحدة بالحرب (هذا الكلام كله عن الحرب الأولى).

بعد الحرب زاد اليهود من جهودهم لتخريب ألمانيا وجلب الشيوعية إليها، مثل ما فعل كارل ليبكشث زعيم الثورة الشيوعية في برلين ١٩١٨ – ١٩١٩، ويوجين ليفني الذي نصب نفسه دكتاتوراً شيوعياً على بافاريا ١٩١٩، وكيرت إيزنر وكان من كبار دعـاة الشيوعية وغير هؤلاء من اليهود. كانوا يعملون لإيقاع ألمانيا بشلل اقتصادي عام وانحلال سياسي واجتماعي، ساعدهم في ذلك هزيمة ألمانيا بالحرب الأولى وما لحق بها من خـراب ودمار وخسائر هائلة في المدن والأنفس والمصانع والثمرات، وقد لمس هتلر كـل هـذا عندما كان مقاتلاً في جيش بلاده أثناء الحرب الأولى. وعندما استولى على الحكـم عـام ١٩٣٣ بادر بإنشاء معهد دراسة القضية اليهودية في فرانكفورت.

يقول المفتي: إن روزنبرغ الذي يوصف بفيلسوف الحزب النازي وجه إليـه وبعـض العرب دعوة لزيارة المعهد عام ١٩٤٣، وتمت الزيارة في ١٢ نيسان مكثوا ثلاثـة أيـام تفقدوا أقسامه ومكاتبه واطلعوا على أعماله. كان يضم سبعين أسـتاذاً متخصصـين في

مختلف العلوم الإنسانية واختيروا من بلاد اوروبية مختلفة، وكان يضـــم ٦٠٠ موظـــف مديرين وكتاب وتراجمة وأخصائيين ونحوهم كلفوا بأن يقدموا لهتلر دراسات حول:

١- ماهو سبب ان اليهود ليس لهم ولاء لأية أمة أو أي أحـــد ولمـــاذا يثـــيرون الأزمات السياسية والاقتصادية ويثيرون الحروب والفتن ويفسدون الأخلاق في المجتمعات العالمية.

٢- كيف يمكن معالجة اليهود من هذه الأمراض وكف شرهم عن الناس، وهـــل يمكن أن يعالجوا بالتربية والثقافة أو بعلـــم الـــنفس وحســـن المعاملـــة أو الارتباطات الاجتماعية من زواج وتعاون ومعاشرة وما إلى ذلك من طـــرق إدماجهم في المجتمعات التي يعيشون بها والتخلص مـــن عـــزلتهم ونظريـــة (الجيتو) التي يتمسكون بها.

٣- وإذا لم تنجح كل الطرق السابقة فما هو السبيل لإصلاحهم؟

كان المعهد بإدارة الدكتور ((ريشتهوفر) الذي استقبل الحاج أمين ورفاقـــه بحفـــاوة، وأدخلهم إلى المكتبة أولاً والتي كانت تضم كل ما كُتب عن اليهود من كتب وصـــحف ومجلات لا بل حتى التي تحدثت عن اليهود أو ذكرت شيئاً عنهم.

كذلك أطلعوا الوفد العربي على خارطة عثروا عليها في خزانة روتشيلد الحديدية تحدد مملكة إسرائيل من الفرات إلى النيل. هذا وقد استمر هذا المعهد بالعمل من سنة ١٩٣٣ – ١٩٤٥.

ومن أجوبة المعهد على أسئلة هتلر:

- اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار وأن الدنيا خُلقت لأجلهم ويحتقرون غيرهم من الأمم. وهذا ما ولد عندهم روح التفوق والاستعلاء.
- التجارب الإنسانية معهم من تزاوج واختلاط وغيره لم تؤدّ ِ إلى نتائج معهم حتى الآن.

- الألمان ساعدوا اليهود وعاملوهم أحسن معاملة ولكنهم لم يقابلوا الحسنى بمثلها وغدروا بهم وانحازوا لأعدائهم.

أما أسباب ميل الكثير من العرب لألمانيا في ذلك الوقت فيرجع إلى أن ألمانيا لم تكن مستعمرة لأي قطر عربي وكانت تبدي تعاطفها مع القضايا العربية كما يقول المفتي.

أسباب كره اليهود في ألمانيا:

- احتكر اليهود جميع المعاملات المصرفية والمالية مما أدى لتحكمهم بالشؤون الاقتصادية بشكل عام.
- أثرت بعض العائلات اليهودية في ألمانيا كعائلات روتشيلد وواربورغ، واوبنهايمر وراتيثو وغيرها مما اضطر الحكومات الألمانية للاقتراض من المصارف والعائلات اليهودية والعجز عن السداد يمكن اليهود من احتكار الرسوم الجمركية أو جباية الضرائب كما يمكن أن يُستولى على أملاك المزارعين والتجار.
- في فترة الثورة الصناعية تدفق يهود من روسيا وبولونيا إلى ألمانيا وأصبح لهم نفوذ ملموس، وكانوا يحملون معهم فكرة الثورة الصهيونية – مردخاي (كارل ماركس) أعلن البيان الشيوعي عام ١٨٤٨.
- ١٨٦١ قام اليهودي (كوهي بليند) بمحاولة اغتيال بسمارك أحد أبطال وحدة ألمانيا، وازداد نفوذ اليهود في ألمانيا بانضمام يهود روسيا وبولونيا إليهم.
- إقناع أمريكا بدخول الحرب ضد ألمانيا.
- ومن المهازل الطريفة التي وقعت أثناء مفاوضات التعويضات بعد الحرب الأولى أن الوفد الأمريكي كان برئاسة اليهودي (فليكس واربرغ) والوفد الألماني برئاسة شقيقه (أوتو واربرغ).
- وقام اليهود بعد الحرب بإشعال الثورة في ألمانيا تحت ستار الاشتراكية ولما فشلوا قام أصحاب المال بنفس الدور التخريبي فأسقطوا قيمة العملة نهائياً.

- لم يكن أمام شعب ألمانيا إزاء هذا الوضع سوى مساندة الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) وإنشاء دولة وطنية قوية تعيد بناء الاقتصاد الألماني وتمنح ألمانيا القوة الكافية للخلاص من التعويضات المرهقة واستعادة حقوق ألمانيا وكرامة الشعب الألماني المهانة.

وأخيراً نقول رحم الله الحاج أمين الحسيني والذي استمر الخلاف حول شخصيته وأعماله سنوات طويلة بين أبناء شعب فلسطين والعرب عامة. إنه رجل ناضل طويلاً ورحل كثيراً لخدمة قضية بلاده، ولكنه كان محكوماً بثقافته الدينية ومركزه الديني والذي لم يمكنه من المناورة والانخراط بألاعيب السياسة والسياسيين، فالسياسة الحديثة فن الخداع والمراوغة بعيدة كل البعد عن القيم والأخلاق الفاضلة، وهي بالتالي بعيدة عن الدين وتعاليمه الصارمة. وربما كان هذا سبب إخفاقات الحاج أمين المتواصلة رغم جهوده المستمرة. إضافة لواقع أمة العرب المعروف في ذلك الوقت وسيطرة الاستعمار والجهل والتخلف على المقدرات.

أما التشكيك بالرجل ونواياه فإنه أمر غير جائز وغير مقبول، فلم يُعرف من سيرة الرجل رغم مرور السنوات الطويلة ما يلوثها أو يعرضها للشبهة والمساءلة. ولكنها ظروف الأمة التي كانت تمر بها من ضعف وتخلف وجهل وسيطرة قوى الاستعمار والصهيونية، كل هذا هو الذي خلق الواقع العربي الذي نعيشه وربما لسنوات طويلة قادمة.

نوبار باشا الأرمني
أول من سمي رئيس وزراء في مصر والوطن العربي
أضواء على أحداث عاشها

هذا الرجل (نوبار باشا) يتردد اسمه كثيراً في كتب التاريخ المصري والعربي فيما بعد، ويدرس عنه الطلاب في مصر منذ سنوات مبكرة من خلال الأحداث السياسية الكبرى، ولكن كتب التاريخ لا تلقي أي ضوء على شخصيته، من أين جاء؟ وكيف دخل المعترك السياسي المصري، كيف كان يفكر أو ماذا حقق ولم يحقق؟ وما هو مكانه بالدقة في ساحة السياسة المصرية وهو الذي عمل مع سبقه من حكام مصر ابتداء من محمد علي حتى الخديوي عباس الثاني.

كان نوبار باشا هو الشخصية الأكثر ظهوراً في تاريخ مصر خلال سنوات القرن التاسع عشر، ولكنه شخصية غامضة لمعظم المصريين يرتبط ذكرها بالحكام والولاة الذين توالوا على عرش مصر، لم يتوقف عنده المؤرخون كثيراً، رغم أنه من وجهة نظر اوربية (رجل الدولة الأوحد الذي جاء به الشرق، رغم انه رجل أرمني تركي مسيحي تلقى تعليمه في مدرسة بروتستانتية في سويسرا، ولم يكن يعرف اللغة العربية معرفة جيدة).

لعب نوبار باشا سلسلة من أهم الأدوار السياسية الدبلوماسية طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان الذراع اليمنى للخديوي إسماعيل ومشروعه لتحديث مصر، وبعد فترتين من رئاسة الوزارة في ظل الاحتلال البريطاني اصطدم مع المعتمد البريطاني اللورد كرومر وبعض المستشارين البريطانيين، وخرج من التاريخ ومن مصر، ومات منسياً في باريس.

وأهم المعلومات التي وردت عنه جاءت بقلمه بعدما فرغ من كتابة مذكراته عام ١٨٩٤ أي قبل وفاته بخمس سنوات. وظلت هذه المذكرات بين يدي أسرته حتى عام ١٩٨٣،

ونشرت في ذلك العام نفسه ١٩٨٣ في لبنان باللغة الفرنسية وهي اللغة التي كتبت بها، أي بعد حوالي قرن من كتابتها. لأن صاحب المذكرات لم يكن قرر نشرها، وكان يقول لزوجته إنه يود نشر ما جاء في المذكرات عن محمد علي الكبير وعباس الأول وسعيد، ولكن نشر الجزء الخاص بالخديوي إسماعيل (صعب) وهو لم يشأ أن يفصل جزء من المذكرات عن الجزء الذي يليه. وترك أمر النشر للأبناء والأحفاد.

وعندما تولى الملك فؤاد العرش ثم ابنه فاروق، الأول ابن الخديوي إسماعيل والثاني حفيده، قرر كل منهما أنه لم يحن الوقت لنشر مذكرات نوبار. فالمذكرات تتناول بالنقد الشديد تصرفات الخديوي إسماعيل. أما الأحفاد فقد رأوا أن نشر المذكرات سيكون محرجاً إلى حد ما، لأن الإسراع بنشرها سيعطي انطباعاً بأنهم انضموا إلى الحملة المناهضة للأسرة الملكية المخلوعة.

مذكرات نوبار باشا عبارة عن عرض نزيه لتاريخ مصر في القرن التاسع عشر، وتكشف الكثير من أسرار حكام أسرة محمد علي وما كان يجري في دهاليز القصور والاجتماعات السرية للولاة مع ممثلي الدول الأجنبية. إنها فترة تشكل الملامح الحديثة للدولة العصرية، ودخول البلاد في صراع مرير مع الطامعين الأجانب. إنها مرحلة نهب مصر وطغيان المصالح الأجنبية، والتي انتهت باحتلال الإنجليز لمصر.

من هو نوبار باشا؟

إنه – نوبار نوباريان – ولد في قرية بإحدى الولايات الأرمينية التابعة لجمهورية أرمينيا في ٤ يناير ١٨٢٥، وكانت الولاية تابعة للفرس حتى ١٧٢٥، ولكنها ثارت لمدة إثني عشر عاماً للمطالبة بالاستقلال، وبعد الثورة قرر جد نوبار الهجرة وقصد إلى أزمير التركية. ومنذ ذلك الوقت انصرفت أسرة نوبار إلى العمل في خدمة مصر، وتم تعيين والده معتمداً سياسياً لمحمد علي باشا في الأناضول، وكان ذلك في أيام حملته الاولى على سوريا، ثم عين في فترة الحملة الثانية ١٨٣٩ معتمداً مصرياً في باريس، وتم تعيين (كرابد بك) شقيق نوبار سكرتيراً ومترجماً لمحمد علي منذ ١٩٣١ حتى ١٨٣٥ وكان لنوبار

شقيق أكبر سناً يعمل سكرتيراً ومترجماً لمحمد علي باشا أيضاً ولكنه توفي وهو في سن الشباب ١٨٣٩.

والده توفي في ميناء مرسيليا الفرنسي بينما كان قاصــداً مصـــر وذلــك عنــدما تم استدعاؤه أثناء الحرب التي نشبت بين الجنود المصريين والعثمانيين في سوريا.

التحق نوبار بمدرسة ابتدائية بمدينة جنيف السويسرية حيث كان يدرس الأمير نابليون (الذي أصبح الإمبراطور نابليون الثالث فيما بعد) ثم دخل مع شقيقه (أركيل) معهد سوريز على مقربة من مدينة تولوز الفرنسية، حيث درس هناك لمدة أربع سنوات ١٨٣٦ – ١٨٤٠.

أتقن نوبار اللغة الفرنسية، واهتم بأن يتعلم ما لم يتعلمه في المدرسة، ولما ترك المدرســة أبدى رغبته في الذهاب إلى الجزائر لكي يلتحق بالجيش الفرنسي المختلط هناك. ولكـــن جاءته الدعوة للحضور إلى وادي النيل والالتحاق بالعمل في خدمة مصر. أما صـــاحب تلك الدعوة فكان خاله ((بوغوس بك يوسفيان)) وكان هذا الرجل من أخلص رجـــال محمد علي منذ تولي قيادة فرقة من الأرناؤوط. بعد ذلك أبقاه الباشا الكبير موضع ثقتــه وكاتم أسراره، وكان يتولى أعمال التجارة والعلاقات الخارجية لوالي مصر.

وصل نوبار إلى مصر عام ١٨٤٢ وهو يفيض بالنشاط والحيوية وكـــان في الســـابعة عشر من عمره حينئذٍ، وأوصاه خاله قائلاً: ستلتحق بقلم المترجمين، ولكن يجب عليك أن تتقن التركية لأن معرفة هذه اللغة هي أهم شروط نجاحك في المستقبل. والغريب أن هذا الرجل الذي كان يتقن الإنجليزية والفرنسية واليونانية ثم التركية لم يكن يجيد العربية، وإذا تكلم بها فبِلُغة عامية ركيكة. ولم ينصحه احد بتعلم العربية، فاللغة العربية لم تكـــن ذات شأن في ذلك الوقت، ولم تصبح اللغة الرسمية في الدواوين إلا في عهد الوالي سعيد.

ومن خلال متابعة نوبار باشا نعرف كيف تدرج في العمل كسكرتير لخاله ثم موظـــف في قلم المترجمين في ديوان الوالي، إلى السكرتير الخاص لولي العهد إبراهيم باشا إلى مدير للسكك الحديدية والجمارك، ثم وزيراً للأشغال والخارجية، ثم إلى منصب رئيس وزراء مصر.

وقيمة مذكرات هذا الرجل هو أنها الوحيدة من نوعها، لأن عموم الرجال الذين لعبوا دوراً في أحداث القرن ١٩ من أمراء مصر ووزرائها لم يحملوا أنفسهم عناء الكتابة ولم يتركوا وراءهم أية صفحات أو مذكرات تلقي الضوء على تاريخ أيامهم. وهذه المذكرات تحتوي على ثروة من الوقائع والمعلومات حول الأمراء والولاة والسلاطين الذين عمل معهم وعرفهم عن قرب. وقد ذاع صيت هذا الرجل في العالم الغربي وقيل إنه عُرض عليه أن يكون أميراً لإمارة أرمينيا وطنه الأصلي ولكنه رفض مغادرة مصر. رغم أنه ظل غريباً عن شعب مصر ولم يمتزج بروح هذا الشعب، وإن قيل بأنه أحسن من عملوا في خدمته.

ملامح شخصيته

يبدو أن نوبار هذا كان شخصية مؤثرة وتثير الاهتمام. إنه يجيد التحدث والكتابة بإحدى عشرة لغة مختلفة، مولع بالمطالعة وخاصة كتب التاريخ (العربية ليست منها بالتأكيد) يقول المؤرخ (الياس الأيوبي) إلى ملامحه وسماته فيقول: إن نوبار كان ربع القامة يميل إلى الطول، قوي البنية، أسمر اللون، أسود العينين، شعر رأسه حالك السواد قبل أن يشتعل شيباً، تقاطيع وجهه منتظمة متناسبة متناسقة. وكان ساحراً في حديثه طلق اللسان، يعبر عن رأيه بمهارة وطريقة منطقية. مُقنع في حديثه وفقاً لمقتضيات الموقف، وثمة براعة في التحول من الشدة إلى اللين وبالعكس. يقول عن الأحوال في مصر في زمنه: ((مصر مثل عظمة كبيرة ثمينة يرغب بها كلبان – فرنسا وإنجلترا – فيتنازعان عليها، ولا يتجاسر أحدهما على اختطافها لخوفه من الآخر، ولكن بينما هما يحملقان الواحد تجاه الآخر ويزمجران يتسرب سرب من النمل – اليونانيون واليهود الشرقيون بوجه عام – ويصل إلى العظمة وينهشها ويسمن منها)).

حيوية هذا الرجل وطموحه ورغبته في التعلم جعلته يتوغل في وقت مبكر جداً في شؤون الدولة، وكان يوجه الأسئلة إلى زائريه في حيز ما يعرفونه ويحملهم على التوسع في الكلام والإيضاح والشرح حتى تتجمع لديه دائرة معارف لا بأس بها تجعله على اطلاع عام لا يشعر معه أنه غريب عن المحادثة مهما تنوعت موضوعاتها. كان نوبار يناقش المشكلات المصرية مع ستراتفورد كيننج السفير البريطاني في الأستانة. وفي السادسة

والعشرين من عمره أرسل إلى لندن لكي يبحث قضايا مصر مع لورد بالمرستون الـــذي كان وزيراً للدولة بوزارة الخارجية البريطانية في ذلك الوقت. وعندما يكون خارج مصر كان يبحث عبر الرسائل الأمور مع بطرس غالي وكيل وزارة المعارف في ذلك الوقت.

كان نوبار مهتماً بثلاثة أنواع من الظلم الذي كان واقعاً على سواد أبناء شعب مصر. الأول كان التعسف في جمع الضرائب التي كانت تثقل كاهل المصريين وتقصم ظهورهم، وكانت تُعَد وتقرر مسبقاً ودون مراعاة لظروف المصريين. أما الظلـــم الآخـــر فكـــان الامتيازات الأجنبية والتي تحولت إلى كارثة نتيجة ضعف خلفاء محمد علي. والتي قـــادت لتدخل الدول الأوربية في شؤون البلاد المصرية. والمأساة الثالثة: هي السخرة والتي كـــان يجري تطبيقها وممارستها منذ أزمان سحيقة في الأشغال العمومية العاجلة لاسيما التي تتصل بالري وفيضان النيل. وكذلك في ممتلكات الوالي والمؤسسات الأجنبية وخاصة شركة قناة السويس.

مثل هذه القواعد في العمل والسلوك كان يحاربها الأوربيـــون في بلادهـــم ولكـــنهم يحاربون من أجل تطبيقها في مستعمراتهم ومناطق نفوذهم. ومن أجل أن يكسب نوبار ثقة المصريين كان يلعب ألعاباً سياسية معقدة فقد كان أحياناً يستند إلى تأييد الوالي ودعمه له، وأحياناً أخرى يستند إلى تأييد السلطان العثماني، وفي ظروف مختلفة يستند إلى تأييد هذه الحكومة الأجنبية أو تلك، فتارة هو مع روسيا وأخرى مع فرنسا وثالثة مع بريطانيا. غير أنه بشكل عام كان يتصور أنه يستطيع الاعتماد على المساعدة الأجنبية للحد من التعسف الإداري الذي يسبب مظالم عديدة للمصريين، رغم أن محاولة الحد من هـــذه المظـــالم أو تخفيضها كانت تلحق الضرر حتماً بمصالح طبقة كاملة من الأجانب يجنون أرباحهم مـــن التعسف والاستبداد والإبقاء على الظلم الاجتماعي. (هكذا يقول مريت بطرس غالي).

هذا وقد كتب نوبار مذكراته في أماكن متعددة، في القاهرة وباريس و (كان) وفقـــاً لرحلاته أو تبعاً لظروفه والوقت الذي كان يتوافر له لكي يكتب. وتغطي المذكرات فترة (٣٧) سنة هي التي انقضت بين وصوله إلى مصر عام ١٨٤٢ وخلع الخديوي إسماعيـــل

١٨٧٩ والتي توقف عندها عن الكتابة رغم أنه عاش حتى ١٨٩٩ وتولى رئاسة الوزراء مرتين بعد ١٨٧٩، إلا أنه لزم الصمت ولأسباب مجهولة.

مصاهرة موفقة

في عام ١٨٥٠ تعرف نوبار بأسرة أراميان في مدينة الأستانة وتزوج وهو في الرابعة والعشرين من عمره بابنة عميدها (كيفورل بك أرمانيان كاراكيشا) أحد وجوه الأستانة وكبار الأرمن هناك. فأصبح صهراً لابرام أراميان الذي كان قد تم إعداد رتبة الباشوية له لأنه من المقربين إلى قلب السلطان العثماني عبد العزيز وموضع ثقته التامة، وساعدت هذه المصاهرة نوبار فيما بعد على تسهيل أداء مهماته في مساعيه المصرية لدى الحكومة العثمانية، كذلك فإن محمد علي كان يثق طوال حياته في كيفورل. وكانت الزوجة متعلمة وتتقن عدة لغات.

من الأمور التي أشار إليها نوبار في مذكراته ذلك الفرمان العثماني الذي عين محمد علي باشا والياً على مصر على أن يكون تابعاً للامبراطورية العثمانية ويرثه في الحكم اكبر أفراد أسرته. كذلك يحدد هذا الفرمان عدد أفراد الجيش المصري ويلزم الوالي بأن يستأذن الباب العالي في أي مشروع يقوم به. وأن على مصر أن تدفع مبلغ ثلاثمائة ألف جنيه استرليني سنوياً للسلطان العثماني. يقول نوبار: ((هذا الفرمان أعطى كل الامتيازات لأسرة واحدة في مصر ولكنه لم يعترف بأية ميزة أو امتيازات للبلد ذاته)). كذلك يروي قصة أول لقاء له مع محمد علي باشا في قصر رأس التين. ويقول بأن العلاقة بين محمد علي وابنه إبراهيم كان يسودها التوتر وعدم الثقة، محمد علي كان يعتقد بأن إبراهيم يتآمر لعزله، وإبراهيم كان يخشى أن ينقلب والده عليه ويقتله (وهذا الأمر كان طبيعياً في العلاقة بين الأب وابنه أو بين الإخوة فيما بينهم، فقد شهد التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي نماذج من مثل هذه العلاقات).

كانت فكرة القتل هي المسيطرة في ذلك الوقت والتي تثير الرعب في دهاليز القصور. هنالك مثلاً حكاية قتل الأميرالاي أحمد باشا قائد الأسطول العثماني التي تعبر عن أجـــواء ذلك العصر الذي يشبه أجواء العصور الوسطى. فأمير البحر هذا قام عام ١٨٣٩ بتسليم أسطول السلطان العثماني إلى محمد علي وبعدها ظل البـــاب العـــالي يطالـــب بتســـليم الأميرالاي إلى الأستانة وبطريقة ملحة طوال أربع سنوات وكان محمد علي يصـــر علـــى الرفض. ولكنه عندما اتجه إلى تحسين علاقته بالسلطان أصدر أوامره إلى (زكي أفنـــدي) محافظ الإسكندرية لكي يضطلع بمهمة التخلص من الأميرالاي.

أما زكي أفندي فإنه قام بتنفيذ أمر الوالي على أكمل وجه، فقد استقبل الأمـــيرالاي أحمد باشا أحسن استقبال وتبادل معه الحديث بكل أدب، وأخبره عن هذه الحياة الغالية، ويبدو أن الأميرالاي فهم المقصود فطلب سجادة صلاة وقام للصلاة بهدوء. ثم طلب زكي أفندي القهوة فشربها الأميرالاي وذهب ليوجد ميتاً في صباح اليوم التالي، وقيل إنه توفي بسكتة دماغية.

السحب من القدمين

ها هو بوغوص بك يوسفيان أو الخواجة بوغوص كما كان يسمى وهو خال نوبـــار باشا والذي استدعاه للقدوم إلى مصر. كان شديد الإخلاص لمحمد علي ولكنه اختلـــف معه يوماً حول الحسابات المالية فثار الباشا وصاح قائلاً لحاجبه: ((اسحبوه من قدميـــه)). وكانت هذه العبارة تعني صدور حكم الموت على من يغضب عليـــه الباشـــا. وســـارع الحاجب أو (القواس) لتنفيذ الأمر، وتم سحب بوغوص إلى خارج الغرفة، ولكن لحســـن حظ بوغوص أن الحاجب كان رجلاً تركياً ممن أحسن إليهم بوغوص في السابق، فحفظ له الجميل وراعى العهد، وأضمر له الإخلاص، وتظاهر بأنه يقود ضحيته إلى ضفاف النيـــل حيث يجب قتله وإلقاء جثته بعد إعدامه في قاع النهر، ولكنه بدلاً من ذلك توجه بـــه إلى منزله وسلمه لزوجته سراً وأبلغه أن يختفي عن الأنظار، وعاد الحاجب ليخبر سيده بأنـــه فعل ما طُلب منه.

ولكن ظل اسم بوغوص يتردد في مجالس محمد علي كلما عُرضت مشكلة مالية فيفصح محمد علي عن أسفه على المرحوم لاسيما عندما تعترضه مشكلة مالية صعبة كما حدث في يوم صاح فيه محمد علي ((أه لو كان بوغوص حياً)) وعندما سمع الحاجب الكلام اعترف لمحمد علي بحقيقة الأمر، فسُر محمد علي واستدعى بوغوص الذي رجع إلى سابق عهده في المشورة المالية للوالي الكبير.

إبراهيم باشا دائم الغضب

كان نوبار يرافق إبراهيم باشا في حله وترحاله، وخلال رحلة بحرية من الأستانة إلى مصر ١٨٤٨، كانت السفينة تتحرك ببطء وسط الأمواج مما أثار ضيق الباشا، وصور له المرض أن الضباط هم السبب في تثاقل حركة السفينة. وفي تلك اللحظة قرر ولي العهد إغراق جميع ضباط السفينة عقاباً لهم على بطء سيرها (ولكن لو أراد إبراهيم ان يفعل ذلك فمن سيقود السفينة وسط هذه الأجواء السيئة من العواصف والأنواء)) هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن كاتب المذكرات الأرمني يخونه ذكاؤه أحياناً او يفترض بقرائه الجهل والغباء. وقد ورد أكثر من تناقض في رواياته، فهو عندما يقول إن محمد علي باشا أمر أحد حجابه بقتل بوغوص وإلقائه في قاع النيل فهل مثل هذه المهمة يوكل بها رجل واحد فقط، حيث يمكنه أن يتصرف كما يشاء وهو ما حدث فعلاً مع بوغوص كما يقول صاحب المذكرات. ثم إن رجلاً واحداً لا يستطيع القيام بمثل هذه المهمة.

لم يكن إبراهيم ينام الليل كما يروي لنا نوبار وإذا نام فإن نومه لا يدوم سوى لفترات متقطعة. كان خدمه يقولون إن ضحاياه من القتلى (يزورونه) أثناء نومه ليؤرقوا ضميره ولتعذيبه. أما نوبار فيقول إن إبراهيم كان يخاف المستقبل بسبب نبوءة قيلت له وهو صغير السن، وهي انه سوف يسبق والده إلى القبر. وظلت هذه النبوءة تسيطر عليه طيلة حياته.

ثم يصف نوبار مرافقته لإبراهيم في رحلته إلى فرنسا وإنجلترا وكانت أول رحلة لولي العهد (إبراهيم إلى أوربا) حيث زار المصانع الكبرى وكان يسأل عن كل صغيرة وكبيرة.

وجال الريف الفرنسي وأخذ يتساءل عن سبب ضعف الزراعة في مصر وازدهارها في فرنسا مع أن أرض مصر أكثر خصباً. كما زار المدرسة المصرية في باريس والتي أنشأها والده ليلتحق بها الطلبة المصريون المتفوقون في دراستهم، وكان عددهم أربعون التقى بهم إبراهيم وكان بينهم اثنان من أبناء محمد علي وكذلك بعض أخوة إبراهيم. ورأى إبراهيم أن يدرس هؤلاء في المدارس الفرنسية حتى لا يعزلوا أنفسهم فكراً ولغة. وكان دائم الحديث عن بؤس مصر التي ترزح تحت اليد الثقيلة لوالده. مع أن إبراهيم نفسه لم تكن يداه بأقل ثقلاً من يدي والده كما يقول نوبار.

وفي عام **١٨٤٧** قام إبراهيم صحبة نوبار بزيارته الثانية لأوربا زار خلالها إيطاليا وفرنسا وبريطانيا، ولكن صحة إبراهيم كانت تزداد سوءاً في الرحلة الثانية. وعند العودة إلى مصر طلب من نوبار أن لا يحدث والده عن تفاصيل رحلته إلى أوروبا وماذا فعل أثناءها.

الامبراطورية العربية

يقول نوبار باشا: ((تنسب إلى محمد علي فكرة تأسيس امبراطورية عربية، ومنذ كنت طفلاً وأنا أسمع عن هذه الفكرة حتى في المدرسة في فرنسا. والحقيقة أن هذه الفكرة لم تخطر على بال محمد علي إنه يحكم الجزيرة العربية وولايات الشام. نعم ولكن إقامة امبراطورية عربية تلك مسألة أخرى، فقد كان محمد علي تركياً أكثر مما يجب، كما كان طموحاً ولكنه لا يتصور مشروعاً من هذا النوع وكان هو نفسه يقول إن زمن الأنبياء قد ولى، ومعنى ذلك بطريقة غير مباشرة أن إقامة امبراطورية عربية تحتاج إلى أحد الأنبياء.

رأي حول هذا الموضوع

إذا كان ما ورد صحيحاً في مذكرات نوبار باشا حول أنه تكلم عما قيل عن أطماع محمد علي باشا في تأسيس امبراطورية عربية فإنني أظنها فقرات مدسوسة على هذه المذكرات وكُتبت في وقت متأخر ممن أشرف على نشر هذه المذكرات، ففي الوقت الذي كتبت به المذكرات وحتى وفاة نوبار لم يكن أحد يتحدث عن امبراطورية عربية سعى

محمد علي لإقامتها، وهذا موضوع لا يهم نوبار باشا كثيراً ليتحدث حوله وهو الذي كان يتقن معظم لغات العالم الحية عدا اللغة العربية، تماماً مثل محمد علي باشا وأبناؤه وأحفاده جميعاً والذين لم يكلفوا أنفسهم تعلم اللغة العربية والتحدث بها، فهذه الفكـرة ألصـقت بمحمد علي باشا في فترات متأخرة من الزمن.

محمد علي باشا كان يحكم باسم الدولة العثمانية ومن الصعب الخروج عليهـا بعـد هزائمه المتلاحقة. ولو كان فعلاً يفكر بإنشاء دولة عربية لبدأ يستعين بالعرب ويقربهم منه ويسند لهم المناصب العليا والحساسة في الدولة، أما الذي كان يحدث فهو الاستعانة بالترك من مختلف الأصول وبعض أبناء الأقليات، فكيف يفكر بإنشاء مشروع دولة عربية وهـو وأعوانه جميعاً بعيدين كل البعد عن العرب وقضاياهم. وكيف سيتسرب إليه الإحسـاس العربي أو الاهتمام بقضايا العرب وهو لا يشعر بأي انتماء لأمة العرب أو قام بأي عمـل لخدمة قضاياهم، أما قضية غزوه لسوريا فكان من باب الأطماع التوسعية ليس أكثر.

وبالنسبة للجزيرة العربية فإنه كلف من السلطان العثماني بالقضـاء علـى الحركـة الوهابية كما هو معلوم. ومعظم الظن ان فكرة تأسيس امبراطورية عربية على يد محمـد علي جرى الترويج لها بعد ثورة يوليو لإقناع أمة العرب بأن مشروع الوحـدة العربيـة مترسخة في مصر منذ سنوات طويلة وهي الآن تريد تحقيق هذا المشروع القديم الجديد.

أما وحدة عربية دون عرب كما اتهم محمد علي بذلك فإنها فكرة غريبـة وغبيـة في الوقت ذاته وبعيدة كل البعد عن الواقع وكل ما يقتضيه مثل هـذا المشـروع الكبـير. والأقرب إلى الصحة أن محمد علي باشا وهو الشديد التمسك بسلالته وأصـله ولغتـه ويعرف بلاده جيداً ربما كان يطمع في مصب سلطان الدولة العثمانية أو الصدر الأعظـم بها. ومن المؤكد أن أفكاره لم تذهب مطلقاً لإقامة امبراطورية عربية.

الصراع بين الأب والابن

بعد أن اشتد المرض بمحمد علي قرر إبراهيم باشا ابنه الذهاب إلى الأستانة ليحصـل على فرمان بتوليه حكم مصر، وكان يبحث عن ذريعة حتى لا يثير شكوك والده، وقـد

وجد هذه الذريعة في المرض الذي ألم به فقد أصبح ينزف دماً من فمه وأشار الطبيب إلى أن حالته خطيرة. وفعلاً استقل إبراهيم السفينة الوحيدة الباقية من أسطول محمد علي إلى جزيرة رودس حيث ينتظره هناك يخت السلطان (المجيدية) كي يقله إلى الأستانة. وبعد الوصول إلى الأستانة شعر إبراهيم بأن السلطان يتردد في منحه الولاية إذ كان يخشى أن يثير إبراهيم متاعب جديدة. وكان الجميع في الأستانة يعتبرونه خائناً للامبراطورية وثائراً قديماً وخارجاً على القانون وطموحاً، ورجلاً خطراً يستطيع إثارة المتاعب أمام تركيا مرة أخرى.

ولم يكن إبراهيم يجهل هذه المشاعر. ولكن وأخيراً وافق السلطان العثماني على تنصيب إبراهيم والياً على مصر طبقاً لفرمان ١٨٤١. ولكن في رحلة العودة اشتد المرض على إبراهيم ولكنه وصل القاهرة حياً واستقر في القلعة عاجزاً عن الحركة. وتوفي بعد ذلك بثلاثة أيام. ولكن دون أن يندم على فراقه أحد، فقد اشتهر بكل المحيطين به بالقسوة وكان يرهبه الجميع. وكانت وفاته عام ١٨٤٨ وعندما علم والده بنبأ وفاته قال: ((كنت أعرف أن ذلك سيحدث لقد سجنني، كان قاسياً معي ومع الجميع، لقد عاقبه الله سلب منه روحه، ولكنني والده على كل حال، ويجب أن أطلب له الرحمة)).

بعد ذلك ذهب عباس حفيد محمد علي إلى الأستانة في نفس العام ١٨٤٨ ليطلب توليه ولاية مصر من السلطان العثماني. وفي الثاني من آب (أغسطس) عام ١٨٤٩ توفي محمد علي باشا وكان الحزن عميقاً وخرج أهالي القاهرة خلف نعشه.

وبموت محمد علي نشب الصراع بين أولاد وأحفاد محمد علي على تركته من أراض وقصور ومجوهرات والتي قال عنها الخديوي عباس بأنها ممتلكات الدولة. ومن نوادر حكم عباس أنه أصدر أوامره بحياكة شفتي إحدى نسائه لمخالفتها تعليماته بعدم التدخين في جناح الحريم. وكذلك إطلاق الرصاص على وزير المالية وقتله في اجتماع عام للأعيان بعد تحميله مسؤولية فرض ضريبة مكروهة. وقام بطرد العرافات والسحرة من القاهرة والإسكندرية ولكنه كان يستقبلهم سراً في قصره.

ولكن من ميزات هذا الرجل أنه فرض على زواره من الأوربيين التقيد بالملابس الرسمية عند مقابلته وهي الملابس التي يرتدونها في بلادهم عندما يقابلون الوزير المسؤول. كما أنه لا يحق لهم الحضور إلى القصر في الساعة التي يحددونها كما يشاؤون. وقد سدد ديون معاونيه والمحيطين به أكثر من مرة حتى لا يكون ولاؤهم للدائنين ويكون له وحده. كما عُرف عنه الاقتصاد وعدم التبذير. كان الناس في عهده يعيشون في ظل حكم إرهابي ولكنهم لم يخضعوا لعمليات ابتزاز واغتصاب ليست في الحسبان. ومن ميزات حكم عباس أنه ألغى ضريبة فرضها جده محمد علي كانت تسمى ضريبة (الفردة) إنها ضريبة على الأفراد من الرجال والنساء والأطفال، وكانت تجبى بطريقة مروعة أرهبت المصريين. ويتكلم نوبار في مذكراته عن نظام السخرة الذي ساد في مصر ذلك الوقت والذي استغله الأشرار والإقطاعيين أو كبار الموظفين لتحقيق مصالحهم الشخصية على حساب عامة الشعب المسكين. وكان محمد علي ثم حفيده عباس اعتبرا العمل المجاني القسري المفروض على السكان وكأنه شيء طبيعي بل واقتصادي، إنه نظام السخرة غير الشرعي وغير المبرر.

والأصل في هذا النظام في مصر هو أنه تم إيهام الناس بأن تشييد القصور وبيوت المسرات والحدائق والعمل لدى كبار الموظفين ومقابر الفراعنة يمثل مصلحة عامة، تماماً مثل تطهير القنوات التي تغذي المزارع بمياه النيل. وعن الإقطاع في مصر يقول نوبار إنه كان يمتلك هو وشقيقه (٤٥) ألف فدان منها (١٥) ألف فدان في المنيا وبني مزار يملكها شقيقه و(٣٠) ألف فدان يملكها هو في الفيوم.

أما عباس فقد اغتيل في قصره كما يقال ليلة ١٠ – ١١ يونيو ١٨٥٤ على يد أربعة مماليك قيل إن من بينهم اثنان استأجرهما عمته نازلي لقتله لأنها كانت ناقمة عليه. وجاء بعده الخديوي سعيد ودام حكمه تسع سنوات (١٨٥٤ – ١٨٦٣) وعندما توفي كانت ديون مصر تبلغ حوالي أربعة عشر مليون جنيه لم يستخدم في أي مشروعات تذكر. فقد كان سعيد مبذراً متلافاً كان يمتلك عدة يخوت صُممت في نيويورك وإيطاليا وفرقاطة من

تصميمه شخصياً. وكان يفضل إسناد إدارة المصالح والمشروعات إلى عناصر أوروبية حتى لا يستمع إلى أي شكاوى أوربية.

ويروي نوبار في مذكراته بعض الوقائع التي تدل على مدى احتقار الأجانب وحكــام مصر في ذلك العهد للمصريين ورفضهم الاعتراف بأي كفاءة أو قدرة لديهم على ممارسة أي عمل متقن. ثم كان مشروع قناة السويس وتدخل (ديليسبس) في أدق تفاصيل تمويل المشروع وفرض على مصر أن تدفع ٩٠ مليون فرنك دون مشورة الخديوي أو الحكومة في مصر وقدرتها على دفع المبلغ أو سداده فيما بعد. وعندما تم افتتــاح القنــاة كــان الخديوي إسماعيل يحكم مصر وفي عهده ضاعت مصر ووقعت تحت النفوذ المباشر بواسطة الرقابة المالية على خزينتها ووضع المستشارين في كل وزارة، وكانت نصيحة الأستانة بيع نصف مصر لشراء نصفها الآخر. فقد أُثقلت مصر بالديون وعجزت عن السداد وباعت حصتها في قناة السويس في الوقت الذي كان فيه إسماعيل يواصل الإســراف والتبــذير والبذخ محاولاً تقليد المدن الأوروبية والحياة الأوروبية بكل مظاهرها.

يدعي نوبار باشا بأنه كان يعارض التدخل الأجنبي في شؤون مصر لاسيما المالية لذلك غضب عليه الخديوي إسماعيل ونفاه في مارس ١٨٧٦ وذهب إلى باريس حيث أمضــى سنتين بها وعاد بعد ذلك إلى مصر ليغادرها ثانية في مايو ١٨٧٩ عام وفاة إسماعيل ويعود إليها مرة أخرى عندما يعهد إليه الخديوي توفيق برئاسة الوزارة في ٨ يناير ١٨٨٤ في ظل الاحتلال البريطاني. ويبقى في منصبه حتى يوليو ١٨٨٨ ثم استدعاه الخديوي عباس ليرأس الوزارة عام ١٨٩٤ ويتولى المنصب لمدة سنة وبضعة أشهر، ثم يقدم اســتقالته ويغــادر المسرح نهائياً، ثم يترك الدنيا كلها بعد ذلك بخمس سنوات ١٨٩٩م.

مذكرات نوبار باشا وثورتان

من خلال ما استعرضناه من أحداث عاشها ورواها نوبار باشا الأرمني يتأكد لنا مدى الحال الذي كان يعيشه العرب في أوطانهم، كانوا امة مهمشة لا حول لها ولا طول، يعيش أبناؤها لخدمة الأسياد من الأقليات، ولا شأن لهم ولا دخل في تســيير شــؤون حيــاتهم

وبلدانهم والحقيقة أن هذا الحال لم يكن مستجداً أو فترة حكم محمد علي باشا وأبناؤه وأحفاده فقط ولا في مصر دون غيرها من أقطار الوطن العربي، فقبل عهد أسرة محمد علي كان المماليك الأتراك بيدهم مقدرات البلاد وكذلك السلاجقة والأتابكة والأيوبيين وغيرهم، فالحقيقة أن علاقتنا بالأتراك لم تبدأ مع دخول دولة بني عثمان للوطن العربي ولكنها كانت قبل ذلك بما يقرب من الخمسة قرون، فبعد عهد المعتصم العباسي انسحب العرب من صناعة الأحداث ومن مسرح التاريخ وتحولوا إلى أجراء وعمال في المجالين الزراعي والتجاري وعلى نطاق أضيق إضافة لاحتراف بعض الحرف اليدوية، ولم يعودوا من عناصر الجيش، لذلك فإننا ولعدة قرون لم نسمع بقائد عربي واحد كان له دور مؤثر في صنع الأحداث ووضع بصماته على مسيرة التاريخ. فكل القادة الذين حققوا الانتصارات في حطين وعين جالوت وغيرها لم يكونوا من العرب، والأسماء خير دليل على ذلك من بيبرس إلى طومان باي وقطز وغيرهم. وعندما استولى محمد علي على الحكم في مصر وكما رأينا من مذكرات نوبار باشا فإننا لم نلحظ استعانته بشخصية عربية واحدة من أبناء الشعب المصري أو غيره، كان سواد الشعب يُعامل معاملة الرقيق، يكدح في الأرض ليذهب ربع إنتاجه للحكام من أسرة محمد علي والذين أرهقوا الشعب بأنواع الضرائب كما يقول نوبار. إضافة إلى ذلك استعانت أسرة محمد علي بمجموعة من الأقليات كنوبار نفسه والذي أتى من أرمينيا.

كان احتقار الأسرة الحاكمة لأبناء مصر أمر يكاد لا يصدق وكانوا لا يثقون بأي مصري، وفي إحدى المرات صدف أن أضرب فنيو سكك الحديد الأجانب وبالصدفة كان هنالك ثلاثة مصريين لا غير يتقنون نفس الأعمال، وعندما تم استدعاؤهم للعمل لم يرضي ذلك الحكام ولا أتباعهم من الغرباء لعدم ثقتهم بقدرة المصريين على القيام بمثل هذه الأعمال. حتى أن الجبرتي يقول في تاريخه: ((إن اثنين من المصريين كانا يتكلمان حول تعيين الوالي الجديد على مصر فقال أحدهما للآخر: يا أخي إحنا مالنا ومال الكلام في الموضوع ده)).

إلى هذا الحد وصلت القطيعة بين الشعب وحكامه، هؤلاء الحكام الـــذين لم يكلفـــوا أنفسهم تعلم اللغة العربية، لغة البلاد التي يحكمونها، والغريب أن أسرة محمد علـــي مـــن حكام مصر جميعهم لم يكونوا يتكلمون العربية باستثناء فاروق آخر ملوك مصر، كانـــت لغتهم هي التركية. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على مدى احتقار هـــؤلاء الحكـــام للشعب الذي يحكمونه ويمتصون خيراته ودمائه لإنفاقها على قصورهم وملذاتهم. صحيح أنهم عمروا الحجر ولكنهم أذلوا البشر.

وكان هذا هو حال معظم أو كل الأقطار العربية الأخرى، كانت الأمة العربية في طريقهـــا للتلاشي وكان مصيرها سيكون مصير الهنود الحمر في أمريكا أو عبيد إفريقيـــا الـــذين كـــانوا ينقلون إلى العالم الجديد للعمل في المزارع والمناجم.

أمام هذا الحال فإننا نستغرب أن بعض العرب ما زالوا يشككون بالثورة العربية الكبرى التي قادها المغفور له الشريف الحسين بن علي والتي بعثت أمة العرب من جديد وأصـــبح العـــرب يحكمون أنفسهم وعادوا إلى مسرح التاريخ من جديد بعد غياب طال أكثر من عشرة قـــرون. إنه عمل جبار حقاً ولا يقدره حق قده إلا من قرأ وعرف كيف كان حال العرب قبل الثـــورة. إنها ثورة أنقذت أمة بأكملها ونهضت بها بعد أن كادت تغيب تماماً إن لم تغب فعلاً عن مســـرح الأحداث. صحيح أن الثورة لم تحقق كامل أهدافها لظروف الوطن العربي وحـــال الأمـــة مـــن التخلف والضعف ولكنها وضعت القاطرة على سكتها وبدأ الانطلاق.

أما الثورة الثانية فكانت ثورة يوليو في مصر بقيادة جمال عبد الناصر والتي خلصت مصر من حكم الأقليات وأعادت للشعب المصري كرامته وحقوقه المسلوبة وأصبح الإنســـان المصـــري يمتلك زمام أموره، وبدأت الثورة النهوض بالطبقات المصرية المسحوقة لاسيما الفلاحين الـــذين عانوا وكابدوا وشقوا طوال قرون ولمصلحة المتحكمين في البلد، وألغيت الامتيازات الأجنبيـــة واستولت الدولة على الأموال والممتلكات والأراضي المنهوبة وملكتها لأصـــحابها الشـــرعيين. وأخذت مصر تظهر كدولة رائدة في الوطن العربي والعالم الثالث. وأصبحت بحق هذه المرة تحكم بتأسيس امبراطورية عربية عصرية. أما من يشكك بهذه الثورة أو تلك فعليه أن يقـــرأ التـــاريخ جيداً ثم يصدر حكمه ويبدي رأيه.

وصفي التل
شهيد القطرين

برز وصفي التل كمسؤول ورجل دولة في وقت غاب فيه منطق العقـــل، وعلـــت في الساحة العربية الأصوات الجوفاء، ورفع الشعارات المخدرة في غالب الأحيان، فكـــان أن ظُلم رجال مخلصون طالما عملوا وضحوا لنصرة أمتهم وعزة أوطانهم، وربما كان المرحوم وصفي التل من أكثر الرجال الذين ظُلموا ولم تُفهم وجهات نظرهم واجتهـــاداتهم حـــق الفهم، لا بل وحُرفت عن مقاصدها الحقيقية وأهدافها الصحيحة، فتعرض الرجـــل دون وجه حق لهجمات قاسية بعضها بدافع الجهل والبعض الآخر من باب المكايدة والرغبة في الابتعاد عن المنطق وروح العقل وسط الضجيج الذي كان سائداً في فترات ظهور وصفي التل كرجل دولة، ذلك الضجيج الذي لم يجلب للأمة العربية سوى النكبـــات المتلاحقـــة وضياع أجزاء غالية من وطننا العربي الكبير، وضياع حقوق شعب فلسطين والتي تقزمت لدرجة طموح هذه الأمة باستعادة أجزاء من الضفة الغربية والتي كانت بكاملهـــا بيـــد العرب.

وصفي التل الذي تخرج من الكلية الحربية من بلدة صرفند الفلسطينية، والذي قاتل في مناطق مختلفة من فلسطين وجُرح على ثراها، كما عمل داعياً لها في المحافل الدولية يـــوم كان يعمل في مكتب الإعلام الفلسطيني الذي أسسه المرحوم موسى العلمي، وصفي التل وهذه أعماله تعرض لهجمات قاسية ما كان يستحقها ولم تُفهم مواقفه حق فهمها وكانت نهايته المأساوية نتيجة تلك الاتهامات الباطلة والمواقف غير المفهومة.

وصفي التل – رحمه الله – كان ومن موقعه كمسؤول يدرك أن فلســـطين لا تُحـــرر بالشعارات الجوفاء والأصوات العالية ولا بالنوايا الحسنة، كان يدرك وهو الذي عـــايش القضية منذ البداية وناضل في سبيلها أن مواجهة الهجمة الصهيونية وتحرير فلسطين يحتاج

للعمل الجاد المخلص وتوحيد الجهود العربية الصادقة والتي تعمل حقاً من أجل التحرير ولا تتخذ من القضية ساحة للمزايدة وبناء الشعبية الرخيصة.

وصفي التل ناضل طويلاً في حياته من أجل فلسطين، ثم كان استشهاده أيضاً من أجلها، لذلك فلا عجب أن نطلق عليه لقب (شهيد القطرين) الأردن وفلسطين مع كامل إيماننا بأن القطرين وكل الأقطار العربية لا حاضر ولا مستقبل لها إلا بأن تكون قطراً واحداً موحداً، ولا خلاص لها مما تعاني إلا بتحقيق وحدتها إن عاجلاً أو آجلاً. وهو الهدف الذي آمن به وصفي وعمل له منذ أن ترسخت لديه فكرة العروبة والقومية العربية وهو ما زال طالباً في الجامعة الأمريكية وفي ريعان الشباب.

إننا الجيل الذي نتذكر وصفي سواء كان في الحكم أو خارجه، إنه الإنسان الذي لم يكن يؤثر به المنصب فكان رئيساً للوزراء كما هو مواطن عادي، لم يُعرف عنه الثراء والعيش فوق مستوى دخله المعروف، لم يقرب للمناصب العليا في الدولة أخاً أو صديقاً، إخوته بقوا في أماكن وظائفهم المعتادة سواء أكان وصفي في الحكم أو خارجه، لا بل كان ينبههم إلى عدم إشراكه في مشاكلهم الخاصة. فهو كأي فرد من أبناء الشعب الأردني تدرج في المناصب خطوة بعد أخرى، وهو ابن طبقة فلاحية عادية، فكان يدرك تماماً معاناة الفقراء وظروف حياتهم لذلك لم يكن غريباً أن يكون دائماً في صفوفهم وإلى جانب مطالبهم ومحاولة تحسين أحوالهم المعاشية.

وكان الحسين – رحمه الله – يرصد كفاءة وصفي المتميزة ويرعى قدراته القيادية فيختاره ليكون رئيساً للوزراء وقد كان سفيراً، وبعد أن تقلد أكثر من منصب قبل السفارة ومنها مديراً للإذاعة الأردنية. وقبلها كان عمل في دائرة الإحصاءات العامة، ثم في ضريبة الدخل بعمان، كما كان مديراً للمطبوعات. أما العمل الأول له فكان مدرساً بالكرك ثم في السلط بمدرستها الثانوية.

من هو وصفي التل

هو النجل البكر للشاعر الأردني الفذ مصطفى وهبي التل، وأسرة التل عريقة تعود في أصولها إلى بني زيدان الذين هاجروا من جهات نجد الشرقية إلى بلاد الشام أواسط القرن الثامن عشر، واستقر قسم منهم في إربد بالأردن بينما استقر القسم الآخر في الزبـــداني بسوريا. وقدمت هذه الأسرة عدداً من الرجال البارزين الذين كانت لهم مشاركة واضحة في الحياة السياسية والاجتماعية في البلاد.

جد وصفي هو صالح المصطفى الذي كان من أعيان مدينة إربـــد وفضـــلائها، ومـــن المتعلمين البارزين فيها، وقد حصل على إجازة لممارسة مهنة المحاماة، وظل يعمل في مجالها حتى تقدمت به السن، أما والده مصطفى وهبي فله تاريخ طويل وحافل في الحياة السياسية الأردنية، وهو في طليعة المستنيرين العرب الذين اتجهوا نحو تحقيق العدالة الاجتماعية ونحو الديمقراطية والاشتراكية، وفوق ذلك كان شاعراً مطبوعاً من أفذاذ الشـــعراء العـــرب المعاصرين.

قبل نشوب الحرب الأولى التحق مصطفى وهبي بمكتب (عنبر) في دمشـــق، وأثنـــاء العطلة الصيفية عام ١٩١٧ قصد بلدة عربكير (اسكي شهر) شمال العراق حيث كـــان عمه علي نيازي قائمقاماً هناك على أمل مساعدته في الالتحاق بالجامعة في استانبول لإتمام دراسته، ولكن تعذر هذا الأمر بسبب الحرب الأولى التي كانت تعم بلدان عديدة ومنهـــا الدولة العثمانية.

ولكن طابت له الإقامة في عربكير حيث اشتغل معلماً في مدرستها، ويبدو أنه وجد ما يعزيه عن ضياع أمله. ذلك أن عمه نيازي كان قد تزوج من فتاة كردية من آل بابان، ولم يلبث مصطفى أن تعرف على أختها (منيفة) فخطبها وتزوجها. على أن مصطفى لم يبـــق طويلاً في العراق فلم يلبث أن عاد إلى إربد واستأنف الدراسة في مكتب (عنبر) حتى تخرج منه. أما زوجته فقد بقيت عند أهلها ولم تلبث أن ولدت وصفي عام ١٩١٩.

قضى وصفي سني طفولته في منزل جده لأمه (إبراهيم بابان) في عـــربكير، وفي عـــام ١٩٢٤ جاء الجد من العراق إلى إربد ومعه وصفي ووالدته حيث اجتمع شمل الأسرة من

جديد. لذلك لم يكن غريباً أن وصفي بلغ السادسة من عمره ولم يكن يعرف كلمة عربية واحدة، وكان يعرف كلمات من اللغة الكردية. وربما كان لأم وصفي وأخواله الأكراد الأثر في بناء شخصيته إضافة لموروثات الطباع إذ عُرف عن وصفي الصلابة وشدة المراس والعناد وهي صفات تميز بها في حياته ومعروفة عن الأكراد. فجده لأمه سلمه إلى جده لأبيه ويبدو أن تأثير جديه وأمه في تربيته وتنشئته وتكوين شخصيته كان أعظم من تأثير أبيه والذي كانت له حياة مميزة تبتعد عن النظام والرتابة.

ومن الواضح أن جده لأمه كان رجلاً شديد المراس عنيفاً، فقد حبس وصفي ذات يوم مع أفعى وألح عليه أن يقتلها. أما والدته فقد وصفها أحد العارفين لها بقوله إنها أقرب ما تكون إلى الملائكة في حنوها وأخلاقها، لقد تزوج مصطفى امرأتين غيرها، ولكن السيدة منيفة والدة وصفي كانت أكثرهن صبراً على الحياة القلقة التي كانت من نصيب زوجاته، وكانت أكثرهن تقبلاً لتلك الحياة في حالتي السراء والضراء، وكان الحنان الذي أغدقته على وصفي من أسباب تكامل شخصيته.

أما والده فكان صاحب مواقف سياسية واجتماعية متميزة بعيداً عن التكسب والتزلف، ومن أجل مواقفه تعرض للسجن والنفي والأذى. وكانت له مقالاته العديدة في الصحف الفلسطينية مثل صحيفة الكرمل والتي كانت تثير اهتمام جيل من أبناء الأردن.

ولما بلغ وصفي سن الدراسة التحق كغيره من أبناء الأردن في ذلك الوقت والذين يرغبون بالدراسة النظامية العليا بمدرسة السلط الثانوية، حيث تتلمذ على أيدي مدرسين أعلام كثير منهم كان قدم من أقطار عربية شقيقة وكانوا يحملون معهم هموم أمتهم وأحلامهم في المستقبل الزاهر والمجد الأثير، وكان من أبرز هؤلاء المرحوم سعيد الدرة أستاذ التاريخ.

أنهى وصفي دراسته الثانوية عام ١٩٣٨، والتحق بعدها بالجامعة الأمريكية في بيروت حيث درس العلوم، كما كان مهتماً بدراسة الفلسفة والتاريخ، وفي هذه الأثناء تعرف جيداً على الفكر القومي لاسيما بعد أن أصدر قسطنطين زريق كتابه (الوعي القومي) بعد

التحاق وصفي بالجامعة بعام واحد. وكذلك وفي العام ذاته أصدر سامي شوكت في بغداد مؤلفه الشهير (هذه أهدافنا من آمن بها فهو منا) وهو ما ألهب خيال الشباب العراقي والعربي المتطلع إلى المجد والمستقبل. هذا إضافة إلى ما كانت تنشره المجلات المصرية مثل الهلال والرسالة لكبار الكتاب المصريين في ذلك الوقت. وفي بيروت أصدر عبد الله العلايلي ((دستور العرب القومي)) في السنة التي تخرج فيها وصفي من الجامعة ١٩٤١.

كل هذه الأفكار والطروحات كان وصفي مطلعاً عليها متفاعلاً معها وهو الذي عُرف بولعه الشديد بالمطالعة ونهم القراءة. بعد تخرجه عمل وصفي معلماً لفترة زمنية قصيرة حيث فُصل من عمله، وسدت الطريق أمامه للالتحاق بالجيش العربي بسبب تصرفات قيادته غير العربية. وفي عام ١٩٤٢ التحق بالجيش البريطاني بعد أن تخرج من كلية الحرب البريطانية في بلدة صرفند الفلسطينية. ولم يُعجب يوماً بالنازية التي أعجب بها عدد كبير من الشباب العربي، وكان يؤمن بعدالة قضية الحلفاء في حربهم ضد المحور. وكان يرى أنه لابد للعرب من التعاون مع الغرب والانفتاح عليه من أجل التخلص من الفقر والتخلف. ولكن هذه النظرة لدى وصفي ربما كانت في ظروف معينة، فبعد سنوات كان مقتنعاً بأن الهيمنة الأجنبية لا يمكن أن تأتي بالخير للبلاد العربية أو غيرها، وأن القوى الكبرى ليست إلا ذئاب تتهيأ للانقضاض على فرائسها، وأن طريق النجاة والوقاية معروف وهو بالوحدة ولا شيء سواها.

وكان يرى أن الهيمنة الأجنبية لا ترفع عن الوطن إلا بالمقاومة المسلحة، وفي رسالة بعث بها إلى المرحوم فاضل الجمالي بتاريخ ١٢ نيسان ١٩٥٨ يقول بوجوب إعداد فرق قتالية مدربة على حرب الاستنزاف والمقاومة الشعبية وإرسالها إلى الجزائر لقلب ميزان القوى، ولتكون وحدات احتياط دائمة للدفاع عن أي جزء من أرض العرب، وكان يرى في أواخر الخمسينات بأن الغرب والشرق كلاهما يحاربان الوحدة العربية لأن كل معسكر منهما يرى في الوحدة خطراً وتهديداً لمصالحه ونفوذه.

وفي المجال الاقتصادي كان يؤمن بأنه يجب أن يكون للدولة دور في التنمية وحماية أرزاق الفقراء. وكان شديد الاهتمام بالحفاظ على مساحات واسعة من الأرض لاستقلالها في الزراعة وعدم الزحف العمراني على أي أرض تجود بها الزراعة دون تكاليف كبيرة، كما كان حذراً وحريصاً على أن تكون مصاريف الدولة قدر مدخولاتها قدر الإمكان ولم يكن يؤمن بالاستدانة من الخارج وتحميل البلد ما لا تطيق من الديون وفوائدها الباهظة.

وصفي التل وقضية فلسطين

كانت قضية فلسطين ومأساة شعبها الهم الأكبر الذي شغل وصفي طيلة حياته، وسيطر على تفكيره واهتمامه في كل موقع تولاه في الحياة العامة، كانت له مواقفه ورؤيته حول القضية لذلك فلا غرابة أن يحالف الناس ويخاصمهم من أجل فلسطين، وظل مسكوناً بهذه القضية حتى وافاه الأجل.

أسلفنا بأن وصفي التل كان قد التحق بالجيش البريطاني سنة **١٩٤٢** ومع نهاية الحرب حصل على رتبة نقيب. وبعد أن خرج من الجيش التحق وصفي بالمكتب العربي في القدس، والمكتب العربي في لندن، وأقام علاقة وثيقة مع موسى العلمي، المسؤول عن هذين المكتبين حتى أصبح سكرتيره الدائم، ثم انضم إلى جيش الإنقاذ سنة **١٩٤٧**، فبعد صدور قرار تقسيم فلسطين **١٩٤٧** عملت الدول العربية على تأليف لجنة عسكرية اتخذت من دمشق مقراً لها. وقد بادرت اللجنة إلى دعوة الشباب العربي القادرين على حمل السلاح للتطوع في جيش التحرير الذي أعد وصفي نفسه لأجل تلبيته، وهكذا كان في طليعة الشباب الذين لبوا النداء ولم يكن يتجاوز الثامنة والعشرين من العمر، فبادر للاستقالة من المكتب العربي والتحق بقيادة جيش الإنقاذ، ركناً للعمليات تحت قيادة الضابط إسماعيل صفوت رئيس اللجنة العسكرية وهو عراقي الجنسية.

وكان وصفي قام من خلال منصبه ركناً عسكرياً لجيش الإنقاذ بإجراء تقدير موقف حلل فيه الموقف العسكري في خمسة عشر صفحة عرض فيه تفوق العدد العسكري وما يملكه من قوات عسكرية مدربة، ثم ضمنه خطة اقترح أن يتبناها اللواء صفوت، وأن

يعرضها على القادة العرب. وكانت تلك الخطة تدعو إلى توزيع المهام القتالية على الجيوش العربية، فالقوات السورية واللبنانية وجيش الإنقاذ تقوم باختراق الجبهة من الشمال وتزحف بمقدمتها قوات عراقية مدرعة بهدف الاستيلاء على ميناء حيفا، وأن يقوم الجيش المصري باختراق فلسطين من الجنوب وتكون وجهته الاستيلاء على يافا بهدف حرمان اليهود من الموانئ ويقوم الجيش الأردني وبقية القوات العراقية بشطر سلسلة المستعمرات اليهودية إلى قسمين، واشترط أن توضع الجيوش العربية تحت قيادة موحدة. وعزز تقريره بثلاث خرائط.

وصفي التل قائد معركة الشجرة

عين وصفي قائداً لفوج اليرموك الرابع، والذي كان يتمركز في عيلبون والمغار وكفر مندا، وخاض وصفي على رأس قوته معركة الشجرة وأصيب في أثنائها بشظية في ساقه، ورغم ذلك استمر في القتال ودافع بشجاعة فائقة أمام هجمات العدو المتتالية. ولكن العدو تمكن من اختراق جبهة فوج العلويين بقيادة غسان جديد غربي صفد، وقام بحركة التفاف من المؤخرة، وعلى إثر ذلك وبدل أن يقوم فوزي القاوقجي بهجوم معاكس أصدر أوامره لجميع وحدات جيش الإنقاذ بالانسحاب الفوري الكامل من الجليل إلى جنوب لبنان، ورفض وصفي التل بادئ الأمر الانسحاب ولكن الضغوط والظروف وقلة الذخائر أجبرته على الانسحاب، وهكذا سقط الجليل بأكمله في أيدي العدو.

بعد ذلك علم وصفي التل أن الحكومة اللبنانية تنوي فتح مفاوضات مع اليهود لعقد هدنة دائمة، فاتفق بعد مداولات مع ضباطه بالزحف على مرجعيون وإعلان العصيان ومطالبة الحكومات العربية بمواصلة القتال، بعدها نُقل وصفي إلي دمشق، فبعد الهدنة الثانية وبعد أن تم حل جيش الإنقاذ عمدت سوريا إلى إلحاق قوات جيش الإنقاذ بالجيش السوري وأطلقت عليه اسم قوات اليرموك، ونقل وصفي مع فوجه إلى الجبهة السورية حيث تمركز في بلدة فيق المطلة على بحيرة طبريا ورقي إلى رتبة مقدم.

واختلف وصفي مع حسني الزعيم صاحب الانقلاب الأول في سوريا والـــذي أمـــر باعتقاله في سجن المزة، ولكن بعد فترة قصيرة أفرج عنه ورحل إلى الأردن. حيث ذهب إلى القدس وعمل مع موسى العلمي مرة أخرى ولكن في المشروع الإنشائي في أريحا هذه المرة، لكن إقامته في القدس وأريحا لم تدم سوى بضعة أشهر فقد انتقل إلى عمـــان بعـــد زواجه من السيدة سعدية الجابري زوجة موسى العلمـــي، وعمـــل موظفـــاً في دائـــرة الإحصاءات العامة، ثم عين مساعداً لمدير ضريبة الدخل، ولكن مثل هذه الوظائف لم تكن لترضي طموحه فقدم في أيلول **١٩٥٣** طلباً للانتقال إلى وزارة الخارجية لكن طلبه لم يلق استجابة المسؤولين، ولكن في عام **١٩٥٦** عين مستشاراً في السفارة الأردنية في بون وبقي حتى عام **١٩٥٧**. عين بعدها رئيساً للتشريفات في الديوان الملكي، ثم نقل إلى الســـفارة الأردنية في طهران قائماً بالأعمال، وعاد إلى عمان عام **١٩٥٩** حيث عين مديراً للإذاعة، ثم أصبح مديراً للتوجيه الوطني والإعلام بعد أشهر، وفي أواخـــر **١٩٦٠** عُـــين ســـفيراً للأردن في بغداد.

وصفي التل رئيساً للوزراء وموقفه من مجريات القضية الفلسطينية

من بغداد حيث كان سفيراً تم استدعاؤه إلى عمان ليكلف بتشكيل أول حكومة له في **٢٧** كانون الثاني (يناير) **١٩٦٢**. وكانت حكومته من الشباب المتعلمين لتكون مؤشـــراً على التغيير القادم، وكان كل وزرائها بمن فيهم الرئيس ممن يتقلدون المنصـــب للمـــرة الأولى. وكانت أولى أعمال حكومته القيام بإصلاحات إداريـــة، كـــان أهمهـــا إعطـــاء الصلاحيات للحكومة بإعفاء أي موظف من منصبه إذا ثبت ضعف كفاءته أو فســـاده، وبدأت بالفعل عملية تطهير في أجهزة الدولة وأمانة العاصمة طالت حوالي مئتي موظف.

كذلك عزم على إجراء مصالحة وطنية بين المعارضة ونظام الحكم، وفي عـــام **١٩٦٢** أصدر قانون عفو شمل المعتقلين والمحكومين والمنفيين من السياسيين، وأرسل وصفي وفوداً إلى دمشق والقاهرة لدعوة اللاجئين السياسيين الأردنيين فيهما للعودة إلى الأردن.

أما على صعيد القضية الفلسطينية فقد قرر وصفي أن ينتقل الأردن لموقــع المبــادر والداعي لمبادرات وخطط لبدء التحرك لخدمة القضية الفلسطينية، وأن لا يكــون الأردن دائماً معتمداً على ردات الفعل أو متأثراً وتابعاً لسياسات مفروضة عليه وربما يكون غير مقتنع بها وهو الأقرب لفلسطين وأهلها، لا بل هو جزء من القضية، حاول وصفي ولأول مرة أن يمسك الأردن بزمام المبادرة، فأعد خطة لتحرير فلسطين، ودعــا مجموعــة مــن الشخصيات الفلسطينية عام ١٩٦٢ للحضور إلى عمان ومن هؤلاء: أحمــد الشــقيري واميل الغوري وعيسى نخلة وغيرهم، واجتمعت هذه الشخصيات بالملك ووصفي وحازم نسيبة وزير الخارجية الأردني، ونوقشت خلال الاجتماعات أفكار ومقترحات حول سبل تحرير فلسطين. وكانت الخطة الأردنية تدور حول جعل الأردن قاعدة الانطلاق لتحريــر فلسطين ومنح الفلسطينيين حق تقرير مصيرهم بعد التحرير.

ودعت الخطة الأردنية الدول العربية إلى مساندة الأردن ليصبح مركز قوة المجابهة مع إسرائيل ومنطلقاً لاستعادة الأراضي المغتصبة، والتوقف عن استغلال القضية الفلســطينية في المنازعات العربية.

وفي عام ١٩٦٥ عاد وصفي لتشكيل حكومة جديدة بعد أن كــان قــدم اســتقالة حكومته السابقة في ٢٧ آذار (مارس) ١٩٦٣ وهذه الحكومة الثانية كانت لها مواجهات مع منظمة التحرير الفلسطينية بسبب خلافات في الــرؤى والاجتهــادات إلى جانــب المناكفات وسياسات المحاور التي كانت قائمة بين الأقطار العربية. وكان وصــفي مــن أولئك الرجال الذين عُرفوا بصلابتهم وعدم التنازل عما يعتقدونه الصواب ومهما كانت النتائج، فهو كان يرى أنه على الحق دائماً. وربما كان ذلك بسبب قناعته التامــة بــأن فلسطين هي شغله الشاغل وقمة أولوياته وأنها يجب أن تعود يوماً إلى حظيرتها قلباً للعــالم العربي، ولكن على أسس من الإعداد العلمي والاستعداد المدروس والنهــوض في كــل ميدان من ميادين الحياة، فقضية فلسطين هي نتيجة التخلف العربي الذي مضــت عليــه قرون، وهو أكثر الناس معرفة بأسباب نكبتها لأنه عاصرها وعاشها وكــان في طليعــة

المجاهدين في سبيلها وهو في ريعان شبابه ومقتبل عمره حيث كان قائداً في جيش الإنقاذ في ميادين الجليل.

كان يعرف عناصر القوة والضعف في أمته، وقبل معرفته بعناصر القوة والضعف في عدو أمته، كان يعرف قادة العدو العسكريين ومطلع على تفكيرهم وخططهم المستقبلية سواء أكان عرفهم يوم كان في كلية الحرب في صرفند أو عن طريق الاحتكاك بهم في ميادين القتال، أو قراءة أفكارهم ومواقفهم من خلال قراءته لما كانوا يكتبون وهو الإنسان المثقف النهم للمطالعة والمعرفة. وكما أسلفنا فقد كان على دراية تامة بأحوال أمته وقدراتها في تلك المرحلة.

وكان من المهام الأساسية للحكومة الجديدة معالجة العلاقة مع منظمة التحرير الفلسطينية بالحزم وعدم التهاون، لذلك بدأت المباحثات مع المرحوم أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير في ٢٤ شباط ١٩٦٥،

وكان الشقيري جاء بخطة عسكرية لإنشاء كتائب فلسطينية في الأردن وتسليح سكان قرى الحدود مع (إسرائيل) وتدريب الفلسطينيين على حمل السلاح، وإنشاء مقاومة شعبية بينهم غير أن حكومة التل رفضت جميع هذه المطالب، وفي أيار ١٩٦٥ أعلنت سحب دعمها للمنظمة، وفي ٢١ حزيران أعلن وصفي أن تسليح القرى قد تم، وفي أيلول ١٩٦٥ وفي مؤتمر القمة العربي الثالث رفضت الحكومة الأردنية مطالب الشقيري بتجنيد الفلسطينيين في الأردن في جيش التحرير الفلسطيني، وفشل الشقيري في كسب تأييد المؤتمر.

وزادت حدة التوتر بين الحكومة والمنظمة، فأغلقت مكاتب المنظمة بالقدس، وشن وصفي هجوماً شديداً على الأنظمة الثورية العربية. ثم استقالت حكومة وصفي في ٢٤ آذار ١٩٦٧ وعين بعد استقالته رئيساً للديوان الملكي. حيث كان له دور كبير في توجيه السياسة الأردنية بصفته أحد المقربين من الملك. وكان وصفي يعارض دخول حرب

حزيران ١٩٦٧ ويعتبر ذلك مخاطرة كبيرة ستؤدي لضياع الضفة الغربية ومنها القـدس. وحاول إقناع الملك بوجهة نظره غير أنه لم يفلح.

وفي ١٤ حزيران ١٩٦٧ استقال وصفي من منصب رئيس الديوان الملكي وفي الأول من آب ١٩٦٧ عين في المجلس الاستشاري للملك. ثم كانت حرب حزيـران ١٩٦٧ ونتائجها المعروفة، والتي تبعتها بعد فترة قصيرة قيام حركة المقاومة والتي بـدأت داخـل الأرض المحتلة في النصف الثاني من عام ١٩٦٧. ولكن تبين لقادة حركة المقاومة صعوبة البدء بثورة مسلحة شاملة ذات قاعدة محلية بسبب شدة المراقبة الإسرائيلية على الحدود لمنع تسرب الأسلحة ورجال المقاومة، كما تصاعدت أعمال القمع الإسرائيلية ضد المشتبه بعلاقتهم برجال المقاومة ومنظماتها، وقد أسفر كل ذلك عن تراجع استراتيجي للمقاومة.

وبسبب صغر مساحة العمليات فقد كان من الصعب على رجال المقاومة البقـاء في المنطقة التي يحتلها العدو طويلاً، وكان الخيار هو اتخاذ الضفة الشرقية لـلأردن مركـزاً ومنطلقاً للمقاومة نظراً للحدود الطويلة مع دولة الكيان ولوجود أعداد كبيرة من أهـل فلسطين في الأردن. وبدأت العمليات الفدائية وشن الغارات عبر خطوط وقـف النـار باعتبارها النموذج الأساسي للعمليات، ومن قواعـدهم في وادي الأردن شـن رجـال المقاومة عملياتهم داخل الأراضي المحتلة ضد المؤسسات والمنشآت العسكرية الإسرائيلية والمدنية، كما حمل النشاط الفدائي العمليات إلى القدس وتل أبيب وحيفـا فضـلاً عـن الأماكن الصناعية والتجارية في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة، هذا إضافة لنشاط عسكري على خطوط وقف النار داخل قطاع غزة، وعلى الجبهة المصرية كانت حرب الاستنزاف والتي كلفت الطرفين الكثير من الضحايا والدمار.

كما كان الأردن يتعرض لعمليات انتقامية من قبل العدو بشكل غـارات جويـة أو قصف مدفعي عنيف بطول امتداد الحدود على النهر، كما كان يقصد مدينة إربد أحيان كثيرة، وقد توجت الصدامات بمعركة الكرامة الشهيرة في ٢١ آذار ١٩٦٨ والتي شارك بها الجيش العربي الأردني بفاعلية واستطاع وقف التقدم الإسرائيلي ورده خائباً.

ولكن بعد هذه المعركة بدأ رجال المقاومة بالتراجع الاستراتيجي إلى داخل القرى والمدن الأردنية، وبدأ الاحتكاك بين رجال المقاومة والسلطة الشرعية. فقد أصبحت الساحة الأردنية ملجأ لكل هارب من العدالة في بلده ولكل متعطل عن العمل، فاختلط الأمر على الساحة الأردنية وفقد حبل الأمن وساد نوع من الفوضى وعدم الالتزام بقوانين البلد ومراعاة ظروفه وبعض خصوصيات أبنائه، لا بل وبدأ التحرش بأبناء القوات المسلحة الأردنية وبلا أسباب منطقية، واستطاع الموساد التسلل إلى الصفوف عبر المال والمخدرات والعملاء.

وأخذت بعض الأقطار العربية تدفع برجالها والمتعاونين معها إلى الساحة الأردنية بحجة مساندة العمل الفدائي، بينما كانت تلك الأقطار تقفل حدودها أمام أي نوع من المقاومة ورفعت شعارات معادية للنظام في الأردن، مثل شعار ((كل السلطة للمقاومة)) وتعدى الأمر إلى المناداة بإسقاط النظام بالأردن، وأصبح تحرير فلسطين يبدأ بتحرير عمان. وأصبح غالبية السكان من عسكريين ومدنيين أردنيين وفلسطينيين يضيقون ذرعاً بالواقع والممارسات التي كانت تصدر عن فئات من رجال المقاومة أو الذين يدعون ذلك. مع أن الكثير منهم كانت لهم ممارسات إنسانية ووطنية حقة، ولكن العناصر المدسوسة والفوضوية والتي يقف وراءها أصحاب أجندات خاصة جعلت من الوضع أمراً لا يطاق. لاسيما بعد العبث الذي جرى في الفترات الأخيرة من العمل الفدائي حين بُدئ بنصب المتاريس ونقاط التفتيش على معظم الطرق لا بل وأصبح متعذراً على رجال القوات المسلحة التنقل على الطرق، وبات الأردن ساحة للفوضى من شماله إلى جنوبه.

ومن هنا كان القرار الأردني لتصحيح الأمور خاصة بعد عمليات خطف الطائرات المشهورة واحتجاز مئات الرهائن الأجانب على الأرض الأردنية. كان لابد من التحرك لإيقاف هذه الفوضى، فكان ما عُرف بأحداث أيلول الأسود ١٩٧٠. والتي رافقها تدخل القوات السورية لمناصرة المقاومة وما جرى من معارك مؤسفة بين الجيشين العربيين

الشقيقين السوري والأردني وما تلا ذلك من وقف النار بعد مؤتمر قمة عـــربي عقـــد في القاهرة ٦ أيلول ١٩٧٠ ووضع حد للفوضى التي كانت تسود.

وفي ٢٨ تشرين الأول (نوفمبر) كلف وصفي التل بتشكيل الحكومة وكانت مهمـــة الحكومة إخراج الفدائيين تدريجياً من الأردن واستعادة هيبة النظام. وبدأ وصفي محاولـــة التفاهم مع قادة المنظمات في نيسان لإقناعهم بمغادرة العاصمة، وحذر الملك بأنه سيفرض النظام والهدوء مهما كان الثمن، ووافق الفدائيون على مغادرة عمان نهائياً كما حظـــرت الحكومة العمل الفدائي في غور الأردن للحيلولة دون عمليات إسرائيلية انتقامية تعرقـــل عملية تطور الزراعة وتهدد بوقف الإنتاج.

وفي هذه الأثناء حشدت المقاومة رجالها في منطقة الأحراش بين جرش وعجلون، ولكن وفي نهاية حزيران ١٩٧١ شدد الجيش حصاره على منطقة جرش وعجلـــون، ثم كـــان الهجوم الواسع على معاقل الفدائيين يوم ١٣ تموز ١٩٧١ حيث تم إخراج الفدائيين مـــن الأردن نهائياً واستولت السلطات على مكاتب منظمة التحرير وفـــتح والهـــلال الأحمـــر الفلسطيني وأغلقت جميعاً باستثناء مكتب المنظمة في عمان، وفي ١٧ تموز أعلن الملك أن الهدوء يسود الأردن.

وفي يوم ٢٦ تشرين الثاني كان وصفي قد وصل إلى القاهرة لحضور اجتماعات مجلس الدفاع العربي رغم معارضة الملك حسين على ذهابه، وفي ٢٨ تشـــرين الثـــاني ١٩٧١ اغتيل وصفي التل وهو يهم بدخول فندق الشيراتون على يد أربعة رجال قيل إنهم مـــن منظمة (أيلول الأسود) أحد أجنحة فتح، ودفن التل في مراسم عسكرية كاملة في المقـــابر الملكية وكان الملك حسين رحمه الله على رأس المشيعين.

وهكذا كُتب على وصفي التل الذي انتمى لتربة هذا الوطن بكل إمكاناته وقدراته أن يولد غريباً عن هذه الأرض وأن يموت بعيداً عنها.

وصفي التل بالميزان

لو تتبعنا شخصية وصفي التل منذ شبابه المبكر لرأينا فيه شخصية متميزة، فرغم أنــه خريج الجامعة الأمريكية وفي وقت مبكر من عمر الأردن كدولة بحيث كان يمكن أن ينال وبكل سهولة وظيفة مريحة ويرتقي بها بأقصى سرعة، إلا أننا نراه وقد اتجه صوب الخدمة العسكرية في الجيش البريطاني أولاً ثم في جيش الإنقاذ حيث قاتل على أرض فلسطين وفي أكثر من منطقة وجرح أثناء قتاله، ثم انضم إلى الجيش السوري وعلى الحدود الفلسطينية ووصل إلى رتبة مقدم ليختلف بعد ذلك مع حسني الزعيم رئيس سوريا في ذلك الوقــت ويعود إلى الأردن لينخرط في السلك الوظيفي ويتقلد عدة مناصب إدارية ودبلوماسية.

أما وصفي رئيس الوزراء والمهتم منذ شبابه المبكر بالقضايا الوطنية والقومية، لم يكــن غريباً عليه أن يكون رئيساً متميزاً للوزراء، إنه لم يعتبر هذا المنصب بمثابة وظيفة حكومية عليا بحيث يمارس الإدارة إلى انتهاء دوامه اليومي وأن وظيفته أن يكون المســؤول الأول عن إدارة مؤسسات الدولة وكفى الله المؤمنين شر الشقاء والتعب، وهو – مع الأسف – حال معظم من كان يتولى هذا المنصب قبله.

كان رئيساً ذا مواقف سياسية ووطنية مميزة، وكانت له نظرية تنموية للبلد وأحــلام بالنهوض والتقدم، ولكن كان محكوماً بموارد البلد المحدودة وبعــدم تعمقــه في علــوم الاقتصاد. مع الرغبة بعدم إغراق البلاد بالديون. هذا إضافة للظروف الصعبة التي كــان يتولى بها منصب رئاسة الوزراء، من خلافات عربية وصلت أحياناً درجة الصراع وكثيراً ما غاب دور العقل والمنطق لتحل المزايدات والمكايدات والشعارات.

أما بالنسبة لقضية فلسطين والتي حاول البعض النيل من وصفي من خلالها، فإن الجهل بتاريخ وصفي ومواقفه تجاه فلسطين والأطماع الصهيونية هو ما دفع البعض لاتهامه بشتى أنواع التهم، فقليلون هم الذين يعرفون أن وصفي كان يحمل رؤى واضحة لمقاومة الغزو الصهيوني، وفي هذا الإطار اقترح إنشاء قوة عسكرية فلسطينية تتألف من وحدات مقاتلة صغيرة كي تعمل في المدن والقرى على مقاومة اليهود.

كما أن الكثيرين لا يعرفون أن وصفي ومن شدة حرصه على عدم انتقال الأراضـــي الفلسطينية لأيدي اليهود أرسل إلى الملك عبد الله رسالة في **٢٣** كـــانون الثـــاني **١٩٤٧** ذكر فيها أن اليهود يسعون لشراء أراضي ومستعمرات الألمان في فلسطين، وأن الألمـــان يفضلون بيعها للعرب، ثم اقترح على الملك حث الحكومة الأردنية على أن تعطي الألمـــان أراضي في شرق الأردن بدلاً من أراضيهم التي ستؤول في تلك الحالة إلى العرب قـــائلاً: ((إن هذه العملية تعد أكبر عملية إنقاذ لأرض فلسطينية يمكن القيـــام بهـــا في الوقـــت الحاضر)).

فالذي يرسل رسالة تتضمن هذه المعاني لا يمكن إلا أن يكون محباً لفلسطين وأرضـــها وشعبها وحريصاً على إنقاذها من الخطر الصهيوني وهو الخطر الذي يهدد الوطن العـــربي بأسره مستقبلاً، مثل هذا الرجل لا يمكن أن يفكر تفكيراً قطرياً إقليمياً كما يعتقد بذلك محبوه ومنتقدوه في الوقت ذاته.

أما مواقف وصفي فيما بعد فقد بقيت ثابتة لا تتغير، واتخذ مواقفه بناء علـــى خبرتـــه الواسعة بالقضية الفلسطينية وهو الذي عايشها منذ شبابه المبكر، وكان يرى أن ما هـــو مطروحاً على الساحة لا يمكن أن يؤدي لتحرير فلسطين وأن كل ما هو مطروح لـــيس أكثر من شعارات ومزايدات تؤخر سير القضية ومصيرها ولا تقدم.

كان يعتبر أن ما جرى عام **١٩٤٨** ليس إلا جولة أولى في معركة العرب الطويلة مـــع الصهيونية والقوى التي تساندها، وهو يعزو انتصار العدو في الجولة الأولى إلى التخطـــيط المحكم وهو ما افتقر إليه الجانب العربي سواء في تلك الحرب أو الفترات التي أعقبتهـــا، وكان يرى أن العدو كان يسبق العرب بمرحلة زمنية لا تقل عن الخمسين عاماً، من حيث أهلية الاستعداد للمعركة على جميع المستويات.

من هذا المنطلق وهذا الفهم للواقع انطلقت مواقف وصفي بعد أن تحمل المسؤولية كـــرئيس لوزراء الأردن، فقد كان يرى أن أمور العرب على حالها ولم تتغير كثـــيراً فعلـــت الشـــعارات والمزايدات وغاب الإعداد والتخطيط المطلوبين. كذلك كان يرى أن العمل الفـــدائي الـــذي

انطلق بعد هزيمة ١٩٦٧ على ما كان عليه لن يحقق أية نتائج بعد أن دبت الفوضى وعدم الشعور بالمسؤولية في القادة ومعظم الأفراد، وانتشرت المزايدات بين المنظمات لا بل ودبت الخلافات والتي كانت تصل لدرجة الاشتباكات المسلحة أحياناً، والأدهى من ذلك أن معظم المنظمات كانت تُسير من قبل أطراف عربية متناقضة غالب الأحيان وكل لها أهدافها وأجندها الخاصة بها والبعيدة تماماً عن هدف التحرير، لذلك رأى وصفي بخبرته وبعد نظره أن هذه ليست طريق التحرير، وزاد على ذلك أن دبت الفوضى في ربوع الوطن وأصبح الحال لا يُحتمل فأقدم وبعد رغبة الملك على إعادة النظام والأمن إلى البلد. ولم يكن موقفه كما أسلفنا بدوافع إقليمية أو قطرية ضيقة وهو الذي كان ينادي بتشكيل وحدات مقاتلة من الجيش ورجال المقاومة للعمل بجدية نحو مقاتلة العدو وحتى تحقيق النصر مهما طال الزمن.

والحقيقة أن وصفي ورغم ما عُرف عنه من صلابة واعتداد بالرأي إلى درجة العناد، إلا أنه كان يعرف حدوده وحدود القانون وحدود القوة له وعليه في تعامله مع الفاعليات والمؤسسات المختلفة في البلد سواء أكانت سياسية أم قضائية أم داخلية وخارجية. وكان يعرف تماماً أن السلطة التنفيذية سواء في الدستور أم في الواقع هي مسؤولية من مسؤوليات جلالة الملك، وأن جلالته يمارس تلك السلطات من خلال وزرائه، لذا فقد كان حريصاً دائماً على عدم تجاوز أي حد من الحدود المرسومة. فكان بطبعه العسكري المنتظم لا يحيد عما يرسمه جلالة الملك والدوائر العليا في الدولة وهو من ضمنها، وكان يتعامل مع زملائه معاملة قائمة على المحبة والاحترام المتبادل والصراحة والتشاور الجدي، فجرأته وشجاعته المعهودة جعلتاه صريحاً مع الجميع يعلن عن وجهات نظره ورغباته دون مواربة أو مناورات جانبية ليقول أو يفعل ما يريد.

كل ما سبق من كلام حول وصفي التل لا يعني أنه كان ملاكاً أو بلا أخطاء فكما يقال أن كل من يعمل يخطئ. فتمسكه بالتحالف مع الغرب مثلاً تمسكاً استراتيجياً وليس تكتيكياً كان يؤخذ عليه، فدول الغرب هي من زرع الكيان الصهيوني في فلسطين وبقيت وما زالت ترعاه بكل قوة ودون أدنى حساب للعرب لا ماضياً ولا حاضراً، فالغرب لا يفهم إلا لغة المصالح، وتهديد مصالحه هو الذي يجعله يغير من سياساته العدائية، ولا ثقة

بوعوده وعهوده وقد جربها العرب لسنوات طويلة ومنذ الثورة العربية الكبرى وحتى هذه السنوات.

وصفي التل كانت له آراؤه الاجتماعية مثل الأخذ بيد المرأة وتحريرها من كثير من العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالدين، وكانت له اجتهاداته لتحرير المجتمع ككل مما يعاني من تخلف وعلى مختلف الأصعدة، إلا أن الأحداث السياسية كانت طاغية ومنعته من عرض رؤاه وتفعيلها على الساحة.

عُرف وصفي بالزهد في متع الحياة ومغرياتها المادية فكان نظيف اليد بعيداً عن الفساد ودروبه، يفضل العيش البسيط الخالي من المظاهر، بسيطاً في ملبسه وتصرفاته بين أبناء المجتمع، لم يكن يجاري الطبقات البرجوازية في طرق عيشها وربما لم يكن يطيق أساليب مثل هذا العيش.

كانت جذوره الفلاحية تشده، فكان يفضل في منزله دائماً الجلسات العربية ويحتفظ بمعظم الأدوات التي كان يستعملها الفلاح الأردني قديماً. كان دائم المرور من أمام بوابة الجامعة الأردنية وكان كثيراً ما يقف للطلبة ويسأل عن أحوالهم وإذا كان في طريقه نحو البلد يدعوهم للصعود معه بسيارته لإيصالهم وسواء أكان في الحكم أو خارجه.

رحم الله وصفي التل والذي كانت نهايته خسارة للأردن وفلسطين معاً ويحق لنا أن نطلق عليه شهيد القطرين.

عودة أبو تايه
نموذج بطولة من الأردن

عودة أبو تايه من قبيلة الحويطات الأردنية، والتي تقع مضاربها في الجزء الجنوبي من شرقي الأردن حول مدينة معان في أرض الشراة، والحويطات مجموعة قبائل عربية عريقة يعتقد بعض الباحثين في أنساب القبائل أن بعضها يعود في أصله إلى الأنباط العرب الذين كانت عاصمتهم مدينة البتراء.

وكانت هذه القبيلة خلال العهد العثماني تعيش كغيرها من قبائل البادية على تربية الماشية والجمال والاعتناء بالخيول العربية الأصيلة وشن الغارات، أما الزراعة فقد كان البدو يحتقرون من يعمل بها في ذلك الحين، ويعيرون أهل القرى بأنهم (فلاحون) وفي أواخر القرن التاسع عشر كانت زعامة الحويطات بيد عرار بن جازي، إلا أن خلافاً نشب بين عشائر هذه القبيلة فانقسمت إلى فريقين متخاصمين، بقي أولهما موالياً لابن جازي بينما انضوى الفريق الثاني تحت زعامة عودة أبو تايه.

ولد عودة حوالي عام ١٨٧٠، وقد اشتهر منذ مطلع شبابه بالرجولة والشجاعة والفروسية، وسرعان ما ذاع صيته بين القبائل ولمع اسمه في محافل البادية، ولم تقتصر الخشية من غزواته على البدو فحسب بل امتدت إلى رجال الدولة العثمانية وقد بدأ ذلك عندما حاول عدد من الجنود سوقه إلى معان كي يدفع ضرائب قيل إنها استحقت عليه وكان هو يصر على أنه دفعها، ولما أبى عودة الامتثال رماه جنديان بالرصاص فأخطآه، ورد عليهما ببندقيته فأرداهما قتيلين وفرَّ الباقون، ومنذ ذلك الحين لم يدخل معان، واعتبر

الحكومة من جملة خصومه الكثيرين الذين كانت تقاليد البادية تمنحه حرية السطو عليهم وغزوهم في أي مكان وزمان.

ويحكى مرة أنه أغار على جهات حلب ثم عطف صوب العراق فقطع الفرات غازياً، وبعد أن غنم جملة غنائم قفل راجعاً إلى شرقي الأردن، وقد أكسبته شجاعته شهرة واسعة حتى غدت تضرب به الأمثال.

وأول من كتب عن عودة فيما يُعرف شاب من بيت لحم يدعى حبيب حنا زبلح، كان قد أقام مدة في مؤتة والكرك أوائل القرن العشرين، وكتب مذكرات عن مشاهداته ومعلوماته وهو يذكر أن عودة أبو تايه من أشهر فرسان العرب، وأنه ابتاع منه في مؤتة حمولة مائة بعير من الشعير، وكانت ترافقه أخته عليا فأبقاها عنده وذهب إلى الكرك لابتياع القمح والطحين، ووصف عليا بأنها سيدة حسناء مهيبة الطلعة ذات رزانة وتعقل، وكان التوايهة ينتخون باسمها ويلقبونها (النشمية) بينما كان عودة ينادى بلقب أخو عليا.

وذكر الرحالة التشيكي (الويس موزيل) أنه تعرف على عودة أثناء رحلة له قام بها إلى شمال الحجاز عام ١٩١٠ وعقد صداقة متينة معه. وأنه عند وصوله إلى معان بعث ينبئ عودة بقدومه فأرسل له عدداً من رجاله ومعهم الجمال كي يحملوه إلى مضارب الحويطات في (الجفر) وقال إن عودة اشتهر بقسوته حتى قيل إنه كان يشرب من دم أعدائه، وأحياناً يتناول القلب من صدر عدوه ويمضغ قطعة منه، كما ذكر أن عودة كان يتقاضى – كغيره من شيوخ القبائل – مبلغاً من المال من الحكومة تدفعه له كل سنة كي يمنع أتباعه من التعرض لموكب الحجيج عند مروره في الصحراء ذهاباً وإياباً.

وتحدث المطران بول سلمان في كتابه ((خمسة أعوام في شرقي الأردن)) عن عودة فوصفه بأنه أقوى الزعماء في الحويطات وأغناهم وأوسعهم ملكاً وله مواشٍ وخيل وبيوت. رجاله سبعة آلاف والمسلحون عددهم أربعة آلاف، ولهم سطوة ودولة، ويسكن في قرية تدعى (الجرباء) وقد كتب هذا الكتاب في الفترة ما قبل الحرب الأولى.

هذا وذكر المطران سلمان قصة تلقي ضوءاً على تقاليد ذلك العهد وتقيد عودة بها، يقول: ((كان سالم العازمي في خيمة عودة أبو تايه، إذ هجم عليه حامد الشراري وأطلق رصاصة عليه فلم تصبه بأذى، حينئذٍ امتطى الشيخ عودة مطيته إلى مضرب كاسب اللحاوي شيخ الشرارات وقال: بيّض وجهي يا كاسب اللحاوي، قال: خير إن شاء الله، قال: ما في إلا الخير، هجم حامد الشراري على ضيفي سالم العازمي وأطلق عليه الرصاص، قال الشيخ كاسب: قد أصلحت الأمر يا شيخ عودة، خذ لك ولضيفك أربعين ناقة وفرساً وسيفاً وامضي في سبيلك. فانطلق أمير الحويطات مسروراً واستوفي حقه، ولو أبى شيخ الشرارات الصلح لكان عودة أبو تايه أشهر عليه حرباً عواناً)).

والحقيقة أن الغارات بين الحويطات والشرارات كانت لا تنقطع وكانت بين كر وفر. وقد استطاع عودة أن يعيد غضبان بن رمال شيخ عشيرة سنجارة من شمر إحدى أكبر قبائل البدو في شمال الجزيرة حينذاك، بعد طرده من عشيرته، أعاده عودة إلى منصبه، وقيل إن غضبان تزوج ابنة عودة ليظل محتفظاً بصداقته، وبذلك اشتهر أمر عودة وذاع صيته في الجزيرة وقيل أيضاً إن عودة تزوج بابنة عم غضبان.

كذلك وقعت غزوات بين الحويطات بزعامة عودة والجازي. انهزم عودة في إحداها وذهب إلى نوري بن شعلان شيخ مشايخ الرولة مستنجداً، وصدف أن انضم عودة إلى الشعلان حين غزا عربان ابن الرشيد في الجوف، مما جعل ابن شعلان يغير على الجازي للانتقام منهم لعودة وقتل في المعركة الشيخ عبطان بن جازي وعناد بن عودة الذي كان أبوه يعلق عليه الآمال في أن يخلفه في الزعامة. كذلك نشب نزاع بين الحويطات وبني صخر تبادل فيه الفريقان النصر والهزيمة.

وأول ما عرفت الدوائر البريطانية في القاهرة والهند مكانة عودة، كان عن طريق الكابتن شكسبير المقيم البريطاني في الخليج العربي، ففي ربيع ١٩١٤ قام شكسبير برحلة لعبور البوادي من الخليج إلى مصر على ظهور الجمال، في رفقة عدد من رجال العقيلات، وعند وصوله ورفاقه إلى الجفر، احتجز عودة شكسبير بعض الوقت ثم سمح له بمواصلة

السفر وأعطاه نياقاً توصله إلى العقبة وأرسل معه بعض رجاله لحمايته، وقال شكسبير إن عودة عامله بخشونة، ووصفه بأنه ذو قوام منتصب حربي وأن شعره أسود وخطه الشيب، ويرتدي ثوباً طويلاً وعلى رأسه شماغ أحمر اللون، ومما قاله شكسبير في تقرير له (ونقلـــه عنه لورنس فيما بعد) إن عودة تزوج نحو عشرين امرأة وأنجب أبناء عديـــدين، ولكـــن معظم أفراد عائلته قتلوا في الحروب التي أثارها وفي الغزوات التي كانت محور حياته، وقال إن عودة يعرف عدد العرب الذين لاقوا حتفهم على يده، ولكنه لم يستطع إحصاء الأتراك الذين كان يتمنى أن يفتك بهم.

ومهما يكن من أمر فقد أصبح عودة مع بداية الحرب الأولى زعيماً من أكبر زعمـــاء العرب في بادية الشام، وكان من الطبيعي بعد إعلان الثورة العربية وتقدم الجيش الشمالي إلى تفر الوجه، أن يرسل فيصل بن الحسين رسله إلى شيوخ المناطق الشمالية ومن بيـــنهم عودة يدعوهم للانضمام إلى صفوف الثورة والإسهام في معركة الحرية، وهنـــا حانـــت الفرصة الذهبية لعودة أن يرتقي بزعامته من حياة البداوة إلى مســـتوى العمـــل القـــومي والجهاد الوطني، والكفاح في سبيل قضية تهم الأمة العربية كلها، واهتبل عودة الفرصـــة السانحة وخلد لنفسه بذلك ذكراً لا تمحوه الأيام.

لبى عودة دعوة فيصل، وكان في ذلك الأول بين زعماء الأردن وشيوخه، وأقبل ذات يوم من نيسان ١٩١٧ إلى معسكر فيصل يرافقه عدد من أقربائه منهم ابن عمـــه محمـــد الدحيلان وابن أخيه زعل بن مطلق وابنه محمد الذي لم يكن يتجاوز العاشرة من عمـــره. وسرت في المعسكر موجة اغتباط، واستقبله فيصل مرحباً باسماً لقد أصبح عودة في صف الثورة، وأصبح التقدم ممكناً نحو الشمال إلى الأردن ودمشق، وسرعان ما بدأ البحث في إمكانات نقل العمليات الحربية إلى سوريا، وكان في مجلـــس فيصـــل نســـيب البكـــري والشريف ناصر وفايز الغصين.

وعندما جاء الطعام واصطف الضيوف حول الجفنة إلى جانب فيصل وبدأوا يأكلون، أسرع عودة بمغادرة المكان وسط تعجب الحضور والذين سمعوا بعد قليل صـــوت شـــيء

يتحطم بين حجرين، وما لبث عودة أن عاد وهو يعلن أنه حطم طقم الأسنان الذي كان جمال باشا قد أمر بصنعها له، وسئل عن السبب فقال: كيف أمضغ خبز سيدي الشريف بأسنان الأتراك. وهكذا بقي عودة دون أسنان حتى استولى العرب على العقبة فأرسل الإنجليز طبيب أسنان من مصر صنع له طقماً جديداً.

كانت الثورة العربية قد وطدت أقدامها في الحجاز، وكان عليها أن تمتد لتوسيع نطاقها إلى الشمال، فهي ثورة عربية شاملة يجب أن تنتشر في أكبر رقعة ممكنة من الوطن العربي، وكان على جيوش الثورة أن تتقدم شمالاً وتهاجم الجيوش العثمانية من حيث لا تتوقع هذه الجيوش، وهكذا كان مجيء عودة إلى (الوجه) وانضمامه للثورة عاملاً حاسماً ونقطة تحول خطيرة، إذ كان الزعيم العربي الوحيد الذي يستطيع أن يساهم مساهمة إيجابية في نجاح العمليات العسكرية في منطقة معان التي كانت منطقة نفوذ للحويطات في ذلك الحين.

وبدأ الاستعداد للحملة في معسكر فيصل، وفي التاسع من أيار (مايو) **١٩١٧** غادرت الوجه حملة صغيرة يقودها الشريف ناصر بن علي ومعه عودة أبو تايه من قادة الحملة والذي أخذ على عاتقه تجنيد أكبر عدد ممكن من رجال البدو لمقاتلة الترك، ورافق الحملة نسيب البكري والضابط زكي الدروبي كي يبثا الدعوة للثورة في سوريا، كما رافق الحملة الكابتن لورنس باعتباره خبير متفجرات.

وهكذا انطلق رجال الحملة من الوجه على شاطئ الحجاز باتجاه الشمال الشرقي وسط الصحراء الموحشة القاحلة، وعبرت الحملة خط سكة الحديد بعد أن نسف رجالها عدة قضبان وقطعوا أسلاك الهاتف، واستمرت الحملة في سيرها حتى بلغت العيساوية وحل رجالها ضيوفاً عند علي أبو فتنة أحد شيوخ الحويطات.

ومن هناك قصد عودة مضارب صديقه نوري الشعلان شيخ قبيلة (الرولة) الكبيرة، وهو يحمل هدية ثمينة له من فيصل بن الحسين، ونجح عودة في إقناع نوري باتخاذ موقفاً ودياً من الثورة دون أن يصارح الترك بالعداء، وعاد فالتقى الحملة في (عقيلة) بوادي

السرحان، وهناك كان بيت الشعر الخاص بعودة والذي كان قائماً على سبعة أعمدة طولاً وثلاثة أعمدة عرضاً. وأخذ البدو يتوافدون للانضواء تحت راية الثورة حتى اجتمع منهم ما يزيد على خمسمائة مقاتل، وعندما أتموا استعداداهم ساروا إلى جراجر (وهو الموقع الذي استقى منه خالد بن الوليد ورجاله أثناء مسيرهم من العراق إلى اليرموك) ومن هناك اتجهوا غرباً إلى (باير) واستقوا من إحدى آبارها.

وسارت الحملة حتى بلغت وادي الضليل بين الزرقاء والمفرق وكان معها لورنس الذي كان يعمل لتفجير المفرقعات وقطع ما يتمكن قطعه من خط سكة الحديد. ورد الترك على الهجوم والذي امتد من معان إلى الزرقاء بمدافع الميدان، بعد ذلك قام عودة بشن هجوماً مزدوجاً على المراكز العثمانية ودارت معركة حامية انتهت بقتل (٣٠٠) وأسر (١٦٠) من الأتراك، ولم يصب عودة بأي أذى رغم أنه قاد الهجوم على رأس رجاله، وقتلت فرسه التي كان يمتطيها، واخترقت ثيابه ست رصاصات.

ثم فكر عودة بمهاجمة معان إلا أنه رأى أنها موقعاً حصيناً كونها محطة رئيسية لسكة الحديد. والبدو يشنون هجماتهم على طريقة الغزوات في الفلوات المفتوحة الواسعة.

أما الحملة الرئيسية فقد سارت جنوباً نحو العقبة، وبلغت الحملة (القويرة) والتي قامت حاميتها (١٢٠) رجلاً بالتسليم، ثم كان القضاء على حامية (كثارة) واقترب عودة ورجاله من مدينة العقبة ورفضت الحامية التركية (٣٠٠) رجل الاستسلام وأخذ العرب يضيقون عليهم الخناق، وبعد شيء من المطاولة عمدوا إلى الاستسلام.

وفي السادس من تموز دخل عودة ثغر العقبة، وحقق بذلك ما عجز عنه الإنجليز. وبهذا النصر امتد نطاق الثورة إلى سوريا الطبيعية، وانتقلت العمليات إلى قلب الجبهة التركية. وهذا ما أدخل السرور على قلب الجنرال اللنبي.

وكان الفضل في هذه الانتصارات أو معظمه يعود لجرأة وإقدام عودة أبو تايه ومعرفته التامة بالأرض وحسن تخطيطه القتالي. وبعد مجيء فيصل إلى العقبة وصل عودة أبو تايه أيضاً من القويرة ودخل ضيفاً على سمو الأمير الذي استقبله أحسن استقبال وقبله بين

عينيه، لأنه في الحقيقة هو الذي استولى على العقبة مع قبائل الحويطات التابعين له، وشكر له ولقبيلته هذه الخدمة العظيمة، فأجابه عودة: إن ما يأتيه من الخدمة إنما هو خدمة لأمته وللبيت الهاشمي محط آمال الأمة العربية وبالتالي فإنه يخدم نفسه وقبيلته وأبناءهم من بعده، وأنه يأمل أن تكون هذه نظرة الجميع وهدفهم لخدمة أمتهم.

وجاء في جريدة (القبلة) أن الملك حسين أهدى سيفاً للشريف ناصر وآخر لعودة أبو تايه، لما ظهر من بسالتهم وخدمتهم في فتح العقبة.

ومما جاء في مذكرات جعفر العسكري:

كان رؤساء القبائل يتواردون على العقبة للسلام على الأمير فيصل، وكان أجلّ أولئك الرؤساء شأناً رؤساء الحويطات، وفي مقدمتهم رئيسهم الأكبر عودة أبو تايه ومحمد الدحيلان وحمد الجازي، وكان عودة في الحقيقة من الأبطال المشهورين بشجاعتهم وكرم أخلاقهم وجودهم، وليس بين أعضائه عضو سليم من جرح رصاصة أو سيف أو خنجر، أي أنه كان دائماً في مقدمة رجاله حين الهجوم على أعدائه، فلولا بسالته وتضحيته هو وأولاد عمه لما تمكن الشريف ناصر من الاستيلاء على العقبة والنقاط الأمنية بين العقبة ومعان.

اتخذ عودة من القويرة مقراً له وشكل من رجاله حاميات تمركزت في المخافر والقلاع التركية التي تم الاستيلاء عليها. ولم يكن لدى الأتراك قوات كافية في معان للقيام بهجوم معاكس وقاموا بجمع أعداد كبيرة من فرسان الكرك وبعض القبائل البدوية وحاولوا أن يزحفوا بهم لمقاتلة عودة، ولكن هؤلاء فطنوا لما يراد لهم فرفضوا مقاتلة إخوانهم وتفرقوا.

وقام عودة ورجاله بالمرابطة في تلك المواقع أكثر من أربعين يوماً إلى أن انتقلت كتيبة عربية من الوجه إلى العقبة بقيادة جعفر العسكري، ثم لم يلبث جيش فيصل أن انتقل كله إلى منطقة العقبة وأخذ يشن الهجمات على المواقع التركية في معان. وشعر الترك بالمركز الخطير الذي يحتله عودة في جيش الثورة بما له من نفوذ وهيبة بين عشائر البادية، فأرسلوا له الرسل من شيوخ الرولة ومعان والطفيلة يعرضون عليه الانضمام إليهم ويغرونه

بالأموال الطائلة والمناصب الرفيعة، بل وقيل إنهم عرضوا أن يعينوه (أميراً للشـــراة) وأن يسووا القضية العربية وفق ما يريده المعتدلون من أقطاب حزب اللامركزية، ولكن عودة رفض تلك العروض قائلاً: إنه يساهم في الثورة لا طمعاً بمال أو جاه وإنما بـــدافع إيمانـــه بأمته العربية وحقها في الحرية والحياة الكريمة.

ونشرت جريدة (المقطم) التي كانت تصدر بالقاهرة، أن جمال باشا أرسل رســـالة إلى عودة يطلب منه أن يظهر طاعته، مع الوعد بأن يجعله ((ممتـــازاً بـــين مشـــايخ العـــرب والعشائر)) إذا هو ألقى القبض على الشريف ناصر. وقد أجابه عودة قائلاً بـــأن قتـــال الأتراك أصبح واجباً وطنياً، وأن عليهم أن يجلوا عن بلاد العرب.

أما أعمال عودة خلال الفترة الواقعة بين فتح العقبة والـــدخول إلى دمشـــق ١٩١٨ فجزء لا يتجزأ من تاريخ الثورة العربية وكفاحها في ميدان الحرب. لقد ساهم عـــودة في جميع المعارك التي خاضها الجيش الشمالي، إن لم يكن بنفسه فبنفـــوذه وزعامتـــه وقوتـــه المعنوية. واشترك عودة مباشرة في العمليات الهجومية على معان والطفيلة ومحطة الجردونة، وساعد فيصل على حل الخصومات الناشئة بين البدو مما كان له أهمية كبـــيرة في توحيـــد الصفوف للعمل المشترك.

ويستدل على مكانة عودة عند فيصل مما جاء في رسالة بعث بها فيصل إلى أخيه زيـــد أوائل سنة ١٩١٨: ((عودة أبو تايه صديق من الروح، استشره في جميع الأمور ولا تخفي عليه شيء تراه ينفعل، وأطلعه على كتابي هذا)).

وساهم عودة مساهمة فعالة في الهجوم الكبير الذي شنه الجيش العربي بالتعـــاون مـــع الجيش البريطاني في أيلول ١٩١٨ والذي أدى لخروج القوات التركية من سوريا. وتبدت روح عودة القومية يوم رفض رفع العلم الفرنسي على دار الحكومة في معان بعد دخـــول الفرنسيين دمشق، ونزع هذا العلم ورفع مكانه العلم العربي وألقى بمن رفعه بالسجن، لا بل وجعل من دار الحكومة مسكناً له ومستودعاً لذخائره، كما طلب من الملك الحسين في الحجاز إرسال أنجاله على رأس جيوشهم لمحاربة الفرنسيين في دمشق.

وبعد خروج الملك فيصل من سوريا كان عودة في طليعة من طالب الملك حسين بن علي بالعمل من أجل ملء الفراغ في شرقي الأردن وبعث وعدد من زعماء معان والمنطقة المحيطة عريضة للملك جاء فيها: ((إننا لم نخض غمار الحرب الذي مر إلا لنحرز الاستقلال العربي ونكون أمة عربية إسلامية حرة مستقلة تحت راية ملك عربي يمثل الأمة العربية. ونحن نرفض كل سيطرة أجنبية رفضاً باتاً)) ووقع على العريضة حامد الشراري وحسين كريشان وعودة بن زعل ومحمد دحيلان وعودة أبو تايه (أمير معان).

وعند مجيء الأمير عبد الله إلى معان خريف **١٩٢٠** قدم له عودة مبلغاً من المال ومقادير كبيرة من السمن. وكان في طليعة القائمين على تأسيس الإمارة في شرقي الأردن.

وبعد تأسيس الإمارة بقي عودة على عقيدته الوطنية، إذ قاد المظاهرات الصاخبة في عمان عندما اعتقل الإنجليز المناضل السوري إبراهيم هنانو في القدس (آب **١٩٢١**).

وعاد عودة إلى مضاربه شرقي معان وطلبته الحكومة فاعتذر عن الحضور. ثم حضر بدعوة أخرى عام **١٩٢٢** إلى عمان حيث اعتقل في سجن السلط، ولكنه تمكن من الفرار. وغادر عودة الأردن إلى العراق حيث أقام في ضيافة الملك فيصل، وفي عام **١٩٢٤** أصدر الملك عبد الله العفو عنه فعاد إلى عمان، ويُقال بأن سجنه كان بسبب استبداده في حكم معان، والذي اعتبر نفسه حاكمها ويدير حكمها كما يشاء.

لم يعش عودة طويلاً بعد ذلك، فقد وافاه الأجل ليلة الثلاثاء في **٢٢** تموز **١٩٢٤** بداء السرطان، إثر عملية جراحية أجريت له في القدس، وقد دُفن في عمان باحتفال رسمي كبير.

وصف لشخصية عودة أبو تايه كما رواها قادة عاصروه

وصف لورنس المسمى (لورنس العرب) عام **١٩١٧** عودة أبو تايه في نشرة (المكتب العربي) التي كانت تصدرها دوائر الاستخبارات الإنجليزية في القاهرة فقال:

((إن زعيم التوايهة هو عودة الذي لا مثيل له. وهو في الخمسين من عمره تقريباً، ولكن قامته الطويلة ما تزال منتصبة كالرمح، إنه ضامر البدن، خفيف الحركة، له نشاط

الشباب، أما وجهه الشاحب المتجعد فوجه بدوي خالص البداوة، جبهة عريضة واطئة، وأنف حاد مرتفع أقنى، وعينان رماديتان وفم كبير، وذقن مدببة وشاربان. وهو كريم لا يجارى حتى ألحق به كرمه الفقر واستنفذ مغانم مئة غزوة ناجحة لقد تزوج (٢٨) امرأة، وبفضل زعامته صار التوايهة أكفأ قوة محاربة في غرب الجزيرة العربية. وقد بلغ في غزواته حلب والبصرة والطائف ووادي الدواسر.

يمكن أن نعتبر عودة سريع الغضب، شديد المراس، ولكنه مع ذلك صبور واسع الصدر، يتقبل النصح والنقد والتجريح أو يتجاهلها—بابتسامة ساحرة لا ينضب معينها —. ولن تجد في العالم شيئاً يمكن أن يزحزحه عن موقف اتخذه لنفسه. وهو يرى الحياة من خلال بطولاتها، ويغني لنفسه بصوت ضخم لا يخلو من العمق والجمال، حينما لا يجد من يصغي لقصصه وأشعاره، وعندما يتحدث عن نفسه فإنه يذكرها بضمير المفرد الغائب، وبالرغم من صرامته فإنه متواضع طيب القلب، مستقيم، أمين، عاطفي، بسيط يحبه أصدقاؤه رغم ما يكابدون منه.

إنه يشبه (قيصر) من حيث إقامته في منطقة مفتوحة تحيط بها حلقة عظيمة من الأعداء – وترى نوري الشعلان يتظاهر بصداقته لعودة، ولكنه في الحقيقة مثله مثل شيوخ القبائل الصديقة الأخرى – يبذل جهوداً كبيرة لتفادي استثارته وإغضابه، ولا يضيع عودة أية فرصة تسنح له كي يزيد عدد أعدائه، وسعادته غامرة بالوضع الحالي لأنه يمنحه وضعاً مثالياً للهجوم على الأتراك. وقد أرسل إلى متصرف الكرك رسالة عنيفة جاء فيها: ((من عودة أبو تايه إلى متصرف الكرك: بعد السلام أنذرك بلزوم مغادرة بلاد العرب قبل نهاية شهر رمضان، البلاد بلادنا ونريد أن يحكمها أهلها إذا لم تغادر فإني سأعتبرك عاصياً، وسأهجم عليك حتى يقضي الله بيننا)).

ووصفه لورنس في موضع آخر فقال: ((إن عودة أفضل رجل في جزيرة العرب يمكن أن يكون إلى جانبك في معركة، بل إنك تكون مقداماً بعيد الهمة إذا استطعت أن تجاريه طويلاً)). وروى لويل توماس أن (٢٥) رجلاً يستطيعون أن يصطفوا دفعة واحدة حول

(منسف) عودة. وذكر لعودة ذات يوم أن بلاده تخلو من الإبل.. فأجابه عودة بأنه يقـــدم له عشرين ناقة من نياقه العُمانية البيضاء، واضطر لويل عندئـــذٍ إلى اســـتعمال أســـاليبه البلاغية كلها حتى استطاع أن يقنع عودة باستحالة قبول هذه الهدية. وشبهه توماس هذا بروبن هود المشهور في تاريخ الإنجليز القديم.

ومن دلائل جرأته أن طائرة حملته ذات يوم ولأول مرة في حياته وفي الجو أخذ يحـــث قائد الطائرة على التصعيد في الجو أكثر فأكثر عوضاً عن إبداء تخوفه وهي التجربة الأولى له في حياته.

ووصفه اللواء محمد علي العجلوني بقوله: ((أبو تايه يجمـــع إلى بطولتـــه في الحـــرب، الدهاء وحصافة الرأي ويلم بسائر الاتجاهات العشائرية، مع صدق في عزيمته وإخلاص في عروبته)).

وقال عبد الفتاح اليافي في كتابه ((مذكرات قائد عربي)) أن الكلمات تخرج من صدر عودة في صوت جهوري يسترعي الانتباه، وأنه اتصف بكرم نادر المثال.

ومن أقوال عودة التي تدل على جرأته ووعيه السياسي بشؤون العالم وتجاوز الحقوق، أن جمعه يوماً مجلس الملك عبد الله المؤسس بالمنـــدوب الســـامي في فلســـطين هربـــرت صموئيل، والذي قال لدى تقديم عودة إليه، بأنه سمع كثيراً بهذا الاسم وسمع عن فروسيته وشجاعته، ولكنه أي هربرت يعجب كيف يبيح عودة لنفسه أن يغزو القبائل الأخـــرى وينهب مواشيها، فانتفض عودة وأجاب يرد على صموئيل: إنني أكسب بعض الخيول أو الجمال إذا غزوت أبناء عمومتي. ولكن أنتم يا حضرة المندوب ماذا تعملون، ألا تقومون بغزو الأقطار البعيدة عنكم وامتلاكها والتحكم بها، ألا تعتبرون عملكم غـــزواً يفـــوق غزوات البدو المحدودة في السلب والنهب؟

وهنا دُهش صموئيل واكفهر وجهه ثم انتقل للحديث عن موضوع آخر. رحـــم الله عودة أبو تايه ورزق أمتنا رجالاً كثراً من أمثاله.

المراجع

١- الحسين بن طلال: مهنتي كملك

٢- رندا حبيب: الحسين أباً وابناً

٣- ساطع الحصري: يوم ميسلون

٤- امين الريحاني: فيصل قلب العراق

٥- محمد حمدي الجعفري: الملكة عالية

٦- خليل إبراهيم حسين: عبد الكريم قاسم ذلك اللغز

٧- مليكة أوفقير: السجينة

٨- مجموعة من الكتاب – كتاب العربي: الغرب بعيون عربية

٩- حازم حسن علي: انتفاضة الموصل

١٠- د. يوسف هيكل: جلسات في رغدان

١١- نذير فنصة: أيام حسني الزعيم

١٢- د. سليمان المدني: هؤلاء حكموا سوريا

١٣- فاطمة أوفقير: حدائق الملك الخلفية

١٤- عدنان ساري الزبن: صور من تاريخ الجهاد الهاشمي.

١٥- محمد رفعت: مذكرات صحفي

١٦- مجموعة مؤلفين: دراسات في الثورة العربية الكبرى

١٧- حنفي المحلاوي: الملكة نازلي.

١٨- سليمان الموسى: أعلام من الأردن.

١٩- سليمان الموسى: رجال عرفتهم.

٢٠- د. تيسير جبارة: قضية فلسطين من خلال سيرة الحاج أمين الحسيني.

٢١- عبد الكريم العمر: مذكرات الحاج أمين.

٢٢- نوبار باشا: عرض وتقديم نبيل زكي.

٢٣- مجموعة باحثين: وصفي التل فكره ومواقفه.